

أحمد مراد

الفيل الأزرق



الفيل الأزرق

أحمد مراد

تصميم الغلاف: أحمد مراد

تصوير فوتوغرافيا: خالد ذهني

الطبعة الأولى ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

دار الشروق

٨ شارع ميمية المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٢٩٩

www.sborok.com

رقم الإيداع ١٦١٧٠ / ٢٠١٢

ISBN 978-977-09-3154-7

أحمد مراد

الخييل الأزرقه

دار الشروق

أخسطنس..

درجة الحرارة: ٤٣° C..

منبه المحمول انتزعني من غياهب النوم، راقداً على جانبي الأيسر
اللفظ أنفاسي، قلبي مُتسحق في ضلوعي، صفراء معدني تسلخ خلقي
والعرق يكسوني كملاككم في جولته الثانية عشرة..

مددت ذراعي قسراً إلى المنضدة فلم تتحرك تنميلاً، نفقتها
ليتدفق الدّم فيها قبل أن التخط المحمول لأخرس إلحاح جرسه
المُستفز، تعاملت لأجلس مقاوماً مكبرات الاستيقاظ وهذاع شرعي
من بقايا الكحول في أورديتي، جَمرة مُستعرة في مؤخرة رأسي نصب
الحُمم بين عيني، في مِرآة الدُّولاب المُواجه لمحتني، مأساة إغريقية
لن تدون! قُردت ظهري فطقطقت فقراتي المّا قبل أن ألفف بـسِجارة
الاستصباح وأنا أتأمل الماكينة الـHarley Davidson، «لون كريمي»
فِرَاز «Fat Boy» ١٣٢ فرس، الرابضة بجاني تحتضن المِخَدَات
بين ساقبها، ليلة أمس رَوّع زَئير مُوتورها جيراتي وترك لي رُكوبها
شداً عَضَلِيّاً، تأملت مُنحنياتها القياسية، مَنكبيها ناصعي الياض
المُرضعين بالنُمش، خُصلاتها العَجْرية العَاقبة بالكحول، وعدادي
السُرعة المُدَلِّين اللذّين تركت عليهما بصماتي..

مَايَا.. حالة الجو معك دائمًا..

صيفًا كاريبيًا.. على القمر.. ☺

استحلبت نيكوتيني ثم أنزلت قَدَمي أتَحَسَّسُ شِبْشِبًا تَرْتَحُتُ فِيهِ
حَتَّى الْمَطْبِخِ عَلَى صَوْتِ طَقْطَقَةِ كَاجِلِي الْمُعْتَادَةِ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ،
التقطت من الثَّلَاجَةِ زَجَاجَةَ «Meister» تَرْتَجِفُ، لَا يَفِلُ صُدَاعُ كُحُولِ
إِلَّا الْكُحُولُ! تَجَرَّعْتُهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً ثُمَّ أَضَفْتُ الزَّجَاجَةَ بِحِرْصٍ إِلَى
هَرَمِ الزَّجَاجَاتِ الْفَارِغَةِ الَّذِي أَصْدَرَتْ قَرَارًا بِتَشْيِيدِهِ مِنْذُ شَهْرَيْنِ
لِتَحْمِلِ اسْمِي تَخْلِيلًا، يَضَعُ زُجَاجَاتٍ إِضَافِيَّةً وَأَبْلَغُ الْقِيَمَةِ! حَمَلَتْ
مُكْعَبَاتِ الثَّلَجِ مِنَ الْفَرِيزْرِ إِلَى الْحَمَامِ، فَتَحَتِ الْمِيَاءَ بَعْدَمَا وَضَعْتُ
السَّادَةَ ثُمَّ أَفْرَغْتُ يَدَيَّ، امْتَلَأَ الْحَوْضُ فَلَمَسْتُ رَأْسِي فِي الْمِيَاءِ
الْمُثَلَّجَةِ قَبْضًا لَا وَعِيَتِي الْمُحَضَّنَةِ، مُحَاوَلَةً دَيْلُومَاسِيَّةً لِإِقْنَاعِ الدَّمِ
بِالْكَفِّ عَنْ طَرَفِ رَأْسِي، دَقِيقَةً وَخَبَّتِ الْجَمْرَةُ، ثُمَّ انْطَفَأَتْ، زَفَرْتُ
لِخَفَاسِي فِي سَبْعَةِ وَثَلَاثِينَ عَاقِمًا مَعْكُومَةً أَمَامِي فِي الْمِرَاةِ! زَمْنَا يُغَيِّرُ
فِيْلَا، لَكِنَّهُ يَظَلُّ فِيْلَا بِخُرْطُومٍ! أَمَّا أَنَا فَلَا! كُلُّ سَنَةٍ تَعْرِى أَلْقَى فِي
الْمِرَاةِ غَرِيْبًا لَبْدَلٍ جُهِفًا فِي اسْتِعَابِ قَسَمَاتِهِ، مُقَارَنَةً بِصُورِ الثَّانِيَةِ
الْعَامَةِ؛ أَنَا لَمْ أَعِدْ أَثْمَ لِي بِصِلَةٍ! هَذَا بِالإِضَافَةِ لِعَوَاسِلِ التَّعْرِيفِ؛
ذَقْنِ تَغْزُوهَا الشُّعْبِرَاتِ الْبَيْضَاءُ بِاسْتِحْيَاءٍ، أَسْنَانُ تَطْلِمُهَا الشُّجَاثِرُ
وَالْقَهْوَةُ بِالتَّائِبِ، وَهَيْنَانَ تَرْحِفُ عَلَيْهِمَا الْعُرُوقُ الْحَمْرَاءُ رُحِفَ
الْبِلَابِ عَلَى الْجِدْرَانِ..

صَوْتٌ خَفِيفٌ..

استسلمت لِنُفْسٍ بَارِدَةٍ قَبْلَ أَنْ أَغْرَسَ قَلَمُ الْأَنْسُولَيْنِ الرَّحِيمِ فِي
فَخْذِي، ثَلَاثُونَ وَحِدَةً يُعَوِّضُونَ تَقَاعُسَ بَنْكَرِيَّاسٍ مُخْزٍ وَيَحْرِقُونَ

مقدّمًا ما «سأمرمه» من الشارع حتى الليل، سحقت سميطة في قطعة جبن وأنا أرمق ظرف خطاب الإنذار الملقى فوق المنضدة، أخرجت الورقة منه وتمشيت بعيني فوق كلماته اللزجات..

إنذار رقم ٢: «انقطاع عن العمل بدون إذن»..

«السيد/ يحيى... ممم... وحيث إنك قد تعيّنت العملة القانونية ١٥٥ يومًا مُنقطعًا عن العمل بدون إبداء إذن تقبله الإدارة... ممم... فإن الإدارة مضطرة لاتخاذ... ممم... وتطبق أحكام المادة ٩٨ من القانون ٤٧ لسنة... ممم... بالفصل النهائي...».

لعن الله الشئون القانونية وأحرق ملفاتنا وشرّد موظفينا!

بثرت قراعتي وكوّرت الجواب لألقيه في صندوق القمامة ليقط كالعادة بجانبه، ثم دلفت غرقتي وقحت الدولاب لاكتظ ما لرتديه حين لمّخت سُترة قديمة تتولّى مني في رُكن، نفضتها وجربتها فُضولًا فبدوت داخلها تحيلًا كمطرقة الجرس للجرس، خلعتها ووضعتها في كيس وأكملت ارتداء ملايسي مُجاهدًا للعشور وسط العدم واليه على جوربين من نفس اللون قبل أن أتجه لحايا النعمة على بطنها قبيلة طعنات اللدغ، أزحت خُصلاتها من فوق أختها ووسّست لها:

- مايا.. عندي مشوار لازم أروحه..

لم تتحرك ولم تفتح جفניה، فقط أجابت بشفاء مبحوحة بملتها الدّلال:

- بتهزّر.. استنى أمّا أصحّا..

.. ما بنفمش .. أبقي كلميني ..

تاء بت ..

..ok ..

.. اقفلي مَحْبِس الحمام بعد ما تستحْتِي واقفلي الباب بالمفتاح .

مايا! سامعاني ؟

..ok.. ok ..

أهم ثلاثة اكتشافات عرفتْهم البشرية:

الكهرباء ..

الكحول ..

ومايا™ .. ٢٨ سنة من الخبرة ..

طبعت على ظهرها قُبلة قبل أن أخرج إلى الحديقة المَنسية
المُحيطة بيّتي، مَشيت فوق العشب الجائع قبل أن أُمُر بسيارتي
الراقدة أمام المدخل مثل خريت متزوج القرن، الغطاء كان مرفوعاً
عن الرُفرف الأيسر، أرخيته حتى كسا العجلة الفارغة التي عَانقت
الأرض ثم حَبَرَت الشارع واشتريت جريدة هي الأولى التي أبتاعها
مُنذ خمس سنوات، أشرت لتاكسي غُصت في كُنْبته وارتدبت نظارتي
الشمسية قبل أن أخرج عِدْتي المتواضعة؛ بَقرة وتبغاً وماكينة لف،
لا أطيع السجائر الجاهزة سريعة الاشتعال المليئة بالفتران المَهروسة
ويُصاق العاملين! حَشوت عشر سجائر «شرعية» سيكفونني نصف
النهار وأنا أتابع عَيْنِي السَّائق تلعنني في المرأة بشفتين مُشمزتين

يَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ حَشَّاشِ مَارِقٍ، هَذَا الرَّجُلُ لَا يَعْرِفُ أَنِّي لَمْ أَزِدْ
«عَوْنِي» لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ حَتَّى الْآنَ!

أَطُولُ مَدَّةَ قَضِيَّتِهَا بَعِيدًا عَنْ جَشِيثَةِ الْمَغْرِبِيِّ!

حَشَوْتُ السَّجَائِرَ فِي عِلْبَتِي وَأَنْزَلْتُ الزُّجَاجَ لِأَتَفْتَحَ نِيكُوتِي فِي
الشَّوَارِعِ، أَتَابِعُ الْمُتَزَلِّقِينَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ أَنْصَافَ نِيَامٍ يُحَاصِرُ الْعُمَاصُ
أَعْيُنَهُمْ، قَبْلَ أَنْ أَنْحَشِرَ فِي زِحَامٍ جَعَلَنِي أَنْسَاءُ لَ إِذَا مَا تَمَّ غَزَوُنَا:
هَلْ سَيَجِدُ الْغَزَاةُ مَكَانًا خَالِيًا لِدُبَابَاتِهِمْ؟!

فَتَحْتُ الْجَرِيدَةَ وَلَمْ تَخْذِلْنِي، الْمَلَلُ كَانَ رَئِيسًا لِلتَّحْرِيرِ! رَحِمْتَ
حَتَّى صَفْحَةَ الْحَوَادِثِ قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَ:

.. هُوَ الْمُنْحَفُ الْإِسْلَامِيُّ انْسَرَقَ؟

سَأَلْتُ السَّائِقَ بِجَهْلِ حَقِيقَتِي فَحَدَّجَنِي فِي الْمَرَاةِ بِنَظَرَةٍ تَفُوقُ
عَلَى «سَبَّةِ بِالْأَمِّ» قَبْلَ أَنْ يُجِيبَنِي:

.. حَمْدُ اللَّهِ عَلَى السَّلَامَةِ يَا بَاشَا.. الْكَلَامُ دَهْ مِنْ تَمْتَشْهَر.. وَمَشْ
لَاقِينَ اللَّي سَرَقَ لِحَدِّ دِلُوقْتِ.. كُلُّ يَوْمٍ يَقْبِضُوا عَلَى وَاحِدٍ وَيَطْلَعُ
مَشْ هُوَ.. وَلَادَ الْكَلْبِ صَرَفُوا عَلَى تَجْدِيدِهِ وَتَأْمِينِهِ يَبْجِي دِيْشَلِيُون
جَنِيهِ.. وَفِي الْآخِرِ يَتَسَرَّقُ!! كَانُوا صَرَفُوهَا عَلَى عِلَاجِ الْحَشَّاشِينَ
اللِّي مَلُوا الْبِلْدَ!!

اسْتَقْبَلْتُ رِسَالَتَهُ الْمَسْمُومَةَ بِابْتِسَامَةٍ صَفْرَاءَ فَأَغْلَقْتُ الْجَرِيدَةَ
وَحَشَرْتُهَا فِي ظَهْرِ الْكُرْسِيِّ الْمُقَابِلِ هَدِيَّةً لِمَنْ بَعْدِي، ثُمَّ اسْتَمْتَعْتُ
بِالْعَوَادِمِ وَالضُّجُجِ وَدُخَانِي الَّذِي ضَاقَ حَتَّى وَصَلَتْ أَمَامَ سَوْرِ
الْمُسْتَشْفَى! مُسْتَشْفَى الْعِبَاسِيَّةِ لِلْأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، حَاصِبَتِ السَّائِقُ

بجانبي نبت «عم سيد» من عدم؛ أشهر مريضى المستشفى، ترزى عتيق تخطى العقد السابع ولا يذكر أحد تاريخاً لدخوله، ولا حتى هو!! «Residual Schizophrenia»^(١) كانت حالته حين تركته منذ خمسة أعوام، يرتدي قميصاً كان أخضر وقبعة رياضية هالكة لم تخف ابتسامة شحيحة الأسنان، تطل نصف قدميه من قَبَاب خَشبي مهتوك لتُدلي بأصابعه المَنسِيّة إلى الأرض، ويحمل في يده كيساً مُتخماً بالأمشة والخُيوط والإبر:

.. أهلاً عم سيد.. إزيك يا راجل يا طيب..

هَمَس بصوت خفيض:

.. هو عارف إنك هترجع.. مكتوب نتقابل عند الشجرة..

تخطيت إشارته عمّن قال له إنني سأرجع وسألته عن شجرة الكافور المَقطوعة.

.. سمعت بوداني صريخها وهما يبدبحوها..

.. صريخها!! زي الفل.. أنت لسه في «رعاية وَسَطية» مش كده؟ هاعدي عليك يا عم سيد..

همّ الرجل بالرحيل فاستوقفته وناولته سترتي القديمة.. ستبدو على جسده كغطاء سيارة فوق موتوسيكل!

(١) الفصام المتبقي: يتسم هذا النوع من الفصام بفضلات وهلاوس واضحة، يظل التفكير غير منظم مع اختلال في السلوك وتدهور في مستوى الأداء الاجتماعي والوظيفي، يهمل المريض مظهره ونظافته ويظل سلبياً منسحباً من الحياة والمجتمع.

- أيتها بقى وقلبها على قلبك أنت أستاذ.. دي كانت جبالى من
بزه والله..

ابسم للرجل مُمتًا قبل أن يحتضن الشرة ويرحل..
صعدت سلالم مبنى الإذاعة متجنبًا أعين زملاء وعاملين تمسحني
مسحًا، قرأ لأسئلة لن أجد في نفسي عزماً للرد عليها، تجاهلت
فصولهم ودلفت مكتب مُنيرة المُستشفى، دُكتورة «صفاء»، رَغِم
تخطيها مُصنف الخمسينيات لا زالت تحتفظ بمسحة جمال ترقمه
المساحيق وأظافر مصبوغة مُعتنى بها، حين رأته عند الباب أنهت
مكالمة تليفونية وزمفتني بعباب قالت أرادت مني استشارته حين
صالحتها «كاتم الأنفاس» كي لا يتغلب مني هوى كحول الصباح..

- أهلاً يا يحيى.. إيه! المستشفى ما وحشتكش؟!

جلست أمامها:

- وحشتي، بدكاترتها وحبائنها..

- تشرب إيه؟

حاولت نحمل أشعة الشمس الآتية من فناء خلف رأسها:

- قهوة.. نص معلقة سكر..

لحنت على التليفون:

- قهوة عليها نص معلقة سكر يا بدر..

- إيه اللي حصل لشجرة الكافور الكبيرة؟

- دي كانت فضيحة من أربع سنين.. الحمد لله إتنا وقفناها على
قد كده.. المحافظة كانوا عاوزين يشيلوا شجر أصغره متنا!
صعدنا الموضوع للوزير والمصري اليوم، كبت عنه.. مش ممكن
تكون ما سمعتش!

- ما بقراش جرايد-

- لسه قاعد لو حدك؟ مافيش...؟

- ما بارتاحش غير وأنا لو حدي، بس باروح إسكندرية كل أسبوعين
أزور ماما وأختي..

قاطع حديثنا دخول القهوة مع الساعي، حياي بعضن ودود
وخد حرقان قهرت نفسي كي لا أسمع ببله قبل أن يخرج، أرخت
وصفاه نظارتها على أنفها تصنع انشغالا في الأوراق فعرفت أنها
قد أنهت مقدمة روتينية لا بد منها ونستعيد حالنا لانقضاضة أبلأ
نركني ارتشف بعض الكافيين ثم سألت بدون أن تنظر لوجهي
إمعانا في إدهابي:

- وصلك جواب شعرون العاملين؟

تطلب الأمر رشفة أخرى قبل أن أجيبها:

- التهديد؟! وصل..

فجرها استفزازي المتعمد:

- يحيى أنت بالسنة دي كده كملت خمس سنين انقطاع عن
العمل! دي عمرها ما حصلت في تاريخ المستشفى، موظف خمس
سنين ما يجيش ولسه على قوة المستشفى! طبعا لما مقدرة اللي حصل

ومفرملة الشئون القانونية ستين مرة، لغاية ما بعتوا يسألوا عن وضعك
لما جت لجنة تفتيش من جهاز التنظيم والإدارة وسالت عتاك وكانت
عاويزة تتخذ إجراء قانوني لولا اتدخلت وأجلت تقديم الإفادة، أنا
طبعًا اللي بي تجاوز ما باسكتش معاه، وفي نفس الوقت ساكتة معاك!!
مش هاسمح لحد يقول عليا بوشين ولا باكيل بمكيالين.

- لا طبعًا، أنا عارف إن...

قاطعتني:

- ده غير إن اللي هيتأذي بتوع الإجازات والشئون القانونية! اللي
زعلني أكثر إن دكتور عبد المُعطي كمان جه اشتكاك، الراجل بيشرف
على رسالتك وأنت ثلاث سنين لا حِس ولا خبر!! ولا خطة من
أصله، إيه الحكاية يا يحيى؟! لا شغل ولا رسالة.. فاضل إيه بقى!!
- البحث أخذ وقت.. وبعدين...

- قول لي إن الدكتوراه مش مهمة.. ماشي.. مُمكن تعيش من
غيرها.. تعمل زمالة في أي جامعة من برّه ولو إني أشك.. طب
الشغل؟ برضه هتعيش من غيره!!

- أنا خلّصت من الرسالة جزء معقول و...

قاطعتني ثانية:

- دكتور عبد المُعطي قال لي إنك بتقول له كلمة «خلّصت جزء
معقول» دي بقالك ثلاث سنين.. عارف ده يعني إيه؟
- عارف.. المشكلة بس إن...

قاطعتي ثلاثة:

- يعني ينتهي كليرك ومستغليك بجزرة قلم..

كلماتها..

الفيلم الهندي المعاد الذي تشاهده للمرة الألف!

يحيى «أنا» مش مديرة المستشفى ويس، «أنا» باعتبار نفسي أخذك
الكيرة وأنت هارف، «أنا» أقضي حاجة ممكن أعملها عشان نتجنب
الفصل «إني» أرتجعك الشغل كما كنت، وتنظم، وده عشان خاطري
«أنا» شخصيًا، أنت مش هارف التفتيش كانوا هاوزين يصعدوا
الموضوع قد إيه و«أنا» منعتهم..

حقيقة علمية: تذكر المرأة في محادثاتنا لفظة «أنا» أكثر من غيمني
الرجل..

- أرجع فين ١٩

- ترجع المستشفى..

- آه...!! طيب.. أنا أخلص الرسالة.. ويعدين أرجع..

- تخلص ما تخلصش خالص، المهم وضعك القانوني يكون
سليم أنا مش ناقصة قلق، ده شرطي الوحيد عشان أتدخل وأوصي
عليك..

قالتها ودمت وجهها في الأوراق تصنع القراءة بعينين لا تتحركان
فوق السطور، تبيلني انتظارًا كشريحة لحم «جيلي» صعبة الجراس،
تابعت أمشاط قدميها المتقاطعتين في رفض، وعقرب ساعة الحائط

خلف رأسها يعدّ الثواني حتى قرّرت استئناف جولاتها الثانية.. بضربة قاضية..

- ما انتظمتش.. هاوصي عليك برضه.. بس هاوصي إنك ما تشتغلش ثاني بعد ما هتخلي منظري زفت وسط الموظفين والزّملاء.. وابقى دور على حد يشغلك بعد ما تترقد من العباسية..

ابتلعت ريقها مع آخر كلمة.. لا تعني تهديدها الأخير بنسبة ٧٢٪.. إلا أنها مستمادى في تهديدها «المنظري» حتى آخر صمم³ من هواء الغرفة..

- أحضر إزاي؟ سألتها.

- بالجدول زي زمايلك..

!!...!!

- وتخلص رسالتك..

- طب ما تأجل موضوع الرسالة و...

قاطعتي رابعة:

- أنت مش بتقول شغال في الرسالة؟ أنا عرضي Package...

.. «Take it or Leave it»

قالتها وهي ضامة قبضتها، تقاسي معها تلك اللحظة لن يكون مجدياً، كما أنها على حق بشكل مُقزز

فصلي من المستشفى سببيف إلى حوائطي بقعة لن تزول..

هززت رأسي وزممت شفتي بابتسامة «صناعة محلية رديئة»
فتنهأت وهي تقرأ خُضوعي المشكوك في ملته..

- كويس! كويس.. فكّرني موضوع رسالتك كان إيه؟

- Psychoanalysis through The Body language..

- التحليل النفسي عن طريق لغة الجسد.. كويس.. لسه عندك
ورق الدبلومة؟

- عندي..

- ده هيخف عليك كثير.. شدّ حيلك.. كله ما فاخشلش غير نشوف
مكان تنزل فين؟

فتحت دوسيتها أمامها وقلبت أوراقه:

- عندي مكان في قسم سابع «حريم»..

- مش هاستحمل التبول اللاإرادي!!

- تحب تنزل في إيه؟

حاولت التغلب على تناوب قهري بُعيني هند رغبتني في الهروب..

- حقيقي مش عارف..

..مم.. «رعاية وسطية» مليون! «صحة ٥٨» مليون بركه! إيه رأيك

في «٨ غرب»! دكتور «موقف» سافر ومحتاجه حد يسد قطرحه..

- «٨ غرب» ماشي..

- وموضوع رسالتك قريب من طبيعة المكان هناك.. ده غير إن

د. كيلاني ممكن يوافق بشرف لك على الرسالة.. بتضحك على إيه؟

- باضحك عشان حضرتك لما قلتي قسم «سابع حريم» قلتيها
وأنتي عارفة إني هارفض، وده يغلّي تفكيري بتخطّي رفضي فكرة
وُجودي في المستشفى وأبتدي أفكر في الاختيارات..

خلعت نظّارتها ورجعت بظهرها للكرسي مُبسمة باندعاش:

- بئذ ما تطلع عليا كورساتك طّلعتها في رسالتك.. يحيى أنت كنت
من أكفأ الدكاترة عندي.. فاحدّش بنسى أنت عملت إيه في الكام سنة
اللي قعدتهم معانا قبل الـ.. الخمس سنين اللي فاتوا يعني.. حرام
ده كله يروح على الأرض!

هزّزت رأسي تفهّمًا كي تُنهي مُحاضرة الكيمياء التحليلية
التي بدأتها..

- بُصّر على مبنى «أ» غرب «الجديد» قبل ما تمشي.. قبل باب
صلاح سالم على الشمال..

- عايشي..

قبل أن أصل للباب استوقفتي:

- بقول لك يا يحيى.. بالنسبة لدفتك؟

- إيه؟ بقت متنوع دلوقتي؟

- لا.. هي بس مكبراك شوية.. وأنت عارف بتحاول تخبّ

الـ «مستشفى» بجاعت الطيب النفسي ودفء والباب اللي هرونا بيها في
الأفلام.. يعني!

بترت كلماتها لما قرأت الاستكثار في وجهي:

.. Whatever .. حمد لله على السلامة..

كيف يمكن أن تسوء الأمور أكثر؟

تقبلي العودة للعمل ثانية أشبه برجوع سجين مؤبد إلى سجنه
طواعية، بعدما هرب من ضحو مُبكر، توقيع حضور وانصراف،
اجتماعات أمانة الصحة الدورية، والثروة الإجبارية مع الزملاء.

الجهيم حين يكون Organic ..

كثنية دفاعية ضد ارتفاع السكر في دمي تناسيت الأمر مؤقتاً على
أن أعمل جاهداً وبكل إخلاص وصدق على افتعال حجة هروب
مُقنعة في الأيام المُقيلة، استأذنتها ووقعت ورقة العودة إلى العمل
بخط غائر مملوء غلاً قبل أن أتجه إلى مبنى ٨٥ غرب^(١) ..

المسافة الطويلة من مبنى الإدارة حتى الحدود الغربية للمستشفى
استغرقت سيجارة، طريق على جانبيه شجر عتيق يرقب القادمين،
دعوت في سري الأتباركني أسراب أبو قردان الرابضة على الأغصان
بلغة كريمة حتى وصلت أمام سور عال كُتب عليه بحروف نحاسية
كبيرة لوحة الطب النفسي الشرعي، تعطي زواياه كشافات كبيرة
ستحيل الليل نهراً بعد الغروب وأبراج عالية تأوي الحراس، قرض
أمامه سيارة ترحيلات كبيرة جلس فيها صاحبان أنصا المثل وراء
نظارات شمس عريضة، ومن حولهما عساكرهما يهيمون تحت قبال
ما تبقى من الأشجار ..

(١) ٨٥ غرب هو الاسم القديم المعروف عليه والأكبر كشفاً برغم تغييره من
إليه مستشفى العمالية

يستقبل « ٨ غرب » المشتبه في قواهم العقلية إثر ارتكابهم جرائم، يُحالون على ذمة التحقيق تحت حراسة مُشددة ليُودعوا ذلك القسم تمهيدًا لاختبارهم نفسيًا وعقليًا على مدار خمسة وأربعين يومًا قابلة للنقص أو الزيادة، لتقييم مدى وعيهم عند ارتكاب الجريمة، إن كانوا لحظتها مسئولين عن أفعالهم فيُحاكموا مُحكمة عادية، أو أنهم كانوا تحت ضغط مَرَضِي «عقلي أو نفسي» هَيَّاهم بلا وعي لتنفيذها، فيتم إيداعهم بسجن مستشفى الخانكة ليتلقوا العلاج تمهيدًا لخروجهم حال الشفاء، تلك مُهمّة أطباء القسم، حَسَم الخِلاف بتقرير استشاري يُساعد القضاء في تحديد حكمه..

لَمَّا أصبحت أمام الباب الحديدي المُسلسل أشرت لعسكري
يَجتر شيئًا ما، اقترب فأرخيت جُفوني يقين:

- دكتور يحيى..

دَسَّ العسكري مفتاحه وفكَّ سلاسل حديدية غليظة:

- أول مرّة أشوف سعادتك!

- إجازة طويلة..

المبنى خلف الأسوار مكسو بطوب قُرْمَزي باهت، طابق أرضي كبير على هيئة مُستطيل ينقصه ضِلَع، شَبَابِيكُه مُغلّفة بالحديد وأبوابه غليظة تبثّ اليأس في النفوس، دُرّت حوله قبل أن أعبرُ بابًا كُتِب عليه «قسم الرجال (أ)»، أول من قابَلته كان «محسن»، مُمرّض مُخضرم عَمِلَ معي لِسَتَيْن من قبل، نَحَافَة مَقَشَّة، أسنان طويلة، وعين يُمنَى بؤبؤها أكبر من أختها، سَلَمَ عليّ بحرارة قبل أن نعبر أمام مكتب

يجلس عليه نقيب وأميناً شرطة، دلفنا ممراً طويلاً مزدحمًا بطفايات
الحريق والأبواب، كَسَرَ «محسن» خلاله وقع خطواتنا المرتيب برّوح
مُرشد سياحي:

- المَبْنَى أحسن بكثير من المبنى القديم، بس أرض التمريرض ضيقة
شويتين، قَسَمُوهُ «أ» خطرين و«ب» عادي، و«ج» حريم.. موجود
عندنا النهاردة اتنين وخمسين متهم، سبعة وتلاتين منهم قتل..

وَصَلْنَا أمام باب غرفة قصعها مُحسن ثم استطفوا:

- دي أوضة الدكاترة.. اللجة خلّصت بقري التهترة.. بس دكتور
سامح في الحَقَام.. أعمل شاي؟

- سامح مين؟ زيطان؟

- إن شاء الله..

من بين كُل الشخصيات عديمة الجدوى التي انضَل نسيانها
لا يوجد من هو عليم الجوى أكثر من سامح!
- خُطّيها قهوة دويل.. من غير سكر خالص..

في الغرفة انتظرت، رائحة الطلاء الجديد طاغية، مكبان صاج
وتكييف يزمرجر وثلاجة صغيرة تحت نافذة عالية بجانب وحدة
أدراج وكمبيوتر متواضع.. في مُتصفف سيجارتي سَمِعْتُ الطُرقات
على الباب:

- التدخين مَمْنوع!

سامح كان واقفاً بالباب مُبتسماً يَجْزُ أسنانه، صافحني بِعِلْ يتراوى
خلف ودة مُصطنع:

- حمد لله على السلامة.. خَسِيت أوي.. بَتَلُق في الهدوم!!

حاولت السيطرة على مَلامحي وأنا أتابع لُغده المُرْتَجِف:

- إزيك يا سامح.. ما كُتَش أعرف إنك هنا في ٨ غرب..

- إيه؟ كنت هتغير رأيك؟

عَصَرْتُ على نفسي ليمونة «أضاليا» ولَعَنْتُ المديرة في سري سَبْعِينَ
مَرَّةً حين مَسَح سامح على شعره المُبْعَثِر فوق جبينه واستطرد:

- بس يعني ما كُتَش غير «٨ غرب» عشان ترجع عليه!!

- نصيب!

- كان حَقك تنزل حاجة خفيفة تسخِّن، تأخر عقلي مثلاً ولا حاجة
إداري، أنت تلاقيك نسيت الشغل..

كلماته..

رائحة سِجادة مبلولة مُخزَنة في شقة مكتومة!

- احكي لي.. إيه الجديد؟

- المبنى كله جديد.. تعالى آخذك لُفَّة..

تَدْنِني سامح بَسَطاً لِهَيْمته، مَشِيت وراءه أتأمل حَرَكة القَهْرِية في
المَسح على شعره كُلِّ يَضَع ثَوَانٍ، يُحَاوِلُ فَرَضَ مَيطَرته على القِسم
بِشِلاَعِبَاتٍ مُبَالِغٍ فيها مع العامِلين والمرَضِين، لم تَرَق لأغلبهم، كان
يَنقُصه قَطُّ أن يَجُول على حائط ويهرش ظهره برجله ليكمل رُوتين
الكلب البلدي في تحديد منطقة نفوذها! أمسكت نفسي أكثر من مَرَّة
كيلا أركل مؤخرته القَرِيضَة!

سَحَلَنِي وِراءَهُ يُعَرِّفَنِي جُغرافيا المَبْنى والزَّملاء قَبْلَ أنْ تُصِلَ أَمامَ
عَنبرِ الحَجزِ، مُستَطيلاً كَثيراً تَتَخَلَّلُ حِوائِطُهُ نِوافِذُ مُغلَقَةٍ بِشَبكاتِ
الحَديدِ، بِامتدادِهِ تِراصَّتِ الأيسِرَةُ المَبنيَةُ كالمِصاطِبِ على الأَرْضِ
في صَفَينِ، فَوْقَها مَرائِبُ إسْفنجيَةٍ مُغلَقَةٌ بِمِلاءاتِ ومِشْمَعِ دَاكِنِ
لِزُومِ سِرعَةِ التَّنظيفِ، السَّقْفُ على ارْتِفاعِ خَمسةِ أَمَطارِ تَحْتِلُهُ مَراوِحُ
كَبيرةٌ وشَبَكَةُ اسْتِشعارِ حَرِيقٍ، وعلى الجِوانِبِ شاشاتُ تَلَفِزيونِيَّةِ
عَرِيضَةٍ تَبثُ فِضاياتِ سَخيفَةٍ لَهْزَسِ الوَقْتِ الطَوِيلِ، وفي اليَمينِ
حِمامٌ مَقسَمٌ لِسِتِّ كِباثِنِ مَكسُوةِ بَساتِنِ ومِتَزِوعِ مِناها كُلُّ ما قَدِ يَنخَلَعُ
لِيصيرِ سِلاحاً أَيْضاً..

وقوفنا أَمامَ العَنبرِ جَذَبَ بَعْضُ التِزْلاءِ، التَصَفُّوا بِالبابِ كجِماعاتِ
مِن «الزُومِي» في فِيلمِ رُعبِ رَخيصٍ، يَسْتَجِدُّونَ عِقايرَ تُمنَعُهُمُ عِناها
لَتَظْهَرَ أَعْراضُ الصادِقِ مِنْهُمُ، أو يَسْتَعْجِلُونَ إِصدارَ تَقارِيرِ خالائِهِمُ،
بَعْضُهُمُ بِطِيءِ الإيقاعِ هائِمِ المَلامِحِ والبَعْضُ طِيعِي أَكْثَرُ مِنَ اللازِمِ،
وآخَرُونَ تَطْفَحُ مِنْ أَعْيُنِهِمُ الكَهْرِباءُ الزائِدَةُ..

انْتَهى سامِحٌ مِنَ حِوارِ «فَضْرِ المَجالِسِ» حِولَ مَطالِبِهِمُ ثُمَّ اقْتَرَبَ
مَنِي يَهْميسٍ في أَذُنِي بِتِفاصيلِ بَعْضِ الحِالاتِ في مِحاوَلَةٍ لِتَأكِيدِ «كُعبِ
العالي» في المِكانِ:

.. سَعِيدٌ دَه قَتَلَ مِراتِهِ.. فَشَنكَ.. هائِترَ حَلَّ بِكَرَّةٍ.. وَدَه فُوكَسُ..
خَطَفَ جِارَتَهُ أُسبُوعَيْنِ.. وَيَعْدِينِ خَنَفَها.. اللُّجَّةُ لَسَهَ ما حَدَدَتِشِ..
واللي جَنِبَهُ دَه عِبدُ المَجدِيدِ.. سَمِّمَ أبُوهُ وَأَمَّهُ.. غالِباً «Persecution
..of Delusions»

دقائقُ وابتعدنا بَعْدَما اسْتَبطِطَ المَرَضِيُّ أَنِّي بِدِيلِ جَدِيدٍ.. في غُرْفَةٍ

الأطباء استبدل سامح بعلته بواحدة جديدة قبل أن يخط بيده على
ملفات فوق المكتب:

.. هنا الوارد الجديد، وبقية الحالات في الدرج، وجدول النيابات
متعلق ورا الباب، حمد الله على السلامة..

رَحَل سامح بعلته وغُروره وشعره المُبعثر على جبينه، لن تبرد
نفس الوغد يوماً!! انقضت سنوات ولم ينس الفتاة التي ظنَّ يوماً أنها
تنظر له ولم تكن، وما هو القدر يجمعنا عن عمد في قسم واحد!

نقضت عن رأسي وجهه المقطع واشعلت سيجارة وأنا أقلب
ملفات التُّلأ، وجوهاً تحمل وجوهاً وجنوناً وأشياء أخرى لا تصفها
كلمات، منذ خمس سنوات طُتت لها مسألة وقت قبل أن تُحشر
صورتني بينهم ألف وثلاثمائة وخمسة وعشرون يوماً أتوقع عودتي
للمستشفى كتريل.. وما قد عُلت..

مع بعض الاختلاف!!

انتظرت ساعة اضطرابية، تجرعت خلالها جرأتي فهرة وخرقت
قجرتي تبع، مُسلم لزملاء يرمقوني بفُضول مُشاهدة جُتة طازجة
تقرش الأسفلت، امتصعت تطلقهم بابتسامة حكومية مستطع
«مُستقبلاً» أرجلهم من المكان قبل أن أملك نفسي وأهرب..

كانت الساعة قد تعدّت الخامسة حين رجعت..

دَسست المفتاح في الباب بعدما التقطت مَظروفين وَجَدتهما
بِجانب دَوَاسة القَدَم التي حملت يومًا كلمة «Welcome»، نَزعت
حِذائي وسَاعتي وركلت زجاجات بيرة فارغة ثم أَرَحْتُ من فوق
الأريكة بِقايا وَجبة أمس وطفَّاية مُتخمة بالرماد والأعقاب وَغُصت
بين وسادتين بعدما فتحت التلفزيون «Mute» على قناة «National
Geographic»، أعشق تلك القناة خاصة حين يتعلّق الأمر بأسماء
القرش الأبيض، الضُّباع أو دِبة القطب، وأتمنى من صَميم قلبي أن
تَنقرض دِبة الباندا وتريحنا من دلالها غير المبرر، فلون التاكسي كان
أبيض وأسود يومًا «For god sake»!!

التقطت المظروف الأوّل، من الجُزء الشَّفَاف في الوجه طَلَّ شِعَار
البنك، بَغْثيان قَرأت ديون بِطاقة الائتمان:

جَدول تراكمات القسط الشهري + غرامات التأخير في السداد
= رمال رِبا مُتحرّكة انغرسَتْ فيها حتّى رَقَبتي!

وَضَعْتُ صَلكَ عُبُوديتي جَانِبًا والتقطت المظروف الثاني؛ أبيض
زَيّن أطرافه الشريط الأحمر والأزرق التقليدي، كُتِب عليه بخط

رديء: «يحيى راشد إبراهيم وعنواني مفضلاً» وبلا اسم للمُرسل،
فقط طابع بريد محلي وختم مطموس، فضضته فسقطت ورقة عاجية
مطوية متوسطة الحجم، فيها رسم بدائي أقرب لخط طفل يلعب،
ينصف دائرة علوي تتوسطه نقطتان سوداوان، يخرج من تحتها
ذراعان تدليان يميناً ويساراً، تحتضنان مربعاً مغلقاً مقسماً إلى تسعة
مربعات بأبعاد واحدة، تشبه مربعات لعبة «OX» الشهيرة!! قلبت
الورقة فلم أجد غير بقعات صفراء باهتة راودتني نفسي أنها بول
فاشتمتها ولم أجد لها رائحة، أعدت الورقة في الظرف وكورته
وهمت باللقائه حين تأملت عنواني واسمي الثلاثي اللذين لم أجد
لذتهما تفسيراً! حرصاً على البيئة وظاهرة الاحتباس الحراري ونظافة
الشقة التي لا أتهاون فيها قذفت به مع جواب البنك في حوض
زجاجي فلرغ متخضم بالأوراق، كان يوماً بيتاً للسّمك ولم يعد، ثم قمت
إلى غرفتي وألقيت بجسدي فوق السرير بعدما أزحت لباساً أرجوانياً
نسيته ماياً.. أو لم تنسه ☺.. دقائق وتدقّ النوم في أطرافى..

نزل مساء ذلك اليوم بغتة، غروب سقط كستار مسرح مهترئ
كسا السماء بحمرة الدّم، وهواء سخانق لزج راحته حريق هبّج جيوي
الأنفية بمجرّد فتحي للباب، تمشيت تحت الأشجار المغيرة خميس
دقائق قبل أن أتلقى مكالمه من مايا، منذ «ألو» عرفت أنها انتزعت
طابع الـ«LSD» من فوق لسانها فقط منذ دقائق، وهذه ميزة حقيقية
في مايا، تحفظ رأسها الجميل من الانشغال الذي يؤثر سلبياً على
فيزياء جسدها ومنحنياته القياسية، تطفى عقلها وتركه يسقط سقوطاً
حرّاً في رحلات تمتد لثمانى ساعات مع طوابع الهلوسة، تطرق فيها
أبواب جنّة ما لتركض فيها حافية بلا توقف، ثم تغطّ في سبات عميق

تقوم من بعده مُنتشبة يُضحكها كُلب جُربان في خرابة، قبل أن تنزل
لتتابع ضالونها اليومي في «Deals» الزمالك، البار الذي تعرّفت عليها
فيه منذ سنتين، تُقضي وقتها مع شلّة مُزدحمة بِحكايات الفيسبوك
التافهة حتّى يأتي مُتتصف الليل، تقوم كيندريلّا ثملة لا تنسى فردة
جِذاءها لتتجه إلى بيتها، سبع ساعات من النوم ثم تصحو لترتدي
ملابس رسمية تتحول فيها إلى مسئولة تسويق «Sexy» في شركة
فخمة، تبيع الهواء تقريبًا، وتُنتهي عملها لتحديثي بعده مُكالمة تكون
عادة تقريرًا مُفصّلًا عن ليلة أمس وكيف كُنت معها WOW.. بِجد..
أنا رابحة في داهية لحد دلوقتي.. مش عارفة أمسك نفسي وأنا باكلم
العميل.. هاشوفك إمتى؟..

أحيانًا أسألها ما الذي أعجبها فيّ؟ فتجيبني بأنني في نظرها أجمل
من «براد بيت»!!

بالطبع أنا أشبه براد بيت «وهو ميت» + نسبة عطف وشفقة لا
تخفى عليّ في كلماتها..

وتنتهي المُكالمة معها في العادة بموعد في بحر يومين أكون
فيهما قد هيات نفسي:

للقبضة الجهنمية.. اللقاء الدّامي.. صراع الجبابرة «الجزء
الثالث»..

أنهيت مكالمتي معها حين وصلت أمام بناية «عوني»، عمارة
حديثّة يزّين مدخلها رُخام أسود ونباتات زينة، حَيّت البواب ورَكبت
المِصعد ونقرت بابًا سميكا داكنا، لحظات وفتحت «نيجوزي»؛
خادمة إفريقية في مُتتصف الأربعينيات حَكّت لي يومًا أن اسمها في

بلدها «رواندا» يعني «المباركة».. كَمَا حَكَت لي أيضًا عن عائلتها
التي أبيدت في صراعات ١٩٩٤ العراقية قبل أن تأتي مصرًا
حيثني بأسنان ناصعة وسط بَشْرَة ابنوسية لامعة ثم تقدّمتني لغُرفة
مُغلقة بباب جرّار جَاهدت وهي تجذبه فتسلل صَوْت وردة الجزائرية
بأغنية «حكايي مع الزمان»، غَابَت دَقِيقَة قبل أن تَخْرُج وخلفها
«عوني» بقميص ضيق أسود مفتوح الصدر..

أُتِيق ذلك الشيطان!

أغلق الباب وهو يتقدّمني ناحية باب الخروج:

.. النهاردة «Full» يا «Man»..

.. «شاكر» موجود مش كده؟

بنفاد صبر تخلّل عَوني شَعْره الْفِضِّي بَأَنَامَله:

.. أنت نسيت اللي حصل المرّة اللي فاتت؟!

.. هو اللي شَبِطَ لَمَّا عِرفَ إني «Psychiatrist».. مش ذنبي إنه

ما استحملش يشوف تحليل لنفسه على الحقيقة..

جعلت عينا عوني استغرابًا:

.. تحليل!! ده أنت حلّلت له بول يا «Man».. شمبرته.. تقول له في

وشه أنت ٩٠٪ عندك ضعف جنسي! أقسم بالله الراجل كان حالف

ما يبجي هنا ثاني.. أنا كنت هابوس دماغه..

سَحَبْت نفسًا من سيجارتي:

.. هو «Definitely» عنده ضعف جنسي.. طول الـ «Round»

بيتكلم عن تقطيعه للنسوان في السرير، بيحكى وعينه في عين اللي
بيكلمه، بيراقبنا عشان يطمئن إننا مصدقينه، ولما قال إن الفياجرا دي
للعجزة مش للعنايتل اللي زيه لعب في مناخيره.. دي كدبة جسمه
مش مصدقها.. أنا قلت له من الأول إن كلامي ده هايزغله.. هو
اللي صتم!

- تقوم تدبحه! وقدام الناس!!

- كان عمال يرغي وما كنتش عارف أركّز في اللعب يا عوني..
كان لازم حاجة تخلّيه يتهدّ..

طقطع عوني فقرات رقبتة:

- يا «Man»، الناس بتيجي هنا عشان تلعب، تنسبط، مافيش
خصوصيات، مافيش أسرار «This was always the rule»..

قالها وأرسل عينيه للسقف هربًا من ابتسامتي الضاغطة:

- امشي يا عوني؟ امشي؟

داعب السلسلة المتدلّية وسط صدر خالٍ من الشعر ثم زفر
استسلامًا:

- No ya man.. بس...

- من غير بسبسة يا عوني بطل دلّع.. زيتك بكام النهاردة؟

- الصُّباع عامل مية وتمانين جنيه..

- يا واطي! من عشر تيّام كان بمية وستين..

- دي فرشة مغربي بزيتها، أنا لا باحط حنّة ولا باطحن كيميا

وأنت عارف، وبعدين أنت زعلان ليه! هو أنت اللي بتشيل الترايزة
آخر الليل؟ أنت سيد من يشيل الناس يا دكتور..

.. بتلعبوا إيه؟

..Poker

سرت خلفه إلى الغرفة.. أمسك عوني مقبض الباب ثم استدار لي:

.. Please مافيش تحليل نفسي مع حد.. Especially شاكر..

هزرت رأسي وابتسمت.. يفاقا!

الغرفة كانت واسعة، التكييف جعلها في برودة ثلاجة لحم،
توسطها منضدتان؛ الأولى تحمل كثوسًا وأطباقًا مشهيات وعدة
زجاجات لوحت لي من بينهم عشيقتي «Chivas»، بجانبها صينية
تحمل ورق بفرة وتبغا وقرشة حشيش «سبعات» تقطر زيتًا، المنضدة
الثانية مستديرة مَكسوة بالجوخ، فوقها لمبة خافتة متدلّية من السقف
تخترق سحابة دُخان ظلّلت خمسة رجال علّت ملامحهم الجدّة،
التفتوا لي حين دخلت وخذجني «شاكر» بسخط قبل أن يسحق
سيجارته بين أصابعه ويرمق «عوني» بعتاب وهو يكاد يقف ليُغادر،
حيّتهم فهزّوا رؤوسهم بودّ مُصطنع قبل أن أتجه للمنضدة المقدّسة،
لففت قِرطاسًا وصيّت كأسًا، خلط الكحول والحشيش يصنع منك
أعدى الأعداء.. وهو بالضبط ما أحْتَاجه!

سحبت نفسًا قبل أن أتعمد بساديّتي المُحبّية إلى قلبي دسّ كُرمي
في مُواجهة شاكر، انحنى عوني على الأخير «تشيّتا» وبثّ في أذنيه
ما هذا ملامحه قبل أن يرجع مكانه، بامتعاض أشعل شاكر سيجارة
بدل التي سَنَحَقها فحيّته بابتسامة:

- شاكر بيه.. مساء الفل..

لم يجب.. صبّ لنفسه كأسًا تجرّعه في حلق:

- شكلك لسة زعلان!

- عاجبك اللي قلته المرّة اللي فاتت؟!

- ده مجرد رأي يا شاكر بيه.. مش أنت اللي قلت حللّ يا دكتور؟

لو حابب نشهد الناس أنا ما عنديش مشكلة!

امتنع وجه شاكر واحمرت أذناه فأمسك أوراق اللعب بأنامله
البدينة ودفن فيها وجهه، انتظرتهم يكملون الدور الذي توقّف في
متصفه قبل أن أدخل معهم في بداية دور جديد، خلط عوني - بصفته
الراعي الرسمي ومنسق اللعب - الأوراق بأصابعه المُدربة قبل أن
يسحب ورقتين لكل من الجالسين ويضع في منتصف المنضدة
ثلاثًا، رفعت طرف ورقتي واسترقت النظر، تسعين تنقصهما تسعة
ثالثة وأكمل «Full House»، أوراق جيّدة، وضعتهما على وجهيهما
وأشعلت سيجارتي ثم ألقيت رهاني، ووجه «عوني» يصرخ في
التماسًا:

- «كمل الليلة على خير في عرض دين النبي»..

كان ذلك متأخرًا، فالحكّة كانت قد بدأت، حكّة قراءة من حولي،
فكّ شفرتهم، تعريتهم ورؤية أكاذيبهم بالعين المُجرّدة، لغة الجسد
التي لا تكذب، فمداعبة أرنبة أنف تقضح من يدعي ثقة وأوراقه سيئة،
جذب شحمة أذن تعني أوراقًا جيّدة لكنها مترددة، كما أن هزة قدم
رتيبة تعني شخصًا فقد صبره، على وشك الفوز لكنه ينتظر انقضاضة،

تلك الأخيرة استشعرتها من شاكر، اهتزازه كمونور سيارة مفكوك
من قواعده وسيجارته التي يأكلها جوعاً، ورهان يتضاعف بتهور،
ذلك الرجل يتزف قلقاً، يملك ورقاً جيداً، أو هكذا يظن!

مقطع من كتاب «Poker for Dummies» البوكر للمبتدئين
صفحة ٢٦:

سياسة البوكر:

• إما أن تُوحى لخصمك أن أوراقك أعلى قيمة من أوراقه - وهي
ليست كذلك - فينسحب خوفاً مُكثفاً بخسارة قريبة خيراً من
مكسب بعيد فيه مخاطرة.

• أو أن تُوحى لخصمك أن أوراقك أقل قيمة من أوراقه - وهي
ليست كذلك - فيزيد رهانه جشعاً حتى يصير ماله غنيمتك..
ويصاب لاحقاً بنذبة صدرية أو جلطة!

مع ثاني لفّة نفّض أربعة من اللاعبين أوراقهم انسحاباً، لم يتبق
في الجولة سواي وشاكر، نظرت له لأتأكد أنه يقرئني ثم قررت أن
أعطيه هدية.

..Raise..

ضاعفت رهاني ورعشت أصابعي وأنا أسحب نفساً عثيفاً من
سيجارتتي قبل أن أمسح عرقاً غير موجود على جبينتي، طلّت من
بين شفتيّ «شاكر» ابتسامة ظفر، قرأ لا إرادياً علاماتي المزيفة، فكُل
لاعبي البوكر يمتلكون جهاز «كشف كذب» فطري يضيء لهم وجه
منافسهم.

إلا أن الأجهزة الصينية الرخيصة انتشرت تلك الأيام!

ضاعف شاكر رهانه ظناً أنني أرهبه بالتعلية ليتقهقر، تحوّلت هزّة
قدمه إلى ثبات قبل أن يند سيجارته في المنفضة، حسم أمره بثقة،
ورّجع بظهره إلى كرسيه وسط ترّقّب المحيطين، نظر إلى ورقتيه
ببطء ثم لنقوده قبل أن يكشفهما، سحبهما عوني لمُتّصف المنفضة
ليكمل المجموعة (٢-٤-٦-٨-٩) قلب أحمر، «Flush»، أوراق
كافية للفوز، أو هكذا ظنّ! كان ذلك قبل أن أكشف ورقي، ببطء،
سحب عوني الورقتين إلى مُتّصف المنفضة واستبدل ورقتي شاكر
بهما، أتممت بالتسعة الباقية «Full House»، يد أعلى من يد شاكر،
تأوه الأخير كمن اغتُصِب في الظلام على غفلة، رَماني بنظرة كادت
تُرديني حَقْدًا قبل أن أسحب نقوده إلى منطقة نفوذي وأطعنه بإبتسامة
لا لون فيها.. ذلك السكير المُقامر!

الذين قالوا إن المال لا يصنع السعادة! لا بد أنهم لم يكونوا
يقصدون أموال الآخرين..

بعد ثلاث ساعات انقضى اللَّعب، كنت آخر الباقيين، احتسبت
كأسي الثالثة ووقفت في الشرفة أستجدي نسمة صيف وأحصى
غنائم الليلة:

ألف وثمانمائة جنيه سيُغطّونني الأيام القادمة..

سيجارتا حشيش وثلاث كتوس أوصلتني لحاقة أعشق المشي
عليها، مع مساحة كافية من الاتزان تضمن لي عودة لنفسي البيت
الذي أعيش فيه.

رؤية وجه شاكر مهزومًا.. سادية مَحمودة في حُدود النُسب
المعقولة..

لَمَلَمَ عَوْنِي مِنْصَفْتَهُ ثُمَّ أَتَى وَانْدَهَشَتْ عَلَى كَيْفِهِ:

- ثلاث سنين معايا هاتجنز أعرف بتعملها إزاي؟

- هي إيه دي؟

- بتلم الـ «Round» لحسابك أكتك شايف الورق كله!!

- الورق مستخفي.. بس الوشوش بتفضع.

- مش كده.. أنت إيه؟ مخاوي؟

- مخاوي آه.. جن من نوادي لوس أنجلوس..

- لا صحيح.. بتعذ الورق هه؟ بتحفظ الأرقام؟

- عوني.. عوني!! ما تفصلش الكاسين والسيجارة الله يبارك

لك.. دي كلها حاجات بتطلع في الغسيل..

- الغريب إن فيه أيام بتبقى «Down» مُوت!!

- دي الأيام اللي حشيشك فيها بيبقى مضروب..

قهقه عوني:

- أنت مجنون يا «Man».. بس «Genius»..

بادلك الابتسام ولم أعقب، فطأقتي تبددت على طاولته كآرنب

بدون «Energizer»، ودعته وتمشيت حتى عثرت على البيت، خلعت

ملابسي في طريقي لغرفة النوم قبل أن أنهار على سريرى.

كشجرة بلا جذور..

قبل الفجر..

درجة الحرارة، ٩٠ °C ..

تنبهت حواسي دفعة واحدة، كنت راقداً على ظهري غارقاً في عروفي حين استشعرت اللهاث، فتحت جفني أسترق نظرة فوجدته عند باب الغرفة واقفاً كلباً أسود فاحماً يلهث كأنه ركض شهراً، شعره مبعثر ولسانه لون الكبد يقطر زَيْداً، يحدق في غضباً بعينين محجريهما دم، زمجر فارتفعت شفته العليا لتكشف عن صفين من الحراب المديبة ونية في الانقضااض، انتفضت هلعاً، انتصب شعري وتعرقت مسامي، حاولت أن أثب أو أحتمي بشيء، هنا أدركت الخدر الذي أخضع أطرافي مُسبقاً، قرية نمل كاملة استعمرت جسدي وبنيت فوق أطرافه حضارتها، كالمشلول لم أقدر على الإتيان بردة فعل تُذكر، نبضات قلبي تسارعت وتهدج نفسي جزعاً، كان ذلك حين رأيت خيال شخص لم تسمح العتمة بتبين وجهه، يقف خلف الكلب، رغم انعدام التفاصيل أيقنت أنه يرمقني، يتخللني، لحظات ثقيلة غادرت الدماء فيها عروفي قبل أن يقبض على عنق الكلب بصرامة، زمجر الحيوان ثم استدار مطيعاً بين يدي أمره وانسحب إلى العدم.

انفك أسري فاعتدلت كالملدوغ، تلوت يدي بهستيريا فوق

المنضدة أبحث عن التليفون، ضوء الباهت لم يكن كافياً لاتقاء حافة السرير التي عانقت أصبع قدمي الصغرى في ألم وأنا أقفز تجاه زر النور، أضواء الغرفة فتأذت خدقتاي قبل أن أستوعب التفاصيل، فتحت الباب بخنجر، ألقيت برأسي أولاً ثم خرجت، أضأت الأنوار كلها ومرت على الأبواب والشبابيك أمسحها.. لا شيء!!

جلست في الصلاة أستعيد دقيقتين مضتاً، سرت قشعريرة في جسدي حين راودني وجه الكلب وخيال صاحبه الذي رَمَقني..

قبل أن أستيقظ! كابوس أصدق من حقيقة!!

تحتست أصبع قدمي التي تنزف، وحلقي الجاف ككهف فتجرت زجاجة بيرة أسعرت شبقِي للتبول، أفرغت مثائلي ثم ملأت حوض الاستحمام واستلقيت فيه أنزف عرقاً يفوح كحولاً، التقطت رواية سخيصة ملقاة فوق الغسالة منذ شهرين، تصفحت فيها بضع أوراق مقاوماً إيقاعها البطيء وثقل رأسي قبل أن يقهرني النوم..

بعد ساعتين أيقظني صوت بآلع جائل - لن يرد جثة - يبيع شيئاً ما بلغة منقرضة، مبتلاً نهضت وقدماي تنفلتان مني حتى كدت أرسق في البراءة، علقت الرواية التي تعجنت صفحاتها فوق مأسورة البانيو لتجف ثم اتجهت لغرفتي، ارتديت ملابسِي واتخذت طريقي للمستشفى بعدما أهضمت زجاجة بيرة فارغة إلى هوم الزجاجات..

دخلت مبنى ٨٥ غرب، بنظاراتي الشمسية أخفي وراءها إرهاب ليلة أمس وكابوس لم تتأكل تفاصيله، كان سامع أول من قابلني، اقترب مني يشتم زالحني مستغزاً، مُقتحماً يساحتي الحميمية المقدرة «بالنسبة لأمثاله» بثلاثة كيلومترات:

- كانت سهرة جامدة شكلها.. دي «Ray-Ban» أصلي
النضارة دي؟

بحشت بعيني عن كبس للقيء ولم أجد:

- صباح الخير يا سامح..

- فيه اثنين وارد لسه جاينين.. لو فايق نقي لك واحد.

دلفت غرفتي وأغلقت الباب ورائي، انتظرت حتى اختفى صوته
من المبنى ثم ناديت محسن الممرض:

- هو سامح ما بيروحش؟

- ها يروح يعمل إيه؟! مش متجوز.. ده بينام ساعات في الاستراحة
حتى لو مش نايب إداري..

- زي الفل.. هات لي ملفات وارد النهاردة واعمل لي قهوة بس
اظبطها بقي مش زي آخر مرة.. اغليها يا محسن.. اغليها..

دقائق وعاد محسن بقهوة وأوراق التزيلين، ووضعهما أمامي
وانسحب، خلعت النظارة وأمسكت بأول ملف أقلب صفحاته،
ابتدت الأوراق قليلاً لتفرض الحروف اشتباكها من بُعد نظر بدائه
عيناي مبكراً..

الحالة الأولى كانت لرجل في منتصف الخمسينيات، صورته
نوحى بشخصية روتينية لم تكن لتؤدي دجاجة، متهم بقتل زميله في
الشركة، أقواله مربكة وغير متجانسة، يقول إنه فصحية استهزاء مستمر
من شلة في العمل يضلوه الهبطهادهم مند سينين وكان هلى رأسهم

القتيل، لكنه ينفي صلاته بالجريمة رغم القبض عليه على بُعد أمتار من الجثة وفي يده سيكين، مُحاميه طلب الكشف على قوى موكله العقلية؛ حيلة الدفاع الأخيرة التي قد يضمن لموكله عن طريقها عفوًا، بموجبه يقضي مُدة عقوبته في مُستشفى، عوضًا عن الإعدام..

٩٠٪ يتضح أنهم أسوياء ويدعون المرض هربًا من الحُكم..

لكن ١٠٪ من الأبرياء تظل نسبة لا يُستهان بها..

أكملت الاطلاع على الملف الأول ثم سحبت الملف الثاني، فررت صفحاته سريعًا حين توقفت بغتة قبل أن أرجع للخلف صفحتين! ذلك الوجه!! وثبتت بين صورة صاحب الملف واسمه الرباعي حتى حُسم شكّي، قُمتَ ملدوغًا فأسقطت قهوتي على المكتب وينظرونني وخرجت قبل أن أتوقف وأرجع للملف شكًا، دَققت النظر في الصورة تيقنًا ثم اتجهت إلى العنبر، دَلَفْتُ غُرْفَةَ التَّمرِيزِ المُطَلَّةَ على عَنبرِ المُتَّهَمِينَ أَتَصَنِّعُ هِدْوَةً لَمْ أَعِدْ أَمْلِكْهَا، حَيَّتْ مَرْضَى لَمْ يَفْرَغَا مِنْ تَنَاوُلِ قَوْلَهُمَا وَبَصْلَهُمَا وَأَنَا أَجُولُ بَعِينِي فِي الْعَنبرِ الطَّوِيلِ، قَبْلَ أَنْ أَسْأَلَ أَحَدَهُمَا عَنِ الْوَارِدِ الْحَدِيثِ فَأَشَارَ إِلَى شَخْصٍ بَدِينٍ يَتَحَدَّثُ مَعَ زَمِيلٍ لَهُ، ذَلِكَ كَانَ صَاحِبَ الْمَلفِ الْأَوَّلِ، تَخَطَّيْتُهُ وَسَأَلْتُ عَنِ الثَّانِي، بَحَثَ الْمُرْضُ بِعَيْنَيْهِ ثُمَّ أَشَارَ إِلَى شَخْصٍ يَجْلِسُ عَلَى حَاقَةِ السَّرِيرِ الْآخِرِ فِي الْعَنبرِ، يَرْتَدِي بَنْطَلُونَ «تَرِينج» كُحْلِي وَقَائِلَةً يَصِفُ كُفَّ يَبْضَاءَ، سَاكِنٌ مِثْلَ صَخْرَةٍ، عَيْنَاهُ مُبْتَتَانٌ عَلَى مَرْوَحَةِ سَقْفِ تَدُورُ فَوْقَهُ، لَمْ أَكُنْ لِأَخْطِئَهُ رَغْمَ الْمَسَافَةِ.. هُوَ.. شَرِيفُ! شَرِيفُ الْكُرْدِي..

انسحبت لغرفتي، طلبت قهوة بدل التي أريقْتُ وفتحت ملفه

الجِنائي الآتي معه من إدارة البَحْث الجِنائي، دُوسيه سُمكه ثلاثة
مستبشرات مِن الكلمات والصُّور الجِنائية..

«شريف ماهر الكردي، طبيب نفسية عَمِلَ حتَّى عام مَضَى
بمُسْتَشْفَى «بهمن» النَّفسي قَبْلَ أَنْ يُفْصَلَ مِنْهَا لِأَسْبَابٍ لَمْ تُذْكَرْ،
مَتَّهَمٌ بِقَتْلِ زَوْجَتِهِ «بِسْمَةِ مَجْدِي»، حَلَّقَتْ عَارِيَةً مِنَ الدُّورِ الثَّلَاثِينَ
لأَحَدِ أَجْرَاجِ عَشْمَانٍ بِالْمَعَادِي، مُجَامِيهِ دَفَعَ بِمَرَضٍ مُوَكَّلِهِ الْعَقْلِي إِلَى
هَيْئَةِ الْمَحْكَمَةِ لِتَبْرِيرِ عَدَمِ مَسْئُولِيَّتِهِ الْجِنَائِيَّةِ عَنِ الْحَادِثِ، كَمَا قَالَ
إِنْ مُوَكَّلِهِ لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا لَحِظَةِ الْوَفَاةِ وَإِنَّمَا جَاءَ بَعْدَهَا، وَأكَّدَ أَنَّ
الضُّحْيَةَ انْتَحَرَتْ لِعَدَمِ وُجُودِ مَا يُبَرِّرُ أَوْ يُثَبِّتُ تَوَرُّطَ مُوَكَّلِهِ، فَصَدَرَ
الْقَرَارُ بِفَحْصِهِ تَحْتَ أَيْدِي خُبْرَاءِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي قِسْمِ ٨ غَرْبٍ»..

فَوَتِ دِيبَاجَةَ الشَّرْطَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ سَرِيعًا قَبْلَ أَنْ أَقَابِلَ تَقْرِيرَ الطَّبِّ
الشَّرْعِيِّ، فِي صَفْحَتِهِ الْأُولَى صُورَةٌ لِلْمَجْنِيِّ عَلَيْهَا، !!WOW
لَا أَذْكَرُ أَنِّي رَأَيْتُ قِسْمَاتٍ بِذَلِكَ التَّنَاسُقِ تَلْتَقِي فِي وَجْهِ وَاحِدٍ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَحْمِلَ عَيْنَاهَا نَظْرَةَ الثِّقَةِ الَّتِي تَنْفِي مَوْتَ أَمْثَالِهَا، إِلَّا أَنَّ صُورَ
مُعَايِنَةِ مَوْقِعِ الْحَادِثِ كَذَّبَتْ الشَّائِعَةَ، جَسَدُهَا خِرْقَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ حَلَّقَتْ
مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الْأَرْضِ، قَبْلَ أَنْ يَمَرَ فَوْقَهَا بِأَبْوَرِ زَلْطِ صَدِيِّ،
لِتَرَاتِ دَمٍ غَلِيظَةٍ نَضَحَتْ مِنْ جَسَدِهَا الْمَغْرُوسِ فِي الْأَسْفَلِ
وَعِظَامٍ اتَّخَذَتْ أَتْجَاهَاتٍ مُخَالَفَةً أَثَارَتِ مَعْدَتِي رِغْمَ التَّعَوُّدِ فِي
مَشْرِحَةِ الْكَلِيَّةِ، لَمْ أَتِمَّاكَ نَفْسِي فَأَغْلَقْتُ الْمَلْفَ، ابْتَلَعْتُ رِيقِي
عَنُودَ وَنَادَيْتُ الْمُمْرِضَ:

.. مُحَسِّنُ، هَاتِ لِي «شريف الكردي» الَّلِي جِإَ إِمْبَارِحَ..

دَقَاقْتُ وَسَمِعْتُ الطَّرَقَاتِ عَلَى الْبَابِ، سَخَبْتُ لِرِثْمِي نَفْسًا عَمِيقًا

وأسندت كليتي إلى الكرسي حين دخل المُمرض وفي يده شريف،
بهذه أجلسه على الكرسي المُقابل قبل أن أشير له أن يتركنا، ساد
صمت لزج لا تقطعه إلا زمجرة التكيف، شريف شارد في نقطة وهمية
على الحائط وأنا أستجمع فروق عشر سنوات فأتني بُعداً، كم تغير!!
يس وجهه وحفر خديه بخطين غائرين، انخسفت عيناه الخضراء في
محجريهما كجزيرتين في مُحيط، وطال شعره المُطعم بخطوط بيضاء
عَقَصها إلى الوراء بخيط أسود سميك، أظافره طويلة وذراعاها بارزا
العُروق، اليسرى موشومة بخط رأسي يمتد من الكتف ليتهي في
الكف، تقطعها بالعرض خطوط تلتف حول الذراع كدرجات سلم،
نهاية كل منها مشبوكة بما يشبه حرفي «ص» متعاكسين..

- شريف!!

ندائي كان مرساة مركب قُذفت في بحر لا قاع له! لم يتحرك ولم
يُعرني أدنى انتباه!! حتى عيناها الشاخصتان لم تُطرفا طرفة، استندت
على مكثي مُقترناً وكررت النداء:

- شريف.. أنا يحيى.. يحيى راشد..

تمثال من الرُخام تُمطره الطيور بالفضلات! قُمت وجلست
في مُواجهته، وتعمقت قطع خُط نظره المربوط بالحائط تُشتتاً
لشروده:

- شريف.. معقولة مش فأكبرني!!

رعدة خاطفة مرّت بعينه فثَبَّت بها:

- إيزيك يا شريف.. مش مصدق إتنا قاعدين مع بعض.. إيه!! عشر

سنين تقريبا ما تقابلناش..

شبح ابتسامة مُرتعشة ذاعب شفّته ما لبس أن اختفى ليزيغ ببصره
إلى الحائط ثانية:

- بس تصدّق لايق عليك اللوك الجديد ده.. شعرك والتاتو..
جَوّ جديد خالص.. أنت لستَ نفسك تمثّل؟ يااه يا شريف.. فاكّر
المدرسة.. فاكّر رانيا وشيرين.. ولّا البت لينا اللبنانية؟
رَمَقني لكسر من الثانية.. رَعشة مُترددة مرّت بجانب قَمه ثم
هَرَبت مع عينيّه..

- شريف أنت عارف إحنا فين؟
بيّعة لم تكن فيه وعينين مُتَحجرتين أجاب:
- ملح..

- نعم؟!

- عاوز ملح..

- ملح!!!

- كثير.. في الأكل..

- ليه يا شريف الملح؟

....

- ماشي.. هاوصيلك.. شريف أنت عارف أنت هنا ليه؟

هرب بنظره ناحية الحائط فاستلركه:

- شريف بَصّر لي! فيه حاجة مضايّقتك في الحيلة؟ تحب تتعد
في مكان تاني؟

رَمَانِي بِنَظَرَةٍ جَوْفَاءَ فَعَاجِلَتِهِ:

- إِيهِ الَّلِي حَاصِل؟ مَكْتُوب فِي الْوَرَقِ كَلَامٌ غَرِيبٌ أَنَا مَشْ مُصَدِّقُهُ..
الْكَلَامُ دِهْ صَحَّحْ يَا شَرِيف؟

كَالْأَصَمِ لَمْ يُدْ رَدَّةَ فَعَلْ، بَحِثْ فِي جِسْدِهِ عَنْ إِيْمَاءَةٍ إِيْجَابٍ
أَوْ سَلْبِ قَلَمٍ أَجْدٍ، ظَهَرَهُ مَحْنِي وَيَدَاهُ مُسْتَرْخِيَتَانِ فِي وَضْعٍ مُنْفَتِحٍ
صَادِقٍ، وَمَسَابِيْتُهُ بِهَدْوٍ تَرْسُمُ دَوَاتِرَ فِي الْفَرَاغِ:

- شَرِيفُ أَنْتَ مُوَقِّفُكَ صَعْبٌ.. لَوْ كَانَ فِيهِ حَدٌّ هَيَّاسَعْدُكَ فِي
الَّلِي أَنْتَ فِيهِ دِهْ يَبْقَى أَنَا.. مَا فِيشْ مَرَضٌ اسْمُهُ الَّلِي مَا يِيْتَكَلَّمْشْ،
أَنْتَ دَكْتُورٌ وَعَارِفٌ.. اللَّجْنَةُ هِتَابِعُكَ مِنْ أَوَّلِ بُكْرَةٍ ثَلَاثَ أَسَابِيْعٍ..
صَدِّقْنِي لَوْ مَكَانُكَ تَتَكَلَّمُ مَعَايَا أَنَا الْأَوَّلُ..

لَمْ يَبْعُدْ نَظْرَهُ عَنِ الْحَائِظِ فَقَمْتُ إِلَى مَكْتَبِي، طَقَقْتُ أَصَابِعِي
قَرَبَ أُذُنِيهِ وَأَنَا أَلْتَفُّ مِنْ وَرَائِهِ..

- شَرِيفُ.. فَوْقَ مَعَايَا شَوِيَّةِ اللَّهِ يَبَارِكُ لَكَ..

جَفَنَاهُ حَتَّى لَمْ يَرْمِشْ، لَمَّا جَلَسْتُ التَّفْتَ لِيَدِي وَالْقَلَمُ فِيهَا، قَطَعْتُ
وَرَقَةً مِنْ أَجْنَدَةٍ وَنَاوَلْتُهَا لَهُ:

- لَوْ مَشْ عَاوِزْ تَتَكَلَّمُ اكْتَبْ.. ارْسَمْ!

لَوَحْتُ بِالْقَلَمِ لِحَفَظَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِطَهُ بِتَرَدُّدٍ، نَظَرٌ لِلْوَرَقَةِ كَشَاحِرٍ
يَتَنَظَّرُ وَحْيًا تَأَخَّرَ، دَقِيقَةً بَدَتْ سَاعَةً لَمْ أَرْدِ مَقَاطَعَتَهُ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَتَحَرَّكَ
وَحْدَهُ وَيَبْدُ مَرْنَعِشَةً كَتَبَ أَحَدَ عَشَرَ رَقْمًا ثُمَّ تَوَقَّفَ.

بِرَفْقٍ سَحَبْتُ الْوَرَقَةَ مِنْ أَمَامِهِ وَدَقَقْتُ فِي الْأَرْقَامِ:

- ١٩٥٠٠٢٠٠١١٠٤٠٤.. دِهْ تَلِفُونِ مِينْ؟ بَسْ فِيهِ رَقْمُ زِيَادَةٍ!

أمسكت القلم وطمّست رقم ٤ فبرز رأسه نقيًا فكتبت رقم أربعة

ثانية..

- إيه الأربعة اللي في الأول دي؟ اتصالات الرقم ده! ولا مُحافضة؟

لم أتلّق رَدًّا فرفعت عيني إليه، كان واضعًا أصبعه الوسطى في حلقه، قبل أن أعني ما يفعل قام بَعَثَ وأسقط كرسيه، أمسك بمعدته وقفز إلى الركن مُنَحْنِيًا، أفقت من المُفاجأة وَلَحَقْتُ به، أصدر حَشْرَجَة جَافَة قبل أن تندفع السوائل من فمه بِسُعال عنيف، أفرغ جوفه وكاد يُخرج معدته، تفاديت تقيؤه بالكاد وسندته حتى انتهى وخمد، استلقى على الأرض شاخصًا لا يكاد يلتقط أنفاسه، صرخت فسمعني مُمرّض عابر، عاونني على حمله إلى الحمام وتركنا المياه تنسله قبل أن تُودعه سريره في العنبر، تابعتهُ يتكوم على نفسه في وضع جنين حتى غفا فَرَجَعْتُ إلى غرفتي التي عيّنت بِرائحة القِيء، فتحت نافذة للتهوية ولففت سيجارة نسيت أن أشعلها ثم فتحت الملف الطبي المطلوب مِنّي ملء خاناته بتفاصيل جلستني مع شريف، انطباعي وتكهّناتي! تجلّط حبر القلم وحُشرت الكلمات، نُقِرَت المكتب بأصابعي مُستحضرًا تركيزًا هارِبًا حتى استقررت:

- Time Disorientation, Flat Affect, weak insight and concentration,
Possibility of audiovisual hallucination.. Check for (Chest,
Gastrointestinal and Nerve Diseases + X-Ray) ^(١)

(١) ارتباك في الإحساس بالزمن.. مشاعر الوجه مسطحة.. إدراك وتركيز ضعيفان..
احتمالية وجود هلوسة سمعية وبصرية.. مطلوب كشف صدر وباطني وأعصاب
+ أشعة X..

أغلقت الملف الطبي وسحبت الملف الجنائي تحت ذراعي،
تمشيت في الطرقات حتى توقفت أمام غرفة يجلس فيها موظف
إداري بجانبه ماكينة مُستندات، التقطت رقم خطه الداخلي المدون
على تليفون بجانبه وأنا أحييه، أعلم أن نسخ الملف الجنائي ممنوع،
لكن استدعاء موظف إلى مبنى الإدارة ليس ممنوعاً، خاصة إذا آمن أن
مكتب المدير هو الذي يطلبه! رحلة لأقصى شرق المستشفى على
مسافة نصف ساعة ذهاباً وإياباً ترك الشاب مكتبه ورَّحل فأغلقت
الباب على نفسي وصنعت من الملف نسخة قبل أن أعيده لشئون
المتهمين، دسست الأوراق في حقيبتني الجلدية ورحلت، فتلك الليلة
كان عليّ البحث بين ثلاثة مستبشرات من الورق..
عن بداية طريق..

وَجِبَة دَجَاج مَشْوِي سَتُغَضِب قَوْلُونِي + سَلْطَة خَضِرَاءَ غَيْر مَغْسُولَة
جَيِّدًا غَنِيَّة بِمَيَكْرُوبِ السَّالْمُونِيَلَا..

عَلْبَة بِيْرَة مَایَسْتَر مَاکَس مَثْلَجَة « ٥٠٠ مِلْلی » مَتَصَرَعْنِي تَجَشُّؤًا
وَبَعْضُ التَّرْمَسِ الْمَمْلُحِ..

وِثْلَاث سَجَائِر تَبِغ « Golden Virginia فِلْتَر ٨ مِلْلی » رَفَعْتَ
« الدُّوَيَامِين » فِي رَاسِي إِلَى مُسْتَوِيَاتِهِ الْمُعْتَادَة..

جَلَسْتُ أَمَامَ الْمَلْفِ الْمُتَخَمِّ فِي صَالَةِ شَقَّتِي وَبِجَانِبِي وَرَقَة أَدَوْن
فِيهَا الْمَعْلُومَاتُ وَأَضِيفَ إِلَيْهَا تَكْهَنَاتِي بَيْنَ الْأَقْوَاسِ:

حِينَ قُتِحَتِ الشَّقَّةُ عَشْرَ عُلَى شَرِيفٍ فِي رَكْنِ الْغُرْفَةِ الَّتِي أَلْقَيْتُ
مِنْهَا الْمَجْنِي عَلَيْهَا، شَرَايِينُ يُسْرَاهُ مُقْطَعَةً بِأَرْبَعَةِ جُرُوحٍ تَرْدَدِيَّةٍ^(١)
(Culpability delirium)^(٢)، نُقِلَ إِلَى الْمَسْتَشْفَى فِي حَالَةٍ سَيِّئَةٍ
وَلَمَّا أَفَاقَ ظَلَّ صَامِتًا لِيَوْمَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَعَّوْا مِنْهُ الْكَلِمَاتُ لِلتَّحْقِيقِ،
جَاءَتْ أَقْوَالُهُ مُتَضَارِبَةٌ لَا تَحْمِلُ مَنْطَقًا ثَابِتًا، قَالَ إِنَّهُ لَمْ يَمَسَّ زَوْجَتَهُ،
ثُمَّ قَالَ إِنَّهُ دَفَعَهَا، ثُمَّ أَنْكَرَ مَعْرِفَتَهُ بِالْحَادِثِ مِنْ أَصْلِهِ، قَبْلَ أَنْ يَجْزَمَ بِأَنْ

(١) جُرُوحٌ قَطْعِيَّةٌ سَطْحِيَّةٌ مُتَوَازِيَةٌ تُشِيرُ إِلَى التَّرْدَدِ فِي تَنْفِيذِ الْإِنتِحَارِ.

(٢) هَذْيَانُ اللَّذْبِ..

شخصًا آخر قد فعلها وأنه جاء متأخرًا ولم يتحمل، فقرر الانتحار
أعراض الـ (Schizophrenia) ^(١) تُعلن عن نفسها..

تبين من عينات البول في الزجاجات البلاستيكية المنتشرة بجانب
حائط الغرفة التي أقيمت منها الضحية أنها تخص المتهم، يبدو أنه
أقام لفترة فيها ولم يغادرها..

بالكشف على المجني عليها ثبت وجود كدمات وسحاجات
بنفسجية في مناطق متفرقة من الظهر والفخذ بأطوال وأعماق مختلفة
تشير تطوراتها الالتامية إلى كونها جائزة الحدوث ما بين أسبوع إلى
عشرة أيام قبل الوفاة..

كما تبين حدوث قطع دائري مشرذم قطره سم، أعلى الفخذ
اليسرى، يشير تطوره الالتامي إلى كونه جائز الحدوث ما بين أسبوع
إلى عشرة أيام، نتيجة سلخ الجلد بأداة حادة..

وبالكشف على المجني عليها تبين حدوث اعتداء جنسي يرجع
لساعات قبل الوفاة أحدث تهنكًا خادًا بمنطقة المهبل والبرجان،
ونزغًا لدى للإجهاض، ويوضح الرحم تبين أن عمر الجنين من
سبعة إلى ثمانية أسابيع تقريبًا..

لم يتم العثور على بقايا جلدية تحت أظافر المجني عليها ناتجة
عن مقاومة أو تهديد حدوث التحام جسدي مع الجاني.. كما تم العثور
على بقايا سائل منوي أتضح بالتحليل أنها تخص الزوج..

قاطعت قرائني رثة النحسول برقم غير مسجل:

- ألو.. يحيى؟

تلك الـ«الو»!!

- مين معايا؟

- أنا لُبنى..

تعرقتُ فروة رأسي وخفق قلبي فمشيت خطوتين ورجعتهما
حين قطعْتُ صمتي:

- مش فاكرنِي!!

أفقت من ذهولي فسلكت زوري بكحة:

- لا.. طبعًا فاكرك..

- باكلمك في وقت مش مناسب؟

- خالص.. أنا...

- أنا جيت رقمك من أخذك.. هزاتني ساعة عشان ما كلمتهاش
من زمان..

- إزيك يا لُبنى؟

- أكيد أنت أكثر واحد ممكن يكون مُتخيل حالتي النفسية دلوقت
هاملة إزاي.. يحيى.. أنا محتاجة أقابلك في أقرب وقت.. لو
ممكن بكرة؟

- بكرة!

- مش فاضي؟

- لا لا ماشي.. فين؟

- «سيكوي» اللي في شارع أبو الفدا.. الساعة ثمانية كويس؟

- الساعة ثمانية.

أغلقت التليفون وارتكبت فوق الكنبه دُمية خَشِيبَة مُنَحَلَة الخُيُوط،
تيسر دقاتي أنا مل رقبها على الشاشة، قرأته ثلاثين مرة حتى حفظته،
بعد سيجارة وزجاجة ودورتين حول نفسي اتجهت إلى غرفة النوم
وفتحت الدولاب، من بين الملابس سَحَبْتُ الصُّنْدُوقَ الكرتوني
وجلسر على السرير، أزحت حدة البومات مُعْتَقَلَة منذ زمن بشريط
لاصق والتقطت واحدًا أخيرًا يَرَقْدُ في القاع، اليوم يَرْجِعُ لفترة
التسعينات، الصُّور فيه تَكُنُسَتْ بلا ترتيب زمني، أغلبها لمقطات
لشلة الكلية في نزهات القاهرة وعلى شواطئ الإسكندرية، قلبت
الصفحات سريعًا قبل أن أتوقف أمام صورة لي في قَرَح وبيجاني
شريف يضع يده على كتفي، مُتَوَرِّد الوجه يضحك من قلبه، ويتأبط في
ذراعيه أخته، شفاه رقيقة رُسمت بحرقه، عينان فيهما نساؤل لا إجابة
له، وشعر كستائي يَمُوج قُرب كَتْفَيْهَا في طاعة عمياء، أزلت الغلاف
الشَّفَافَ وَجَدْتُ الصُّورَة بِرَفْق مُتَجَنِّبًا تَمْزِيْقَهَا، وجدت على الظهر
كلمات كتبها يومًا..

«أنا وشريف ولبنى في فرح حاتم رفعت، ٢١ إبريل ١٩٩٨».

أخذت الصورة وخرجت، في طريقي للمصالة مررت بالحمام،
تُكْرِتُ لِنَفْسِي في مرآته ثم للصورة، أربعة عشر عامًا تفصلني عن
ذلك الشخص، لو قابلتني صديقة لن أعرفتني! قُررت تخفيف لحيتي
قليلاً «بالطبع بما لا يسمع لمايا بالاعتراض» فالخريشة تعني الكثير

لبشرتها الملساء وضعت الصورة على الرف الزجاجي ثم فتحت
دولاب المرأة وسحبت مقصاً، ذبحت خُصلة تابعتها تسقط على
جدار الحوض قبل أن أبداً في التشذيب يميناً ويساراً حتى بدت
لحيتي كغابة دهستها الأفيال! فلتذهب مآباً للجحيم.. مؤقتاً! وضعت
الصابون على ذقني واستللت موشاً، نصف ساعة وأصبحت حليقاً،
ذقن فاتحة لم تر شمساً منذ أمد، وكمية لا بأس بها من الجروح
والخريشات!

متظن «صفاء» أنني قد انصبت لرغبتها، لا بأس، إرضاء أنوثة
«مديرة» متأخرة لن يضر شيئاً!!

تركت أفكاري في الحوض وخرجت لأجلس أمام الحلف،
حدقت في صورة شريف على الفيش الجنتلي، مُمسكاً أمام صدره
بلوحة سوداء فيها أرقام!! تذكرت الأرقام التي كتبها صباحاً،
بحثت في جُيوبي حتى عثرت عليها، سحبت تليفوني وطلبت
٤٠١١٠٠٢٠٠١٩..

الرقم الذي طلبته غير صحيح.. نرجو التأكد من الرقم وإعادة
المحاولة!

شريف لم يكتب الرقم الصحيح.. اختلط عليه الأمر.. لو ربما لم
يكن يكتب رقم تليفون!!

كان ذلك تساؤلاً من بين ألف سياتزعوني حتى الصباح..

في اليوم التالي وبمُجرد دخولي من بوابة المستشفى أسرعت
الخطي مُحاولاً تفادي «نعيماً يا دكتور» التي انهالت عليّ من كل
صوب كأني امرأة زانية يجرسونها قبل أن تُرجم، الرُّبط بين حلاقة
الشعر وكلمة «نعيماً» سيظل لغزاً لا حل له!!

لما وصلت ٨ غرب ناديت محسن وأنا أنقب في حقيتي عن
تبغي، وجدت حفنة بالكاد تكفي سيجارتين، دسست واحدة بين
شفتيّ حين دخل:

- صباح الفل يا دكتور.. «نعيماً».. أجيب قطار؟

ناولته نقوداً:

- اطلع على «On the Run» اللي في بتزينة «موبيل»، هات لي
كيس دُخان زي ده، وريع بُن غامق، اعمل لي كويابة على الريحه،
قول لي، شريف الكردي أخباره إيه إمبراح؟

- التحاليل أه جنب ملفه.. كل ساعتين يحط صابحه في بقه
ويستغـغ..

قلبت أوراق التحاليل سريعاً، لم تُعثر عيناى على خلل إلا في
صورة الدم، نقص واضح في الصوديوم سيتولى أمره فوار مُكْمَل،
والتهاب في العينين نتيجة زيادة في الضغط، وأنيما..

- اتكلم معاك يا محسن؟

- هو قليل الكلام.. حاولت الاغيه.. اجيب له حاجة من بره..
ما فيش.. طول الوقت متنح في الحيلة ويستفرغ..

- خلاص يا محسن قرفتني الله يحرقك.. رأيك إيه؟

- لا.. صعبة شوية.. دكتور نفسية يجيلنا ٨ غرب! لو مش عيان
يقي سابكها أوي..

- بياكل؟

- بيتنقر كام حاجة ويسبب باقي الوجبة زي ما هي وبعدين...

- يستفرغ! حاول تضغط عليه ياكل عشان عنده نقص في الأملاح..
وهاتهولي قبل ما تخرج.

اتجه محسن مع عسكري للباب الحديدي للعنبر فدلقت غرفة
المتابعة أراقب سلوكه حين صاح العسكري مُناديًا من خلف الحديد:

- شريف.. شريف الكردي!!

لم يتلق إجابة.. شريف كان جالسًا على سريره مآكنًا يحدق
في ركن خالي، نودي اسمه ثالثة ولم يتحرك فدخل العنبر يتخللان
المتهمين حتى وصلا أمامه:

- أنت أطرش! أنا مش ندهت اسمك!!

التفت شريف إلى العسكري بنظرة جعلته يعيد التفكير فيما قال
حين عاجله محسن مطلقًا:

- دكتور يحيى عاوزك..

قام شريف ومشي بينهما وسط نظرات المرضى المُترَبِّصَة حتى
خرجوا قَرَجَعَت مَكْتَبِي، ثَوَانٍ وَشَمَعَت الطَّرَاقَات قبل أن يُجْلِسَ
محسن أمامي، لم يبدِ أفضل من أمس، عَيْنَانِ هَارِيَتَانِ تَجَاهَ الحَائِطِ
ووجه أكثر شحوبًا:

- إزيك النهاردة؟ فطرت؟

بَصِمْتَ رَمَقِي ذَقْنِي فَاسْتَطَرَدْتَ مُحَاوَلًا الحِفَاظَ عَلَى التَّوَاصُلِ
الهِزِيلِ:

- بِتَشَوِّكْنِي.. الجوُّ بَقِيَ حَرًّا وَالتَّكْيِيفُ فِي الْبَيْتِ عَطْلَانٌ بَقِيَ لَهُ
سَنَةٌ.. وَالتَّوَكُّيلُ قَفْلٌ! عَارِفٌ.. إِمْبَارَحُ بَادُورٌ فِي الدُّوَلَابِ لَقِيتُ
صُورَةً قَدِيمَةً..

أَخْرَجْتَهَا مِنْ جَيْبِي وَوَضَعْتُهَا أَمَامَ عَيْنَيْهِ.. حَدَقَ فِيهَا طَوِيلًا:

- شَفْتُ كُنْتَ تَخِينُ أَنَا إِزَايَ.. أَنْتَ بَرَضُهُ اتَّغَيَّرَتْ كَثِيرًا يَا شَرِيفُ..
بِالْمُنَاسِبَةِ لَبَنِي كَلَمْتَنِي إِمْبَارَحُ.. هَا قَابِلُهَا النَّهَارَةَ عَشَانِ أَطْمَنُهَا
عَلَيْكَ.. مَشْ عَاوَزَ مِنْهَا حَاجَةٌ؟

لَمْ يَطْرَفْ لَهُ جَفَنٌ، انتظرت منه انطباعًا بالانفتاح، رُعْشَةً استنكارٍ
فِي الْوَجْهِ، لَا شَيْءَ، طُوبَى حَمْرَاءَ مَثْبُتَةٍ فِي جِدَارٍ:

- أَنْتَ شَوِيَّةٌ وَهَتَمَعْدُ مَعَ اللَّجْنَةِ.. إِذِّينِي فُرْصَةً أَسْمَعُ مِنْكَ حَاجَةً
قَبْلَ مَا تَقَابِلُهُمْ..

بَصْعُوبَةٍ نَزَعَ شَرِيفُ عَيْنَيْهِ مِنَ الرُّكْنِ وَنَظَرَ لِي.. شَعَرْتُ أَنَّهُ يَتَخَلَّلُ
مَسَامَ وَجْهِي:

- أنا ما قتلش..

- جميل.. مين اللي قتل؟

- هو..

- هو مين؟

استغرق ثواني ليجيبني:

- اللي قاعد جنبك دلوقت..

التفت إلى يساري حيث أشار:

- هو فيه حد تاني معانا في الأوضة؟!

رمقني بغضب لإنكاري ما يدّعي وجوده، فتصديق المريض

ضلالات مرضه جزء لا يتجزأ من الأعراض..

- أنا بس مش شايف حد!

حدق شريف في وجهي بعيني يَمُثَال فرعوني زجاجة..

- أنت سامع صوته دلوقت؟ سألته..

....

- شريف.. أنت دكتور.. خلّي عندك وعي بالحالة بتاعتك..

....

- تفكر لجنة دكاترة عُقر متصدّق بسهولة دكتور حافظ الأعراض؟

خليك منطقي..

لم ينبس بكلمة! أحتاج لبداية جديدة:

- طب ممكن توصفولي؟

....-

بدأ يرسم بإبهامه الدوائر ثم انسحبت عيناه إلى الركن فحاصرته:

- طب وهو قتل بسمه إزاي؟

صمت للحظات قبل أن يزفر:

- أنا عاوز أمشي..

- جاوب مؤالي..

احتد شريف:

- عاوز أمشي..

- هتمشي بس إهدا.. إهدا يا شريف..

حاولت تغيير الموضوع تخفيفاً:

- صحيح.. الرقم اللي كتبته إمبراح ده تليفون؟

لم يُبد شريف تعبيراً فسأله:

- حساب في بنك؟ فيزا؟ أنت محتاج فلوس؟

....-

فتحت الدرج وأخرجت أوراق اختبار رودشاخ، عشر ورقات
بيضاء تتوسطهم يقع حبر مُتمائلة النصفين كصورة في مرآة، تصنع
أشكالاً عشوائية يُسقط عليها المريض حين يصفها انعكاساً لما
في نفسه:

- شريف الشكل ده بيحكرك بيايه؟

بصعوبة انتزع عينيه عن الحائط، نظر للورقة ثواني بدت دهرًا لما
لم يرمش بجفنيه فعرضت عليه الورقة الثانية.. لم يتكلم.. الثالثة..
الخامسة.. السابعة.. في التاسعة حرك شفنيه ببطء:

- بحر..

- بحر!!!

البحر كان أبعد وصف لما في الورقة.. البقعة كانت أقرب لوجه
حصان!!

لم يُجيني فمررت الصورة العاشرة، لم تكن بقعة جبر، كانت صورة
زوجته، جسدها المزروع تحت البرج مسقيًا بدمائها، كنت أحتاج
لاستغزازه ومراقبة رد فعله حين يتعرض لصدمة، نظر للصورة بروح
صنم جاهلي، عيناه مستقرتان لا تشويهما اختلاجة لو كان رأى مجلة
أطفال فيها صورة جثة ميكي ماوس مقتولًا لنضح وجهه بتمبير!!

- شريف.. شريف!!

لم يُخرجه يدائي من موته.. طقطقت أصابعي وريت على كتفه
ثم جلست القرفصاء أمام كرسيه:

- شريف.. نهمتك فيها إعدام.. مُدرك ده؟

رمقني بنظرة جوفاء لم أقرأ منها أي علامة..

- شريف.. بيني وبينك كده.. حَصَل خيانة؟ بسمة كانت على
علاقة بحد؟

ابسم..

- أنا مش فاهم أنت بتضحك على إيه؟

.....

- الشخص اللي قتلها تقدر ترسمه؟

لم أمهله وقتاً للتفكير، قرئت الورقة منه وحسب القلم بين أصابعه:

- لرسم يا شريف.. أي حاجة..

لم يرسم.. كتب ١٩٠٠٢٠٠١٠٠٤٠١١..

لم أتمالك نفسي غيظاً:

- شريف مش كلام ده! أنت كده بتعجزني!!

كان ذلك حين افتتح الباب بفتحة سامح كأن وأتاه، بدون أن يتكلم
أشار لي أن أتبعه فخرجت وراءه:

- نعيمًا.. فين ملف الحالة اللي معاك؟

- فيه مشكلة؟

ناولني سامح ملفاً كان في يده:

- استلم أنت الملف ده وسيب لي الـ Case دي أقرأ بسرعة عشان

أخبط لو فيه حاجة ناقصة قبل ما تيجي اللجنة..

- ناقصة إيه.. أنت بتهرج!! مش هوضع.. شريف هيفضل

معاً..

- ومالك قافش كده ليه؟ اللجنة دلوقت بتطلب طريقة معينة في العرض أنت ما تعرفهاش..

قاومت رغبة ملحة في لكمة..

- أنا درست الCase وعاوز أركز معاه وهاعرف أعرض.. وبها يرتاح لي ويتكلم.. مش عاوز أشتت..

رمقني سامح لثواني قبل أن تعطي وجهه ابتسامة شك فعاجلك:

- اللجنة متفهد مع ثلاثة تانيين النهاردة.. اسمعني الCase دي؟

- أنت لسه راجع ودي Case ثقيلة عليك!

اللجنة وصلت..

كان أعضاء اللجنة قد ظهروا وراهم في آخر الطرقة، ثلاثة أطباء قادرين على غربة هولاء كوا لو جلس بين أيديهم، حيونا قبل أن يسأل أقدمهم عن الطيب المتابع، اصطحبهم إلى الداخل وأغلقت الباب في وجه سامح..

جلس أعضاء اللجنة كالقضاة خلف مكين عريضين، وشريف على كرسي في مواجهتهم، أولهم تشغل بقراءة الملف الطبي، والثاني طالع الملف الجنائي، والثالث كان د. كيلاني؛ كبير اللجنة وأقدم الأطباء، أشار لي قائمترية:

- حمد الله على السلامة يا يحيى..

- الله يسلمك يا دكتور..

- هنبقى نَقعد مع بعض عشان تطمّني عليك.. إيه أخبار الـ «Case»؟
شفت إيه؟

- Audiovisual hallucination.. و OCD^(١). بتتكلم في «Schiz»
واضح..

- ما تستعجلش..

تعمدوا ترك شريف خمس دقائق من الانتظار المدروس تكسيرا
للأعصاب، سحبت كرسيًا وجلست على مسافة تسمع لي برؤية
ملامحه إذا تكلم:

- مرتاح في القعدة؟

لم يُعره شريف أدنى اهتمام فأردف د. كيلاني:
- بُص يا ابني، من أولها كده إحنا مش وكلاء نيابة وده مش تحقيق،
وانت بتسمع كويس فرد عشان تقلد نساعدك..

نُجحت الكلمات في تحويل رأس شريف ناحية الطيب..

- اسمك إيه؟

بشخص لم يُجبه، هز الرجل رأسه وتجاوز السؤال..

- سنك؟

....

ابتسم د. كيلاني:

- ماشي.. بتشتغل إيه يا شريف؟

(١) بعاني من هلاوس سمعية - بصرية.. ووسواس قهري.

- تاجر يغال..

عاجله الطبيب الثاني:

- يا بني عيب كده.. احترم نفسك وُرد صبح.. إحنا مش بنسألك
عشان مش عارفين.. اترقدت ليه من المستشفى يا دكتور؟

تابعت ملامحه.. لم يُبد استياءً من كلمة الرقد..

- يقولوا إنك قتلت مراتك.. الكلام ده صح؟

مال شريف برأسه لليمين ولم يجب!

- أمال مين اللي قتل؟

التفت شريف ونظر لي قبل أن يستقر بعينه في الركن.. لم يُمهله
الطبيب الثالث:

- أنت عاوز ترمي على أي نوع من أنواع الـ «Schiz» ؟ Paranoid
مثلاً؟ عرفنا عشان نساعدك!

لم يتغير وجه شريف فأردف الطبيب:

- طيب.. إحنا كام واحد في الأوضة يا شريف؟

طغلق الطبيب أصابعه جذباً للانتباه:

- شريف! خليك معايا..

تنقلت عينا شريف بين أعضاء اللجنة قبل أن يجيب:

- ستّة..

- ممكن تعلمهم لي؟

رجع بنظره للحائط فعاجله الطبيب الثاني:

- يا ابني الدكتور كيلاني بيكلمك.. عد لنا الموجودين..

مر شريف بعينه على الثلاثة ثم نظر لي قبل أن يمر بالركن الخالي ويحسم أمره:

- ستة..

سأله الكيلاني:

- إحنا ثلاثة ودكتور يحيى وأنت تبقى خمسة.. جيت منين

السادس بقي!!

نقل شريف نظره بين الركن ود. كيلاني..

- واسمه إيه بقي الأخ اللي إحنا مش شايفينه ده؟

عاد شريف للركن فرجع الطبيب بظهره إلى الكرسي:

- ده شغل تمثيل.. وفاشل كمان.. إيه يا دكتور!! عيب.. طب

اعرض حتى الحالة كويس!

رعدة غضب لمحتها في رفعة أنف أخذت لحظة قبل أن يحيى

شريف رأسه في الأرض ويقوم بهدوء لیسحب القلم من يد الطبيب

ويرسم على الحائط متالية ١٩٠٠٢٠٠١١٠٠١١٠١ بخط ردي..

- أنت يا ابني اتعد.. اتعد!! يا يحيى قعله.. إنه مُمرض..

لم يُعره شريف انتباهًا، أخذ يكتب أرقامه ذاتها بشكل ميكانيكي،

يكررها كمن ينوي تغيير لون الحائط! قُمت إليه لآتيه برفق فوجدته

مُتَيْسًا كَسِيخٍ خَدِيدِي فِي خَرَسَانَةٍ، جَلَبَت ذِرَاعَهُ فَوَكَّزَنِي بِكَوْعِهِ فِي
صَدْرِي، شَعَرْتُ بِأَلَمٍ رَهِيْبٍ فَتَحَامَلْتُ وَنَادَيْتُ مُحْسِنًا، ثَوَانٍ وَجَاءَ
شَاهِرًا حُقْنَةً «هَالِدُول» مُهَذًى نَسْتَعْمِلُهُ فِي حَالَاتِ الْهَيَاجِ، تَرَكَهَا فِي
كَفِّي وَانْقَضَ عَلَى شَرِيفِ اعْتَصَارًا وَتَثِيئًا فَرَشَقَتِ الْحُقْنَةُ فِي ذِرَاعِهِ،
أَفْرَغْتُ مَحْتَوَاهَا فَبَدَأَ يَرْتَخِي نَسِيئًا بَعْدَ ثَوَانٍ، ثُمَّ انْطَفَأَ كَمَا كَيْنَةُ قَقْدَتِ
مَصْدَرِ طَاقَتِهَا قَبْلَ أَنْ يَسْحَبَهُ مُحْسِنٌ لِلخَارِجِ..

رَمَقَنِي د. كِيلَاتِي وَهَزَّ رَأْسَهُ مَبْتَسِمًا:

- دِي هَاتِبَقِي حَالَةَ الْمَوْسَمِ..

قَالَهَا ثُمَّ اتَّهَمَكَ فِي كِتَابَةِ مُلَاحَظَاتِهِ فَسَحَبْتَ كُرْسِيًّا وَجَلَسْتَ
بِجَانِبِهِ:

- إِيهِ رَأَيْ حَضْرَتِكَ؟

- هَاتِبَعْنَا.. وَاحِدٌ زِي دِه سَهْلٌ جَدًّا يَخْلُقُ أَعْرَاضَ.. بَسْ مِينِ
مَا يَقْعَشُ.. أَنَا مَشْ يَقُولُ إِنَّ (Psychiatrist) مَسْجِلٌ يَعْزُفُ..
بَسْ يَلْمَا شُفْنَا الْأَعْيَبَ..

- (Schiz)؟

- الْفَصَامُ أَقْرَبُ تَشْخِيصٍ طَبْعًا.. عَامَّةً أَكْثَرُ عَلَى التَّمَرِضِ بِتَابِعِهِ..
وَحَاوَلْتُ شَوْفَ سَبَبِ رَقْدِهِ مِنَ الْمَسْتَشْفَى.. وَأَتَكَ عَلَيْهِ شَرِيَّةٌ..
لَسْتَغْزَهُ.. عَاوَزَ أَشْوَفَ تَرْفُزَتِهِ هَاتِطَلْعَ إِيهِ لَغَايَةً مَا أَقْعَدَ مَعَاهُ تَاتِي..
الْمُهْمُ.. أَخْبَارُكَ إِيهِ؟

- تَمَامٌ..

- هاستاك في مكبي نشرب شاي وتكلم براحتنا.. هات
اللي بعده..

هممت ببدء النزيل التالي حين استوقفني د. كيلاني:
- شريف ده دفعة ٩٩؟ مش دي دفعتك يا يحيى؟ أنت تعرفه؟
- دفعتي كانت أكثر من ألف ونص يا دكتور..
- ما علينا.. هات لي اللي بعده..

خربير المياه الساخنة فوق أذنيّ عزلني عن العالم، تخلّلت بأصابعي
فروة رأسي أحرثها خدرًا واسترخاءً، أنهيت حمامي قسرًا ووقفت
أمام المرأة أمسح بخارها، أسفل عينيّ بدا متفحمًا وشفّتيّ متشققتان
كأرض بور، رششت مُزيل عرق تحت إبطي وנתفت من مقدّمة رأسي
شعرة بيضاء تعمّدت بوقاحة جذب الانتباه عن باقي زميلاتها، في
غُرّتي أزلت السلوفان عن قميص جديد مقاس (L) بدلًا من (XL)
الذي ودّعته تدريجيًّا على مدار خمس سنوات، ارتديت بنطلوني
وتجرّعت نصف زجاجة بيّرة فقط حفاظًا على ثباتي الانفعالي حين
وقعت عيناّي على كمبيوتريّ العتيق فتذكّرت أرقام شريف، قد أجد
حلًّا على الشبكة، انتظرت حتّى أتمّ الـ «Windows» ديجالته المُعمّلة
قبل أن أضرب الأرقام على صفحة «Google»، ثوانٍ وأمتني النتائج
بأرقام سُحنات تصدير وشحن وموقع وحيد في إنجلترا يبيع الحشيش
والماريجوانا بشكل مؤمن عن طريق كارت الفيزا!

سجّلت الموقع احتياطيًّا عملاً بنظرية تنوع مصادر السلاح ثم
فصّلت سلك الكمبيوتر كما تُفصل الكهرباء عن المكواة وانطلقت
إلى الزمالك، في نهاية شارع «أبو الفدا» دلفت المطعم، الجو كان
شرقياً دافئاً، اخترت منضدة مُطرّفة قُرب النّيل وجلست، طلبت

«Espresso» دوبل وبدأت لا إرادياً في ممارسة هوايتي، كم أعشق
لُغة الجسد حين يتعلّق الأمر برّجل وامرأة يجلسان في مطعم.

بطولة عالم في المراوغة «وزن ثقيل»..

تلك الجالسة التي تضع يديها أسفل ذقنها وتميل برأسها، تنصت
لهراء الجالس أمامها بشغف وانبهار، إلا أنّ السفية يكذب فيما
يحكيه، كفه اليسرى ترتفع لا إرادياً كل عشر ثواني ليُنكر ويستغيث
مما يخلقه فصّ مخّه الأيمن المستول عن طمس الحقائق واستبدالها
ببطولاته الزائفة، أمّا تلك التي تضم ذراعيها أمام صدرها وتضع حقيبة
يدها بينها وبينه تصنع حائلاً يمنعه من اقتحامها رافضة لما يقول، كما
أن ساقها تميل نحو مخرج المطعم، تنوي الهرب وستتهز فرصة،
رغم أنه صادق، فراحة يديه مبسوطتان أمامه وقامته مُنحنية تجاهها
رغبة في خُطب ودّها، بعد بضعة أشهر ستهجره طبقاً لنظرية «حب
البنات تهيبك.. سيب البنات تحبك»، وذلك الجالس وحيداً يراقب
مَنْ حوله في حذر قبل أن يميل ميلاً بطيئاً إلى اليسار، إنه فقط يُطلق
ريحاً! وتلك القادمة من بعيد، ساقاها متناسقة ملفوفة في الجيز
الأزرق وكعبها العالي طاغي النغمة!!

جذابة بالنسبة لأم تمسك في يدها ملاكاً صغيراً..

ملاك يشبه إلى حد الجنون.. لُبنّي!

يَحُثُّ بعينيها بين الجالسين حتّى لاقتني فاضطربت خطوتها
لحظة، لفتت خُصلةً بأناملها وضعتها خلف أذنها مُحاولَةً بث الثقة
في دَقّات كعبها على الأرض، اقتربت، البلوزة البنفسجية أضفت
الكثير لبشرة النسكافيه الفاتحة، والحزام فوقها أحاط خصراً لم

يتغير، اقتربت، عنقها الطويل تزينه السلسلة! الفراشة الزرقاء التي لم تخلعها يومًا منذ هاديتها بها، اقتربت، حواجبها السمكة وشفاة الكريز والرموش تخفي توترًا في عيني يانعتين أطفأهما حُزن، شاحبة مرهقة رغم تفاوضها مع الـ «Makeup»، قُمت ماذًا يدي فألقت في كفي أنامل لم أنس يومًا ملمسها، وجلسنا، كترام غشيم بلا سائق خرج عن القضيبي دسست نيكوتيني بين شفتي قبل أن أندارك طفلتها التي حدقت في براءة، أعدتُ السيجارة لجيبي خرجًا فنادت الخادمة القلبيية التي كانت تتبعها، أشارت لها أن تجلس و«هانيا» في منضدة مُنفصلة ففعلت، جاء النادل فطلّبت لنفسها «Espresso» وللصغيرة تشيز كيك بالشوكولاتة ثم حدقت في وجهي تبحث عن بداية:

- اتغيرت كثيرًا

- عشر سنين مش قليلين.. أنتي كمان اتغيرتي..

- للأحسن؟

هزرت رأسي إيجابًا وأنا أرمق الدبلة الذهبية في بنصرها:

- أكيد..

- أعرفك يا سيدي بهانيا..

نظرت لصغيرتها التي تحمل جينات أمها ولوحت لها فابتسمت خجلًا ولاذت بصدر الخادمة هربًا مني..

- هانيا.. سلّمي على أونكل.. معلىش.. وش كسوف أوي.. ما شفتهاش

في النادي بتعمل إيه؟

- هانيا.. جميلة.. ربنا يخليها لك.. أخبارك إيه؟

- زي ما أنت شايف.. اتجوزت وخلفت هانيا وباشتغل

«HR Manager» في كريدي أجريكول.. وأنت؟

- زي ما أنا مع المجانين..

بدون أن تنظر في عينيّ ألقنها وكأن شخصاً آخر يسأل:

- اتجوزت؟

كنت أعدّ الثواني حتى تسأل السؤال الحتمي.

- كُنت..

- الطلاق بقى عادي.. معاك «Kids»؟

- كان معايا.. نور..

لفظة «كان» وثّرت ملامحها، رجعت بظهرها للكرسي وقطبت

جبينها فخففت نبرة صوتي وحاولت أن أنطقها بإحساس من يخبرك

أن الجو حار وأن التكيف مُعطل.

- بنتي.. ومراتي.. ماتوا في حادثة على طريق الساحل الشمالي

من خمس سنين!

وضعت أناملها على فمها تبحث عن لسانها ونظرت لا إرادياً

لجميلتها، سئمت تلك الملامح، خليط الفزع والشفقة مع تدلي

الفك ثم البحث عن كلمات مواساة رتيبة لا معنى لها، هذا بخلاف

القال السيئ الذي يسيبه أمثالي في أي مكان.

- أختك إزاي ما قالتش.. مش عارفة أقول لك إيه!! أنا.. البقاء لله.. متأخرة أوي.. أنا...

ابتسمت لها تخفياً:

- ما تقوليش حاجة.. الموضوع انتهى خلاص.. خَلينا نركز في اللي نقدر نساعد..

ابتلعت ريقها بالـ «Espresso» ثم استطردت بعدما ثَمَّالكت نفسها:

- أول ما عرفت إن شريف هايتحول على العباسية دعيت تكون لسه هناك.. شُفت شريف يا يحيى!!

- ملقه معايا.. احكي لي.. بالتفصيل من البداية..

- شريف وبسمة اتعرفوا على بعض من أربع سنين في فرح واحدة صاحبتنا، حُب من أول نظرة، الموضوع يمشي بسرعة، مافيش شهور واتجوزوا، أنت عارف شريف وطققانه، بس هو بجد كان يحبها أوي.

أخرجت أجنحة لأدَوْن ما تقول حين أردفت:

- كل حاجة كانت ماشية كويس لحد قبل الحادثة بشهرين.. وعلى حظي كنت في فرنسا تبع البنك لما عرفت من ماما إن فيه مشاكل بين شريف وبسمة.. على ما رجعت كانت كل حاجة انتهت..

- إيه طبيعة المشاكل؟

- كلمت بسمة من فرنسا لما شريف فجأة ما يقاش يرد على مكالماتي.. حكّت لي أن شريف متغير من ناحيتها.. كانت شاكة إن

تأخير الحمل هو السبب.. مكالمة ثانية بعدها كانت بتعيط وقالت إنها حاسة إن فيه واحدة ثانية.. ما بقتش تعرف أي تفاصيل عن حياته.. عازل نفسه ويغيب كثير ولما بييجي بيقل على نفسه بالمفتاح بالأيام في أوضته.. و«During Sex» بقى عنيف جدًا.

ارتبكت ملامحها خجلًا فهزرت رأسي تفهمًا لتكمل:

.. طبعًا حاولت أوصل لشريف.. قافل تليفونه ليل نهار وما يفتحش الباب حتى لو بسمه قالت له إني على التليفون.. دي الحاجة الوحيدة اللي مش فاهماها.. إحنا طول عُمرنا أصحاب وسرنا مع بعض.. عُمره ما عمل كده معايا.. وده اللي أكد لي إن فيه حاجة غلط.. المهم.. بعد كام يوم بسمه عرفت من جواب التأمينات اللي وحل البيت إنه اترقد من المستشفى.. كلمتها.. حكيت لي كلام غريب..

.. كلام زي إيه؟

.. شريف بيكلم حدّ معاه في الأوضة وهو قاعد لوحده.. حدّ شايفه.. يقعد بالساعات باحص في رُكن، عينه ما بتزلش عنه.. ما ياكلش ولا يشرب معاها.. عمال يقول إن دراعه الشمال فيها مرض وهيقطعوها!!

.. دي أهراق طيبة للسكيز وفننيا..

.. شخصيتين؟

.. ده الجانب اللي بيحبوه جوج السنما، بس السكيز مش كله، هو خطل هنلي مش نفسي، يحمل لوها، تسمي كلام غريب، مُخايلات جرافيني، ينصتوا عليا، يقرأوا أفكارني، عاوزين يوتوني

جنّ راكبي، مرّاتي بتخونني وعاوزة تسفني، عندي مرض خطير..
إلخ.. وممكن يجي على «Paranoia» عظمة، يعني أنا أقوى واحد،
معروض عليا أكون رئيس، أنا المهدي المنتظر، أنا نبي! والمريض
ممكن يسمع أصوات، وفي حالات نادرة يشوف..

توثرّت قلامحها:

.. يتعالج؟

- لو الأعراض حصّلت في وقت بسيط زي ما فهمت منك ممكن..
المشكلة الحقيقية في اللي بتبدأ عنده في سن المراهقة..

- لكن شريف دكتور، مش المفروض يكون...!

- مفيش حد كبير على المرض.. مش دي المشكلة.. المشكلة
في القضية..

- أنت مصدّق إن شريف يقتل؟؟

- أعراض الـ «Schiz» نادرًا ما تبقى عنيفة.. يمكن لو فصام
هيفرني ساعات يكون عدواني..

- هيفرني يعني إيه؟

- مش عاوز أدوسك بمصطلحات.. يعني لو فعلاً قتلها يعني
ما كلش في حالة الطيعة.. كتلي..

- فجأة لسرف طرد بسمة وخبر كالون الباب.. راحت عند مانتها
ماحاولش يكلمها أسرع.. وبعدين اتصل بيها واترجلها ترجع..
راحت له.. فتح لها الباب عريان ورأسه «Tattoo» أكيد ضفّته.. هنا

الأتين مجانيين ناتوهات أصلاً.. تخيل يعمل إيه؟ «He raped her»..
بمُتهى العُنف..

- اغتصاب.. اغتصاب؟

- ده اللي قالته في التليفون وهي مُنهاره..

- وبعدين؟

- وبعدين بسمة اتقطعت أخبارها، آخر مرّة اتصلت بيهم اترفعت
السّاعة، قعدت أقول ألّو.. ألّو الخط قفل، بعدها بشوية جات لي
«SMS» من تليفون شريف..

قالتها وعبثت في تليفونها قبل أن تُناولني شاشة الرسائل القصيرة..
كان فيها كلمة واحدة.. «إلحقيها»... فقط..

- إلحقيها!! الرسالة دي كانت إمتى؟

- يُوم ما بَسمة رَمَت نفسها!! وبعدها بيوم رجعت من فرنسا..

سكّنتُ ومَحَبّتُ نفسًا مُحاولَة السيطرة على رِعدة ألَمّت بأناملها
ثم أشعلت سيجارة مارلبورو «Slim» بالنعناع..

- يحيى أنا هاتجنّ وماما هتموت.. أنت ما شفتش أبو بسمة عمل
فينا إيه في المَحكمة.. بهدلنا وصرّخ فينا وماما انهارت.. الراجل كان
بيعتبر شريف زي ابنه.. وشريف في القفص بيعمل إيه تخيل؟ يتسم
للراجل أكن ما فيش حاجة.. حاسّة إني في كابوس مش عارفة أصحا
منه.. كابوس حقيقي..

مَسَحَت بِمَنديلها دموعًا اختلطت بالمسكاراء، بَلَّت شفتيها

والمنضدة ووثرت ابتها فالتفت إلينا الرءوس التي ظنتني
نذلاً أهجرها.

- إهدي.. الموضوع فيه حاجة مش منطقية.. مش عارف أنتي
نعرفي ولا لا.. بس بَسمة لما ماتت كانت حامل..
شحب وجهها دُفعة واحدة:

- شريف كان هيموت على «Baby».. مش ممكن يكون قتلها
بعد ما كانوا مستنيين أربع سنين!!
- العيب كان من مين؟

- كان فيه ضَعف في الـ «Sperms» عند شريف..

- وفجأة بَسمة بقت حَامِل! تفتكري وارد يكون شك إن اللي في
بطنها مش ابه؟

قاطعتني باستنكار:

- يستحيل.. بَسمة أنا أعرفها أكثر من نفسي.. بنت ناس..

- يبقى مافيش غير إن شريف في لحظة.. ماكانش شريف..
أو...

ابتلعت الكلمة من على لساني فأكملت هي:

- أو إن شريف خلَق كل ده عشان يخلص منها.. مش كده؟

- ممكن تكون استغزته بكلمة بسبب الحمل؟ مش علوز أهول
عائره عشان بلدي الكلمة دي.. بس إحنا دايماً بتضايق من اللي
بلو منا حتى لو بالسكوت.. اللي يحسنا بضعفتا..

- صبرها ما كلّمته في الموضوع ده..

- ممكن يكون فيه واحدة تانية؟

صدمتها شكوكي فابتعدت بظهرها هربًا إلى طرف الكرسي
وشبكت يديها انغلاقًا..

- معقولة يكون ده تفكيرك في شريف اا

لم أشأ نبش جرح اندمل.. فشريف لم تكن لتردعه منظمة حلف
شمال الأطلسي عن فتاة يرغبها..

- ما تفهميش غلط.. أنا بافكر زي اللجنة ما هتفكر..

- اللي أحرفه إن شريف وبسمة ما يستغنوش عن بعض.

«اللي أحرفه»: قائلها غير واثق أو لا يملك معلومة..

- المشكلة إن أخوكي دكتور نفسية.. وده مخلي موقفه صعب.

- وصعب يتعالج؟

- لو مرض فيه احتمال يتعالج ويخرج...

- ولو مش مرض؟؟

لم أجد ما أقوله فأشاحت بنظرها بعيدًا قبل أن تعود:

- هاويزة أشوفه..

- صعب.. الموضوع هاويز إذن من النايب العام.. سييني أشوف

ممكن أعمل إيه.. صحيح قبل ما أنسى.. أخوكي كان ليه حساب
في بنك؟

- أه... فاتحة له حساب عندي..

عرضت عليها أرقامه التي كتبها..

- ده مش رقم حساب ولا حتى فيزا.. أنا حافظة الأرقام.. يمكن

رقم دولي والكود غلط أو ناقص..

اتصلت ما اذانيش حاجة.. مبدئيًا اتقلي الأرقام دي وحاولي

تعرفي أي معلومة عنها.. يمكن حسابات في بنوك تانية.. خزنة

شابل فيها حاجة تهتمه.. قولي لي.. معاك مفتاح شفته؟ ممكن

الاقى حاجة تساعد..

اخرجت سلسلة مفاتيح من حقيبتها وعزلت واحدًا:

- لو أهل بسمة ما غيروش الكالون هيفتح معاك..

- تقدرني تهجي معاها؟

- أنا أصعل أي حاجة تخلصني من المكابوس ده..

نظرت في هبتها وبثقة لا أملكها أجبتها:

- هخلص.. أو عدك.. معاك حرية؟

انتهينا وخرجنا إلى سيارتها الراقدة أمام الباب، حمراء موديل

السنة زين كتبها الخلفية كُتِّم من الدببة القطنية يكفي محل هدايا

وكُرسى لهانيا جلست فوقه بجانب خادمتها الصامتة، ضغطت لبني

زر التكيف ورفعت الزجاج فانهزلت الأصوات، تحركنا والصمت

يرخي حباله فوقنا، كان علينا اختراق زحام الإشارات والمارة

السائرين وفجوة عشر سنوات تفصلنا عن آخر مرة جلسنا بذلك

القرب، شغلت نفسي بالطريق، ووجهها، استرق نظرة إلى صفحته
كل بضعة ثوان متجنبًا أن تتلاقى النظرات فتستشعر الأسئلة التي تلح
عليّ إلحاح مطر غينيا الاستوائي، لم أستطع منع نفسي من تأملها،
استيعابها، تسجيلها في ذاكرتي وجرد الحسّنات التي تُزيّن عضدها،
أربع عشرة نجمة بُنية لم ينقُصن واحدة! أفقت منها لما سحبت لرتبها
نفسًا وأغمضت جفنيها قبل أن تخطف دمة بسبابتها لتواربها وتضغط
زِرّ الكاسيت تشتيًا للصمت، لحظات وتسلل صوت فيروز كدُخان
أزرق لا يُؤثره هواء:

«عندي ثقة فيك.. عندي أمل فيك.. بيكفي.. شو بدّك يعني أكثر
بعد فيك..».

ما زالت أسيرة فيروز! لاحت من بين شفيتها ابتسامة خاطفة عند
مقطع «باجرب ما بافهم شو علقني بس فيك!»..
- لسه بتضحكي عند نفس الكويليه!

قلتها في سرّي فأجابت:

- مش قادرة أطلع من فيروز.. مافيش واحدة بتقول اللي بتقوله.

- آه.. طبعًا.. جامدة فيروز..

لم أجد ما أعلق به فباركت كلماتها بهزة رأس كما أبارك آراء
سائقي التاكسي السياسية، ثقل دمي بَلغ لُزوجة مرّبي تين، ظللت
صامتًا حتى وصلنا أمام عمارات عثمان بالمعادي، أبراج رفيعة
شاهقة تثير رُهاب الارتفاعات في مدرّب قفز بالمظلات، تتناثر عليها
وحدات التكيف كحبّ الشباب في وجه مراهق، تركنا السيّارة وفيها

ابتهما والخادمة قبل أن تنعطف عند المدخل، دلفنا مصعدًا مكسورًا
بمرايا عكست صورتنا لا بهائيًا، كأننا نُحلق في فضاء أسود، تابعت
الأرقام المتصاعدة بسرعة سُخِبت الدم من العروق وانعكاس شعرها
الواصيل لنصف ظهرها حتى وصلنا الطابق الثلاثين..

لمبة سلّم ترتعش وهواء يُصفر من فتحة ضيقة في شباك كثيب
عريض، أشارت لبني إلى باب الشقة ثم قبعت في المصعد تحسبًا
لوجود أحد من آل بسمه، أعرف النساء، عند الهلع ستضغط هي
الصفر وعليّ أنا أنزل ثلاثين دورًا قفزا!!

اقتربت من الباب، بقايا الشمع الأحمر تترنح قرب ثقب المفتاح
بهزال، قرعت الجرس وأنا أرتب في رأسي سيناريو افتراضيًا، سُؤالي
عن اسم شخص غريب بدا حتميًا، تلقيت صمتًا، دقيقة وناديتها،
خَرَجْتَ مُنْكَمِشَةً والتصقت بكتفي كأننا نقتحم كهفًا يسكنه دب،
نزعت الشمع الأحمر وأدرت المفتاح مُقاومًا تيار هواء دفع الباب
في وجهي، نافذة بحرية نُسيّت مفتوحة، بحثت بأنا ملي عن مقبس نور
وضغطته فلم يبدد الظلمة، على ضوء تليفوني تلمست علبة الكهرباء
الرئيسية حتى وجدتها، رَفَعْتَ الْمَفَاتِيحَ النازلة واحدًا واحدًا حتى
أضيت الصّالة، دخلت ودخلت ورائي تتخبط، تركتها واتجهت
مباشرة لنافذة الشرفة المنسية المظلمة على النيل وأغلقتها فهدأت
الأصوات بغتة، يبدو أن أحدًا من آل بسمه لم يقر على المجيء،
فالآثاث مُبعثر والسجاد مطموس بأثار أقدام رجال البحث الجنائي
والطب الشرعي، والأركان تكدّست بأكواب شاي مدفون فيها أعقاب
سجائرهم، تُحف أسقطتها ريع متهوّرة، وبرواز تناثر زجاجه على
الأرض، انحنيت على صورة تجمع شريف وبسمه مُتعانقين على

شاطم، يضحكان ضحكة من القلب، انتزعتها من بين الزجاج
المكسور حين اقتربت لبني فعلقت:

- شكلهم كانوا ييحبوا بعض أوي!

- مافيش حد بيضحك كده غير لما يكون بيحب..

- عزفيني أروح فين.

أشارت إلى طرقة على اليسار يتفرع منها ثلاث غرف:

- آخر أوضة..

دسست الصورة في جيبي ومشيت في الطرقة باتجاه الباب
المُغلق، فتحتة فصدمتني رائحة عطنة مكتومة قبل أن أضيء نور غرفة
كانت غرفة معيشة في اليمين كنبه مُهالكة متزوعة الكسوة مُقعرة
من المتصف، وفي اليسار حائط موشوم بمتالية شريف الرفمية
ذاتها مكتوبة بينط كبير خلف مكتبة صغيرة خالية إلا من زهرية بُسّتها
الصُناعية ذُبلت واصفرت، تكذمت الزجاجات البلاستيكية التي
تميزها آثار صُفرة البول في ركن لن أطرقه، الركن الذي وجدوا فيه
شريف، عَرفته من بقايا دماء شرايته التي لم تغادر السجاد، اقتربت
من النافذة وفتحتها تهوية فصَفَعَ الهواء وجهي، تحاملت ونظرت
إلى أسفل فُضولاً، لو سقطت من هذا الارتفاع لتوقف قلبي قبل أن
أصل نصف المسافة، ألم بي دوار فأغلقت النافذة والتفت للبنى التي
وقفت تتأمل الأرقام على الحائط:

- مش دي نفس الـ...؟

- هي.. واضح إن شريف بتزاوله فكرة «OCD».. وسواس قهري
يلح عليه يكتب أرقام.. يبقى لها عنده مدلول إحنا ما نفهموش..

- حتى لو دكتور ما يقدرش يحس إن دي هلاوس؟

- ممكن يحس لو هلاوس، جلستين كهربا وأدوية تقدر تفصله
عنها واحدة واحدة، المشكلة لو «Delusions».. ضلالات..

- إيه الفرق؟

- الهلاوس بتيجي سمع، رؤية، وممكن حتى شتم، إحساس مش
حقيقي بيخلقه المخ.. تروح أعراضه مع الأدوية، ولو بطل الجرعة
ترجع له أعراضها تاني فيفهم المريض ويستوجب إنه مريض، لكن
الضلالات أفكار مفروسة، مصدقها ويجادل اللي يعارضه فيها،
بتأخذ وقت..

فتحت كاميرا تليفوني لالتقط صورًا للغرفة، وتعمدت «صدفة»
أن التقط لبني في واحدة حين لاحظت أن المتألية قرب حدود
المكتبة نهايتها مبتورة، رقمين ناقصين تواريا خلفها، المكتبة تحركت
عن مكانها المَعهود كما أن الظل الأصفر من أثر حجب الشمس
والهواء عن الحائط متأخر عنها ستيمترات، قَسَت أصابعي في
الفراغ خلف المكتبة وعزم قوتي بدأت أجفيتها، اقتربت لبني بدون
أن تسأل وجذبت معي المكتبة التي صلتها السجادة فاهترت للحظة
كانت كافية لتسقط الزهرية مُحطمة حوًّا مبالغًا فيه، تبعثرت أوراق
الشجر البلاستيكية الباعثة بين أجزاء الإثاء وكارت شخصي وتليفون
نحمول انفصلت بطاريتها!!

- ده تليفون شريف!

قالتها وأنا أجمع أشلاء النوكيا.. وضعت الشريحة وضغطت
زر التشغيل فلم يستجيب.. سكتة بطارية لن نضعها سوى شحنة
كهرباء..

- التليفون ده طالما عُدَى على المباحث يبقى أكيد كان قاطع
شحن قبل يوم الحادثة..

- وإيه اللي جابه هنا؟

- مش عارف.. يمكن أخوكي خبأه!

قرأت الكارت الشخصي..

Buddha ..Tattoos designs..

اسم محل في مصر الجديدة لرسم الوشم، مذيل بعنوان ورقم
تليفون..

- ده لازم المحل اللي رسم فيه الـ «Tattoo» اللي على إيد..

خرجت منها بمرارة، دمسّت التليفون والكارت في جيبي وأزحت
المكتبة لمسافة تسمح بمروري، المتتالية اكتملت برقميها الناقصين
كما كتبها شريف..

انحنيت لألتقط بقايا كتاب حُشر بين المكتبة والحائط، كتاب
مُهرّي، لغته عربية عتيقة، استعمل استعمال جدوة حصان قبل أن
يُمزق جزئياً، ما تبقى من غلافه حمل عنوان «عجائب الآثار في
التراجم والأخبار» لعبد الرحمن الجبرتي!! بالداخل كانت الكلمات

مَكْنَمَة مضغوطة بالكاد تُقرأ، وهو أمر منمنمة تُحيط الصفحات
كبرواز مُزيج، حين تفحصت الأوراق عثرت بين الصفحات على
رسوم متونة بخط اليد لرجل وامرأة في أوضاع جنسية تُشبه أوضاع
كاماسوترا الهندية، طويت الصفحة خجلاً حين علقت لُبنى:

.. ده مش طبيعي!

.. طبيعي مع مريض سكيز.. دماغه مُمكن توديه في أي حته..
أعرف ناس كانت بنحوش أعداد «طبيك الخاص» بهستيريا عشان
باب الاستشارات الجنسية.. هاسأله عنها يمكن يفتح معايا كلام..
الحمام فين؟

السكري اللعين وشعير البيرة يجعلان مَثائتي لَحَوحَة إلحاح ذُبابَة
لا تستقر، إفراغ نهري الأصفر بَلَّغ في تقديري نصف مُتعة المُعاشرة
الجنسية! راودتني ذكرى مُراهقتي عندما كُنت أصطحب مَجَلات
السكر للحمّام حين لاحظت أنني وضعت الرسوم الجنسية في جيبِي
وطلبت دخول الحمام فجأة، «Which means» حدث يستتجه طِفْل
لم يَلُغ!! تمنيت أن تفقد لُبنى الذاكرة قبل أن أنهي بث نداء الطبيعة
حين اكتشفت أن المياه مقطوعة ومَحْبَس السيفون مكسور! سأترك
وراثي جريمة! بَحِثت عن منديل ورقي حتّى عثرت على واحد في
جيبِي حين لاحظت خزانة الدواء المُعلّقة بجانب المرأة، فتحتها
فَوَقَعْتُ فُرْشاة أسنان وماكِنة جِلالة وخمس علب «زيلورك».. ٣٠٠
من بين خمس عشرة علبه رُصّت بعناية فوق بعضها!! دواء يعمل
على سَحَب الملح من الجسم! كان ذلك حين انطفأت عيناَي فجأة
وسمعت لُبنى تُصرخ!!

على طريقة برايل استرشدت مكان مقبض الباب، بتفاهة وقلة
عقل عاندني لا يفتح حين سمعتها «يحيياااا؟» جذبت المقبض
حتى انفتح غنوة، لم أعلم وقتها أنني نسيت أمر الثرياس، خرجت
أركض على ضوء المحمول الواهن ناحية الغرفة، دلفت من الباب
أنادي لبني حين تعثرت في الكنبه لأسقط على رُسغي، طار التلفون
مني وطار صوابي لما أنت استغاثتها الثانية من الغرفة المجاورة،
تحاملت وقمت أتحمس الطريق وعينايت متفرجتان على آخرهما
استجدي نورًا..

- يحيى.. أنا مش شايفة حاجة..

- أنا جاي.. خليك في مكانك..

ضرب تحسست الجدران حتى عثرت على باب الغرفة، مددت
يدي أمامي حتى لامست شعرها فوق كتفها، انتفضت رعبًا فامسكت
يدها، قزبتها مني حتى سمعت نهيجها وشممت الأريج الذي لم
يغادرني يومًا..

بعضنا يعيش عُمره حَسرةً على قِطار فاته!

- أنت كويسة؟

- أنا عاوزة أمشي..

- إهدي.. النور قطع بس.. مش مُمكن ننزل ثلاثين دور على
رجلين! امسكي فيا..

تشبثت بي بأنامل مُثلجة هاربة دماؤها وخَرَجنا من الطرقة إلى
الصالة تعثر أقدامنا في الكراكيب الملقاة على الأرض، الشُرقة بدن

أكثر حميمية لانفصالها نظريًا عن الشقة، دخلناها نستقي بقايا نور
الشارع المشتت في السماء ونثرات قمر متآكل، دفعها الهواء كلبة
بلاستيكية تترنح وطير شعرها، غريزيًا ألصقت ظهرها بالسور نحلق
بنزول في الفراغ داخل الشقة كأعزل يرتقب وحشًا ضاريًا، وعيناها
الخضراوان منفرجتان على اتساعهما جوعًا للضوء، رَمَقَتْنِي فابتسمت
لها في استهانة صناعية أبث الطمأنينة فيها، هدأت رعشة يدها قبل
أن تسلم أصابعها تدريجيًا من كَفِّي حرجًا وتهرب بعينها ناحية
أضواء القاهرة البعيدة، وقفت بجانبها أتأمل ذلك المنظر المهيب؛
النهر العتيق يعكس نصف قمر مُرتعش على صفحته، وصوت الريح
مُهَيِّم يصرخ في شعرها ويُبْعِثُهُ قُرب وَجْهِي، تتجنبني عنوة ويبتا
ألف كلمة تفور، دقيقتان من الصمت المدوي مرًا كساعة قبل أن
يعود النور ومعه لون وجهها، ظللنا على صمتنا لحظات حتى لَمَت
خصلتها خلف أذنها فوفرت عليها الارتباك..

- يله بينا قبل ما يقطع ثاني..

كان ذلك حين أصدر تليفونها جرسًا فنظرت للشاشة قبل أن
تُنهِي الاتصال:

- ده خالد.. أصله ما يعرفش أنا فين!

«خالد» في مُعْجَم «لسان العرب» من مصدر «خُلِدَ» وتعني:

«خُلِدَ، يَخْلُدُ، خُلْدًا، وَخُلُودًا» أي بقي وأقام..

دوام البقاء في دار لا يخرج منها..

دوام البقاء مع أنثى لا يُفْرغ منها.. لا يشبع منها..

لا أعرف إن كانت لغة الجسد خانتني أم أنني في قرارة نفسي
تمنيت «بدناءة» رؤية ذلك التعبير في وجهها فرأيتها؟ مَلاح لُبنى
لم تَبد مُستَرخية وهي تنطق اسم زوجها، تَقَلَّصت شَفَطاها لجزء
من الثانية كان كافياً بالنسبة لي لالتقطه، اللعنة على لغة الجسد وما
تفعله في دارسيها! خرجنا إلى المصعد اتحسس رُسخي الذي تورَّم
وصدراً أحاط قلباً متهي الصَّلاحية، قَبَطنا من البروج المُشيدة
صامتين وكادت تقبل الأرض شكراً بإحساس نملة فلتت من الدهس
قبل أن نركب السيارة، احتضنت ابتها التي انفلقت بُكاءً ثم بحثت
عن شاحن لتليفون شريف لكن الثقب كان يحتاج شاحنًا مختلفًا،
تحرَّكنا بالسيارة وبقايا كرامة لا زالت تستغرب المسافة بيننا، عيناى
تندفعان إليها مثل المياه على السد، بالكاد أصدَّها، لُبنى أيضًا تقاوم
فُضُولًا جعل قبضتها تعنصر عجلة القيادة! صَرَفَت شياطيني وتابعت
الشوارع بشرود مُصطنع حتَّى وصلنا أمام بيتي بعدما أصرت على
توصيلي..

- تَقَلَّت عليك..

- تنهزري!!

- خلِّي المفتاح معاك يمكن تحتاج تروح تاني.. عندي نُسخة..

- أنا هاتابع شريف وأطمئنك.. قبل ما أنسى.. هو شريف أو بسمة
حد منهم عنده أملاح؟

- مش فاكدة حاجة زي كده!

- غريب.. أصل لقيت أكثر من عشرين عِلبة دوا للأملاح في

الحمام!! وأخوكي في نفس الوقت طلب ملح زيادة في أكله!!
Anyway.. هاخلي تليفون شريف معايا.. عندي نفس الشاحن..
خدي بالك من نفسك.

- منشرة يا بحبي..

ربي.. لِمَ لِمَ تخلق آدم بلا ضلوع؟!

تابعت سيارتها تبتعد، لوحت لي «هانيا» من الزجاج قايتسمت
ورفعت يدي بعفوية قبل أن تُواري نفسها في حُضن مُريتها الفلينية
حتى اختفت كشافات السيارة، لم أشعر برغبة في دخول شقتي،
سحبني قدماي إلى عوني، الطريق ضيق لكنه يكفيننا نحن الاثنين،
أنا وهواجسي، أنتقي علب السجائر وأوراق الشجر الجافة لأدهسها
بقدمي، صوت التهشم يُشعرنِي براحة لم أعرف يومًا مبيها، حاولت
ترتيب أفكاري لكن ضي القمر على عينيها، ولملمس أناملها في كفي
وأريج شعرها جعلوا تحليلي مشيًا مُهلًا كبضاعة صينية المنشأ،
أقاوم تشاؤم «مُحترف» يتسلل إلى عقلي بشأن الأمر برمته، اللعنة
على الباب الذي انفتح على حياتي المستقرة الهادئة الميئة بخشوع
ناسك بوذي أبكم أطرش أعمى، كم أكره التغيير!!

خاصة حين يأتي حاملًا معه عطرًا قديمًا لم تغادر رائحته صلدري.

وصلت لعوني وحيث الجالسين ثم صبيت لتفسي كأس «Jack
Daniel's» قبل أن أقتنص مكاني وسط خمس فرائس سيكونون سيًا
في إعادة هيكلة أفكاري، يحدث هذا دائمًا، بل وأبيت صافي الذهن
حين أفترى على أحدهم وأحمله ثمن جوخ المنضلة والحشيش،
ذنب ساكفر عنه فيما بعد..

انزلت في كرسي أرقب الأوراق في وجوه من حولي، وللأسف لم يكن من بينهم شاكر، العاجز جنسياً، سحب أوراقه ونظرت فيها وبدأت الدورة، لم أعرف يوماً إن كانت الكأس أفقدتني التركيز أو أننا نلعب «شطرنج» ولا أدري! نصف ساعة وتوقفت قبل أن انسحب وفقاً لتريف وصل خمسمائة جنيه!!

تشئت قراءاتي كإبرة بوصلة قرب مغناطيس وضربني الصداق تدريجياً حتى احتقنت عياني ولم أكن قد أنهيت كأساً الثالثة بعد، التقطت كيس سكر أفرغته تحت لساني وقمت مُتأذناً وسط السمات، صَحْبني عَوْنِي إلى الباب متسائلاً إن كنت على ما يرام، طمأنته بكلمات مُبهمة لن أتذكرها ثم رحلت..

حين وصلت البيت خَلَعْتُ ملابسِي وأعددت شريحة خبز بالتونة قبل أن يرنَ تليفوني برقم مايا، لا بد راغبة في استرجاع لباسها، أو ربما ترك واحداً آخر على سريرِي! لم أجد في نفسي عزماً للرد عليها، كما آتني في حاجة لحوار جاد والحوار مع مايا لا يأخذ أكثر من خمس دقائق ثم نَصَمْتُ، لتحدث بطريقة برايل قبل أن تشابك بالأيدي والأرجل في معركة نخسرُها سوياً!

الله جعلها جارية حسناء؛ كما جعل بعض الزهور سامة، لكنها على أي حال أفضل بالنسبة لي من عروسة جنس بلاستيكية!

ضغطت زر كَئِم الجرس ثم أخرجت تليفون شريف، كان مَطْلُياً بالخدوش كقباب في حِمْام بلدي، لكنه على أي حال يستخدم نفس شاحن مَحْمُولِي، أوصلته بالكهرباء تغذية وضغطت زر تشغيله، نَبَحَ النوكيا بنغمته الرتيبة وأضيت نصف الشاشة بضوء واهن بسبب

الشرح الواسع الذي تمشى فوقها، فتحت قوائم «استقبال وإرسال
المُحادثات» فوجدتها خالية، فقط قائمة «المُكالمات الفائتة» ضمت
طابورًا طويلًا من الأسماء من بينها زوجته وأخته، شريف لم يجب
متصلًا لمدة شهر على أقل تقدير! فتحت قائمة الاستوديو فصغعتي
مفاجأة جعلتني أوصل التليفون بالكمبيوتر لأتوغل في التفاصيل،
أكثر من ستين صورة لبسمة، عارية مُستلقية في السرير! لقطات مقربة
لشفتيها، عنقها، ظهرها، ساقها وأصابع قدميها وكاحلها، تصوير عاشق
يُقبل الأرض تحت قدمي أفيونته! بدت مشيرة رغم الكدمات البشجية
في جلدها! تلتها مجموعة صور لشريف معها، يقبلها، يلعقها، ينهشها
ويمتص رحيقها، مُوليا وجهه للكاميرا مبتسمًا بفخر مشول بفتح
مستشفى أطفال، ووجه بسمة شارد إلى سماء الغرفة، غائبة، يقظة ربما
لكنها غير واعية، غير مبالية، لا.. مُتشية! تعبيرات مختلفة لا تؤدي إلى
طريق! وضعية الكاميرا أيضًا بدت غريبة، قريبة، موضوعة على منضلة
بجانب السرير، وممسوكة بيد شريف أحيانًا، من التاريخ عرفت أن تلك
المجموعة تم التقاطها على مدار أسبوعين قبل السقوط! تتخلل تلك
المجموعة صور لمبنى قديم أعرفه! نعم أعرفه، المتحف الإسلامي
بباب الخلق أمام مديرية أمن القاهرة! بعدها مجموعة صور لفاترينة
عرض رُجائية في المتحف نفسه اضطرت لتكبير مُحترها، عبابة؟
جلاية كانت أقرب وصفًا للرداء المفرد على ماسورة بيضاء، لونها
سمني فاتح ومُتسمة بخطوط عَرَضية إلى مُربعات مائلة تملؤها مُربعات
أصغر فأصغر مملوءة بالأرقام، وعلى الأكتاف والأكمام أربع دوائر
مرسوم فيها ورقة شجر سداسية! بجانب بعض اللقطات للكاميرات
مراقبة ونظام إنذار ويوابة مكتوب عليها «الطب»!

المتحف الإسلامي!!

بعد «عطلتي فني» في رأسي دام لحظات فتحت متصفح «(x)gl» وكبت «سرقة المتحف الإسلامي»، تجنبت الديباجات المتقولة بقُسم حتى وصلت للُب الخبر:

«... وقد أكد الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار أن المتحف قد تعرض للمسركة بالفعل أثناء فترة الانقلاط الأمني، مُشيرًا إلى أن ما تمت سرقة هو قطع بسيطة وغير مُهمّة، قميص من الكتان يرجع للعصر العثماني وأطباق منقوشة بالزخارف، ونسخة من كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي!! وعلى الرغم من أثرية المسروقات فإنها ليست بأهمية سيوف السلطان الغوري ويونا برت التي سُرقَت أثناء الترميم...»

ولم يذكر الخبر لِم يملك شريف هذا الكتاب! وهل يملك باقي المسروقات!!

ضغطت سهم التمرير فأتني الإجابة مع آخر صورة، شريف في مرآة الحَمَام مُتصلاً يَرْمُق انعكاسه مبتسمًا، ويرتدي القميص، قميص المتحف الإسلامي!! يده اليسرى العُزَيَّة بالوشم تصوّب كاميرا التليفون للمرأة، ويُمناه مَرخية وجُروح الانتحار فيها تنزف الدماء! وتاريخ الصورة يشير ليوم محاولة تحليق بسمة الفاشلة!

شريف كان حاضراً مُسجلاً لحظة فريدة؛ لحظة انتحاره، أَمَعَت النظر في الابتسامة المحفورة حَوْل فمه مُحْتَلَّة جوانب شفّيته بقهراً ابتسامة تجمع الظفر بالضعف، حواجه تصنع رقم ثمانية مُرتعلاً

هنا، ورأسه ينعصر التليفون بقوة تغرت العروق، شريف انتهى
من تلك الصورة وألقى تليفونه في الزهريّة البلاستيكية!!

أسدلت جفوني منعاً لعقلي من ألضم فواجسي ببعضها لأن
Pullover التي ستصنعه سيكون مغلقاً من ناحية الرقبة، وبلا
أكمام! لماذا صور شريف زوجته بتلك الطريقة؟ سبق مُبالغ فيه
لمتزوج لا بد اعتاد رحيق امرأته وملئه كعادتنا نحن الرجال! تصويره
لنفسه والجرح يتزف؟! الثبات في ملامحه وابتناساته؟! قميص
المنحف الإسلامي؟! الكتاب المهترئ بين يدي؟! صور فاترينة
تعرض وأجهزة الإنذار التي توحى بمؤامرة؟!!

الغاز لا محل لها من الإعراب ومُستقع مظلم أكره الخوض فيه،
أحتاج سيجارة محشوة..

لفت واحدة ووضعت يدي في جيبي أبحث عن الولاة
حين عثرت أناقلي على صورة الشاطئ التي التقطتها من شقة
شريف، أشعلت سيجارتي وأنا أتأمل ملامحهما، السعادة والتوائم
لا شك فيهما، الضحكة غير مُصطنعة، حركات جسديهما لا تكلف
فيها، والوشم المغوي على فخذه اليسرى يشير لزوجة لديها
«Desserts menu» من مائتين صفحة.. من أجل زوجها..

الوشم!

التقطت دوسيه شريف وقلبت صفحات تقرير بسمه الجنائي حتى
عثرت على الفقرة: «... كما تبين حدوث قطع دائري مشرذم قطر ٥
سم أعلى الفخذ اليسرى، يشير تطوره الالتهامي إلى كونه جائز الحلوث
ما بين أسبوع إلى عشرة أيام، نتيجة سلخ الجلد بألة حادة!!».

لقد أزيل وشمها السُلخ بآلة حادة! أضفت لتقريرى ملحوظة «نزعة
سادية» قبل أن أقرب الصورة لعيني، لم أستطع تبين الرسم جيدًا، ربما
ثلاثة خطوط متقاطعة تصنع شكل وردة مبسطة!!

توقفت عقلي بعدما امتصَّ السكر من دمي، دَسست الصورة في
الملف الجنائي وتركت تليفون شريف الجائع يُكمل وجبته الكهربائية
قبل أن أنزلق في الكرسي أقلب الصور على شاشة الكمبيوتر مع
زجاجة «Meister».. حتى اختفت معالم الغرفة..

قبل الشروق تنبّهت..

نمت من فوق لوحة المفاتيح التي حُفرت أزرارها في رسغي.
عقلي مَسنون في قمة تركيزه كمن نام هامًا، الشاشة كانت تعرض
صورة شريف في المرأة، حين أطلت النظر لمحت خيالًا مهزوزًا
لجسم يقف خلف شريف لم أكن قد لاحظته أول مرة، جسم أسود
يتكى على أربع قوائم، شكل أقرب لكلب! كلب أسود!! قبل أن
أضغط (+) على لوحة المفاتيح لأزيد تكبير الصورة شعرت به
قد تحرك.. نحوي! هنا انتابني الرعدة، تلك البرودة التي تعتربك
حين تُدرك أنك لست وحدك في الغرفة، وتنصب شعر جسدك
كجمهور استاد يصنع موجة تشجيع! لم يكن الانعكاس خلف
شريف، الانعكاس كان خلفي! انتفضت لأجله ورائي، بحُمرة عين
يحلق في غُلا والزبد ينال من شذقيه، أنفاسي انسحبت بلا رجعة،
ضربات قلبي قَعَدت إيقاعها والعرق أغرقني في ثائية، كنت أعرف
أن لي حركة كَميلة بتَسلي كَصدر فرخة، كما كنت أعرف أن تلك
الزيارة قد تعرّض استعجاله في زيارته الأولى، بحثت عن شيء في

ينطلق متر أدود به عن نفسي، مضرب ذباب، كتاب، ورُجاجة البيرة
الفارغة! الأخيرة كانت الأكثر منطقية، حين ألقيت كفي لألتقطها كان
ذلك متأخرًا ثانية عن تحرّكه، قبل أن أصل لعنقها كان بالفعل قد قفز،
بردة فعل لا إرادية وارىت وجهي بيدي وانتظرت برّائين، تليها أنياب،
لكني تلقيت شظايا زجاجة الـ «Meister» في مشط قدمي! كان ذلك
ما أسقطته بصوت مسموع حين قمت ملسوها من النوم..

صباح اليوم التالي..

خنجر حُرْمس في ظهري هديرًا وصمغ قربي استبدل الدم في
حُرُوفي، التفت خلفي حيث كان يقف ضيفي الفاجم، ضيفي الذي
زحل قبل أن أستيقظ، اختلجت عيناى للحظة ومزّت بجِلدي قشعريرة
من أثر التهديد! لم أستطع فهم الفكرة! هل ما تلقّيته تهديد؟
جرحرت نفسي حتى المطبخ أقاوم نور الشمس «نجم أصفر كبير..
لا يفوتك...»، التي تتجول في الشقة كأنها شقة أبيها، تُصلي عينيّ نازًا
لا أنحملها، رشقت الحُقنة في عضدي وضخخت أنسولينى تحت
الجلد قبل أن أرتشف قهوة وأسحب لرتني ملبجرامات النيكوتين
مع بقايا يتراشبه حامضة سَخَتْها في المَحْمَصَة ثم لرتديت مَلابسي
ووضعت تليفون شريف في حقّيتي، حين هَمَمْتُ بالرحيل زَلَّتْ
قدمي للحظة كدت أهوي فيها على طرف الكرسي قبل أن أستعيد
توازني، اتحنيت على الأرض ألتمس ما مَيَّعها فوجدت بقعة سائلة
شفافة، باشمترلز لامستها بسبابتي، لزجة مُقَرَّرة، رفعت إصبعي إلى
لثفي، الرائحة كانت كريهة لا تأتي إلا عن بول لو.. لعاب!!

طوال الطريق لشارع «المَرصد» بحلولان حاولت طرد الفكرة من رأسي؛ فكرة أن ذلك السواد قد ترك تذكارة على أرض غرفتي، يُطاردني وجهه مُطاردة الأغاني العتيقة رتيبة الإيقاع التي تلازمك حتى الانهيار، لم يبدد صورته سوى وُصولي مستشفى «بهمن» النفسي، تربض بلونها البنفسجي الرائق مغروسة بين الخضرة، نزلت أمام الباب المنقوش بحرفي «BH» مجدولين، تمشيت وسط السكون حتى وقفت أمام فتاة استقبال سألتها عن اسم شريف الكردي، اضطربت معالمها لما ذكرته:

- هو مشي من فترة.. حضرتك قريبه؟

- لا.. ممكن أقابل حد من الـ «Staff» اللي يعرفه؟

استريح خمس دقائق..

قرصني الملل رُبْع سَاعَة، مرّت خلالها سيدة عجوز اغتصبها الزمن ولا يزال، جالسة على كرسي متحرك يدفعها ممرض، لما أصبحت أمامي رمقتني بمقلتين جاحظتين مشمزتين، ثم ابتعدت ورأسها تلف ناحيتي تتابعني قبل أن تختفي في ممرا أي مرض نفسي قد يصيب سيدة بتلك السن! انتفضت حين وضعت فتاة الاستقبال يدها على كتفي تتشلمي من شرودي..

Sorry - عتاة أندك مش واخذ بالك.. اتفضل.. تقى

باب شمس

نشيت ثم طرقت وفتحت..

مكتبه متخمة بالمراجع ومَنظر طيبي في شبك عريض ورجل في
العقد الخامس يجلس خلف نظارته، أبدى عدم ارتياح وهو يُصافحني
بابتسامة لم تُصعد من حيز الشفاء إلى العينين، سريعاً أسعفتني قرامة
تفاصيله، دبلة في يساره، شفتان مدمومتان في توتر لا يُظهران أسنانه،
نظراته تمسحني بسرعة وجبهته متشنجة..

رب أسرة متحفّظ كثير الشك..

- يحيى راشد.. «Psychiatrist» في العباسية..

- صلاح رجائي.. «Consultant Psychiatrist»..

لم يبد عليه انفتاح ولا فك اشتباك أصابع يديه إلا لما حكيت عن
شريف كـ«متهم» وصفتي كطبيب مُقيم لحالته، ولم أذكر بالطبع
علاقتي الشخصية به..

- في آخر أيامه هنا كان غريباً..

- إزاي؟

- شريف بطبيعته كان يهتم بنفسه.. شيك.. لكن بدأت لاحظ
عليه إهمال.. صحته كمان بقى في النازل.. أنا شخصياً شكيت
أنه بيتعاطى حاجة.. كلمته مرّة.. ما فهمتش منه حاجة فعارضيتش
ألفت النظر.. بس الزملاء لاحظوا.. شريف لغاية هنا كان يعمل

شغله صبح .. لغاية ما في يوم قعد مع مريض .. فجأة سمعنا المريض
بيصرخ في هستيريا فظيعة ..

- إيه المشكلة؟

- المشكلة إن المريض ده كان حالة «Catatonic Schiz» من
٥ سنين .. ما بينطقش كلمة وما بيتحركش .. بمتتهى البساطة لقينا
قلم رصاص مفروز في إيدته!

- شريف هو اللي غرزاه!!

- يعني المريض فجأة فاق بعد خمس سنين تيبس وغرز القلم
في نفسه!

- المريض ماكانش مريض!؟

- لا طبعا! الحالة بتعالج هنا من سنين .. وبعد ما بعدنا شريف
عنه اتيس تاني ..

- وبعدين!

- مجلس المستشفى لما قعد مع شريف ما قدروش يفهموا
تصرفه .. بمتتهى البساطة شريف بقي خطر .. اضطروا يفصلوه ..

- تشخيصك إيه؟

- شريف كان زميل مش هاوز أخوض في سيرته .. لكن فيه حاجة
في عينيه بتخليني مش مقتنع بأنه مريض .. الموضوع حصل بسرعة
غريبة يمكن في أقل من شهر ونص .. May be أكون ظالمة .. بس
تعالى نقول إن أقرب حاجة «Latent Schizophrenia» .. كامة

من فترة ما حدثش كان ملاحظها وطلعت دلوقتي.. وممكن يكون
«Tumor» ضاغط على منطقة معينة و...

- مافيش ورم..

- لكن فيه «Schizoparagraphia».. مجنون بالأرقام.. شريف
لما مشي لقينا كمية ورق مهولة ورا الباب مليانة أرقام.

- الورق لسه...؟

- لا طبعا.. وميناه.. لكن.. فيه ورق دهلومة كان يذاكرها نسيه لما
مشي.. اعتقد لسه موجود..

- ممكن أشوفه؟

استدعى الدوسيه مع أحد العاملين ووضعها بين يدي.. العنوان
كان:

«Body language and schizophrenia» دراسة عن لغة الجسد
والسكيزوفرينيا!!

قرأتها مرتين قبل أن أبحث عن ترجمة أسفل الشاشة تزيدني
توضيحا، صدفة واحد في المليون أن يختار شريف نفس المجال
الذي درست له لبحث فيه، قلبت الدوسيه بحثا عن بصمات شريف
الرقمية فلم أجد غير ديباجات أكاديمية منظمّة آخرها كان قبل سنة
من القضية.

- شريف ما حكاش عن مشاكل مع مراته قبل كده؟

- بصراحة ما أعرفش.. شريف كان كتوم.. مش بيحكى لحد
أسراره.

رجع بظهره إلى الكرسي وسط كفيه على المكتب فعلمت أن
نفس، شكرته على وقته وقهوته وسوالفه البيضاء «المنكوشة» التي
أزعجتني طوال الجلسة قبل أن أقفز في تاكسي، طلبت من السائق
إخراص فردة الجزمة الذي يغني في الكاسيت قبل أن أغوص في
الكتب الخفية المعلم أفكاره..

علامات المرض على شريف جاءت سريعة، تصرفاته حادة
وصلت للاعتداء الجسدي رغم ما شاعلته في صور تلفونه من عشق
ورغبة، يتكر ما فعل؛ الإنكار!! احتمالات جرائم العنف الجنب
المرتبطة بالفصام نادرة إلا أنها موجودة، ونسبة ظهور العنف بين
المرضى أقل من ظهور العنف لدى الأشخاص الطبيعيين، ذلك
لا يعني أن مريض الفصام غير المتظم في علاج أو المهمل من قبل
أسرته أو المصاب بالنوع الهيفريني قد يكون لديه أحياناً نوبات
اندفاعية تظهر في صورة عنف أو اعتداء على الآخرين، وهي حالة
غير قابلة لإيلاء نفسها على عكس مريض الاكتئاب الذي قد يسعى
للانتحار، إلا أن شريف حاول إنهاء حياته!!

(.....)

تستطيع أن تضع بين الأقواس كل علامات الاستفهام التي
تنزهاك..

خرجت من التاكسي إلى المستشفى مهلهلاً كمن لم يدخن سيجارة
الصباح، طوال طريقي إلى ٨ هرب حاولت استكمال قطع اللغز
المتناثرة، أبحث عن وجه بلا معالم، جلست إلى مكثي ووضعت
ملف شريف أمامي حين تذكرت زميل «بهمن» ذا السوالف البيضاء
لما تحدثت عن وجود ورم في مخ شريف يضغط على...

أخبرت صوت أفكاوي وأخرجت أشعة شريف ورفعتها إلى نور الغرفة وأنا أبش معلوماتي المتأكلة عن شيء لن يظهر في أشعة عادية.. بؤرة؟ بؤرة صرع بلا بصمات؟

صرع الفص الصدغي!!

احتاج مرجعاً، فخمس سنوات من عدم المعرفة قلادة على محور الطب من رأسي، خرجت من ٨ غرب وكثفا إلى المكتبة، بحث بين الكتب في أنواع الصرع حتى عثرت على صفحة صرع الفص الصدغي، بؤرة في فص المخ تُشعل الجنون اشتعالاً، تعطي نفس أعراض المرض النفسي، يتفصل المريض عن الواقع لثوانٍ وربما دقائق، يفعل فيها ما يفعله قبل أن يعود لوعيه جاهلاً تماماً بما حدث فاقداً للذاكرة كلياً، الأعراض تتطابق بنسبة ٩٠٪ مع سلوك شريف، هلاوس سمعية وبصرية، نوبات عنف مع من حوله، اضطراب اللغة، كتابة بشكل قهري مكثف دون توقف.

أمل ضعيف.. لكنه مثالي..

رجعت ٨ غرب وقبل أن أجلس في غرفتي طلبت عمل رسم مخ لشريف.. في منتصف قهوتي دخل سامح وأهلق الباب.. جلس على الكرسي أمامي للحظات ثم زفر..

- أنت طالب رسم مخ لشريف؟

- آه.. شاكك في صرع؟

- مايفيش نوبات!!

..(TLE)..

- صرع الفص الصدغي! بعيدة.. أنا باقول إنه واحد بيرسم
جريمة كاملة.. عامة رسم المنح هايين.. عندك أكاونت على
الـ Facebook؟

- ماليش فيه..

- يا راجل! فيه حد ما عندوش دلوقتي!! أنت دفعة ٩٩ مش كده؟
هزرت رأسي إيجاباً..

- علي شعبان كان دفعتك؟

- مش فاكرو..

- علي شعبان! التخين شوية ده أبو نمش في وشه..

- آه... علي.. افكرته..

- أصله بقى عندي على الفيس بوك.. اصلغ وخلف بتين..

- سلم لي عليه.. عقبالك..

- حاطط صور لدفعتك في رحلة الأقصر وأسوان.. والاقبي لك

مين تخيل؟

قرأت اكتشافه مبكراً فاتخذت قراراً تاريخياً بحرق مراكبه قبل

أن تصل شواطئ..

- شريف الكردي؟

أذهله كشنفي لأوراقتي..

- أنت عارفه بقى كويس!!

.. كان صاحب علي شعبان .. بس ما كانش صاحبي ..
.. غريبة .. أنت واقف جنبه في مَبْع لقطات أكتك أنتيم !! أنا
افتكرتك صاحبه .. أصل أمانة الصّحة مشددة الأيام دي على موضوع
المعارف في ٨ غرب .. و ...
.. قلت لك ما أعرفوش ..

قبل أن يُكمل سامح ابتزازه فتح محسن الباب بغتة ينهج كمن
نسلق جبلاً ..

.. دكتور .. عندنا مشكلة في عنبر «أ» ..

رغم استبعاد شريف لم أفهم الهاجس الذي جعلني أقفز من
فوق مكثي، خرجنا إلى الطرقة رَكضًا حتى باب العنبر، المتهمون
كانوا يلتفون حول نقطة قُرب آخر سرير، سرير شريف.

دلّغنا في سُرعة يتقدمنا نقيب وعسكريان وثلاثة مُمرضين أفسحوا
الطريق أمامي وسامح، لَمّا فرقوا الواقفين رأيتهُ مُلقى على الأرض،
متهم ينادونه «فوكس»، تتفص أطرافه وينهمر الدم من أنفه في غليان
إيريق يُقبِق، صرخ سامح في الموجودين بشكل مسرحي ليتعدوا
قبل أن ينحني عليه يتفحصه، ثوانٍ وأتى الممرضون بمناشف لسدّ
التزيف، بحثت بعيني عن شريف فوجدته جالسًا على طرف سريره
موليًا وجهه للنافذة في سلام!

حقنًا «فوكس» بمضادات التزيف ونقلناه إلى غرفة جانبية حتى
نوقف الفيض الأحمر بعدما ترك بقعة على الأرض ورائحة عروق
احترقت من الداخل، لَمّا استقرت الأمور سَحَبْتُ محسن في ركن
لأسأله عما حَدث.

- والله يا دكتور ما شفت.. فو كُس ده أصله زي الفرد ما ييقعدش..
غبت عنه دقيقتين لقيته مفرقرا

استعلا فو كُس وعيه بيشرة لون التراب وعينين زاتغتين.. اطمأن عليه
د. كيلاتي بنغسه قبل أن يسأله عما حدث، بصوت واهن أجاب:
- أنا قاعد لقيت القطعة على سرير الزفت شريف..

- قُطعة!! إيه اللي دخل قُطعة العنبر!!

سأل د. كيلاتي قبل أن يقذف المُمرّض محسن بنظرة أردته
«مخصوصاً منه الحوافز» مقدماً..

- من شباك الحمام المكسور، قُطعة غيّتها القسم بقى لها كام يوم،
أهي بتسلينا، يببس لها لقيت البعيد يخلق لي أوي أكتّه اشتراها،
باقول له إيه يا عمّ وأنا هاكُلها، فضل متّح لي بعنيه المفنجلة دي،
قمت ألقبه، أهو بتفضفض بدل ماحنا قاعدين، بأسأله الوشم اللي
على إيدته ده دَقّه فين، فضل متّح، بحط إيدي على ذراعه وعهد
الله باشوف «الدق» بس، قفش على إيدي وراح زاغلني في رقبي
وبعدين ما حتتش بروحي..

تابعت رقبته وهو يتكلّم، كانت محقنة كأن بابا قد انغلق
عليها..

- ورحمة أبويا ما هاسيبه..

- فو كُس.. لو قرّبت له هاحجزك في العزل مثكتف أنت وهو..

مفهوم.

قالها د. كيلاني بحزم ثم سحبنى وسامح خارج الغرفة ليلكزنا
بوعظ مدرسي في المسئولية، حاول سامح دفع التهمة عن نفسه
بكلمات وتفتة وعرق على الجبين، واكتفيت أنا بالصمت حتى تقياً
الرجل طاقته الإنشائية وطلب مني تحقيقاً مع شريف حول الواقعة،
عُوقِبَ المُمرضون بِخَصْمِ يَوْمين من الأجر لإهمالهم، وتم غلق
الثغرة في شبك الحمام بالأسمنت، ولم يُعثر للمقطعة على أثر!

اضطرت لإبعاد شريف مؤقتاً عن العير، غُرقة العزل بدت
مكثناً مناسباً حتى لا يعتدي عليه لفوكس، انتقاماً، غرفة ضيقة مبطنة
بالإسفنج والجلد مخصصة لحالات الهياج الشديد، لن تجد فيها
شيئاً لتؤذي به نفسك إذا نويت..

جلست في غرفتي أنتظر رسم المخ، خمس وأربعون دقيقة ثم
خَصَر مُمرض يَصحب شريف وتقريراً تحت إبطه، أجلس شريف
فيما فتحت التقرير الذي نفى وجود بؤرة صرعية لكنه أشار لزيادة
عامة في نشاط المخ لا تدخل في حيز الخطر..

خرج صرَع الفص الصلغي من التصفيات! وضاحت الغرفة على
شريف مترين إضافيين..

حين أنهيت قراءة التقرير ورفعت عيني لم أجد شريف على
كرسيه، كان واقفاً ظهره للحائط تحت الشباك يرمقني بابتسامة أراها
لأول مرة!

- ما تقعد يا شريف!

لم يستجب لندائي..

- شريف!!

نظرني ثواني ثم أجابني:

- شريف خرج.

- نعم!!

- خرج!

- مين اللي خرج؟

- شريف.

يدا شريف منبسطة بجانبه منفرجة الأصابع ووجهه مُسترخٍ..
ظاهرياً هو لا يكذب.

أمر عادي.. فقط هو ينفي وجود نفسه!!

- أمان أنت مين؟

- صديق.

- والصديق ده ليه اسم؟

- ممكن تنادينني.. نائل.

- نائل!!

رمقني بيقين وابتسم..

- أو كي.. يا نائل.

شريف يدفعني دفعاً إلى حائط خرماتي مليء بالمسامير.. اقتربت
منه.. سيّابته لم تكف عن الدوران كما لم يتوقف مُخّي أيضاً..

- أنت ثني كنت معانا دائما في الأوضة؟

هر رأسه في إيجاب ثم ابتسم وهو يسألني:

- نته بنحبها؟

- هي مين؟

- لُبنى؟

باغتني السؤال.. ثعرت رغم تحكّمي وأنا أتابع نشاط عينه..

- ما أنت عارف!! لُبنى زي اختي..

ابتسم بخبث:

- وكنت عاوز تتجوز اختك؟

- دي قصّة قديمة وانتهت..

- الكذب!

- أنا مش كذاب..

- دي كذبة.. مافيش بني آدم ما ييكذبش.. وبعد مدّة حتى الحقيقة

ببقى كذب!

بادلته الابتسام.. فأنا آخر من تقال له تلك الكلمات..

- ضربت فوقس ليه؟

- فيه ناس بتأذي نفسها بنفسها..

قالها ومال برأسه يتأملني كمن يتأمل سمكة زينة في حوض

زجاجي..

- كنت بتحب مراتك؟

شخص ما أثر عن تاريخي أمام نزيل! سأنتزع أحشاء الواشي
على انفراد حين أناكد من هويته.

لم أحب.. فأردف شريف:

- أنا وترتك؟

- أنت اتكلمت مع سامح؟

- كنت بتحبها؟

حاولت الحفاظ على هدوئي بصعوبة..

- أكيد..

- أكيد إمبراح.. جازب بكرة!!

- أنت اللي قتلت بسمه؟

- أجابيك.. بس بقواعد اللعبة.. سؤال قصاص سؤال.

- ماشي.. أنت اللي قتلت بسمه؟

لوى شفتيه بابتسامة:

- تقدر تقتل حد بتحبّه؟!

- دي مش إجابة.

- أنت هارف الإجابة بس مش هاوز تصدق.. بتدور على مخرج

لصاحبك.

- لو صاحبى قتل مش هاتردد اكتب في تقريرى إنه كذاب..

- ومستنى إيه ما هي باينة زي الشمس.. ولا عشان خاطر لبنى؟

- لبنى مالهاش دعوة بالموضوع..

- تنكر إنك ما نستهاش يوم واحد؟ تنكر إن هي اللي بوظت لك

جوازك وحياتك؟ تنكر إنك عاوز تثبت نفسك قدامها؟ توريلها إنك

أحسن واحد كنت يستحقها؟!

- ليه ما تقولش أساعدها؟

- مساعدة! بنسبة كام؟ أرجوك ما تقولش ١٠٠٪.

....

- لسة حلوة لبنى.. مش كده؟

الإجابة لم تكن متاحة سواء بالإيجاب أم بالرفض!

- مش ممكن تكون عينك فوتت صدرها وهي بتقعد.. ولا فخادها

وهي بتركب العربية.. ده جزء من الإعجاب بالأنثى.

قالها وهو يتابع انفعالي الذي جامدت في كتفه..

- مش أنا.. ومش مع لبنى يا شريف.. أنا لما كنت عاوز أختك

كنت ببص لها باحترام.

- ماحدش ببص لواحدة عاوزها باحترام.. لو ما كنتش جنبها

من فوق لتحت ما كانتش عجبك.. خمسين في المئة من نبتك لازم

نعبد النظر فيهم.

- أنا عارف نفسي كويس .

- انت ما تعرفش عدد الأسنان اللي في بقك؟

- اتنين وتلاتين .. مين اللي قتل بسمه؟

- صاحبك .

- وشريف يعمل كده ليه؟

- ومن الحب ما قتل ! قول لي .. الحادثة حصلت إزاي؟

- لم أستطع كتم انفعالي ..

- دي حاجة مش بتاعتك .

- دكتور النفس الصبح ما بيتنرفزش .

- لم أكن ملزماً بالرد لكني مُجبر على مُسايرته ..

- اللي حكي لك أكيد ما فوتش دي .

- التفاصيل .. أنا باعشق التفاصيل .

- حاولت التوقف عن هزة قدمي العصبية ..

- اتقلبيت بينا العربية .. أنا عشت .. وهما ماتوا .. قدر .

- قدر سرعته ١٦٠ .. الكحول يعمل المعجزات .

- الآن أدركت شعور آدم حين التقط ورق الجنة ليداري عورته ..

- يعني إيه؟

- ساعات الكحول يتكفل بحل مشاكل مالهاش حل .. ساعات

الكحول يبقى عامل زي القدر .. ما ينفعش تقول له لا .

- أنت مالكش تتكلم في الموضوع ده..

- ما تنكرش إن فيه حاجة جواك ارتاحت..

- مين اللي اتكلم معاك؟

- واحد حبيبك..

- سامع؟

• مال برأسه وابتسم معلنا أنه لن يفشي اسم الواشي، كذت أكسر
طرف ضرسي غيظًا قبل أن أسأله:

- كنت موجود يوم ما ماتت بسمة؟

- صاحبك كان معاها لآخر لحظة.. أسأله..

قالها ولانت فقرات عنقه دُفعة واحدة فسقط ذقنه على صدره..

- شريف! شريف!!

بيطء رفع رأسه.. نظر لي بعينين زائغتين كأنه يراني لأول مرة..

- شريف! مين اللي دايمًا معاك؟

نبّلت ملامحه إلى فراغ وأشاح بوجهه للحائط ثم أغمض عينيه.

- هو اللي قتل بسمة؟ سأله..

لم يجيني.. ظل شاركا لا يسمع حتى دخل محسن للمُمرض..

- دكتور كيلاتي علوزك في أوضه..

تركت له شريف مرتخي الأعصاب كمنديل ورقي مُستعمل،
اصطحبه لغرفة العزل التي أصررت أن يبقى فيها ليلة إضافية ثم
اتجهت لمكتب د. كيلاني.. في الطريقة المؤدية لغرفته وقبل أن
أطرق الباب استفزني سؤال شريف عن عدد أسناني الذي أعرفه،
تمشيت بلساني فوق الضروس والأسنان إحصاءً وتأكيذاً فوجدتهم
واحدة وثلاثين!

نسيت ضرس عقل وئد قبل أن يولدا!

طرفت الباب على د. كيلاني ودخلت، عُرفته مُزدحمة كما
تركها من خمس سنوات، شهاداته التقديرية تملأ الحوائط ومكتبه
العتيق مُكدّس بالدوسيهات والرجل يجلس مُلقياً بنظارتَه على أرنبة
أنفه المذهب.

- تعال يا يحيى.. أقعد.. لسة دكتورَة صفاء قافلة معايا بتسألني
عليك.. أخبار الرسالة إيه؟
- شغال.

ترك ما في يده وخلع نظارتَه ونظر في وجهي..
- أنت ما بدأتش إيه حكايتهك يا يحيى؟ أنا عارف إن موضوع
الحادثة...

- الموضوع ده انتهى يا دكتور.. صدقني انتهى.
- طب بركز عشان الحياة تمشي.. زمايلك سبقوك يا يحيى...
- إن شاء الله يا دكتور.

- يقول لك إيه.. بتفهم في الـ «ipad»؟

- نعم؟

- دكتور فوزي السيد نازل بكرة من قطر إجازة، وقلت له عاوز «Laptop»، قال لي أجيب لك الـ «ipad» أحسن.. بعدين دورت على النت لقيت فيه كذا نوع، وفيه برضه سامسونج عاملة...

كان عليّ أن أقاطعه..

- دكتور أنا ماليش في التكنولوجيا للأسف.. أنا مش عارف إيه الـ «ipad» ده أصلاً.

- إزاي يا يحيى.. ده شاشة كده قد الكفت وباللمس...

- أنا كنت عاوز آخذ رأي حضرتك في حالة شريف الكردي.

- حققت معاه؟

- هو ضرب فوئس فعلاً.. بس فوئس هو اللي بدأ يضايقه.. حضرتك عارف فوئس ده مشاغب شوية.. المهم إني وأنا باكلمه ظهرت عليه أعراض «MPD».

صَهَل الرجل بضحكة صاخبة أتبعها بسعال عنيف أدمع عينه..

- ازدواج!!

- ازدواج! إيه المشكلة!!

- المشكلة إن نص اللي بييجو ٨ غرب مش حافظين غيرها من الأفلام يا يحيى.. فيها إن الأبحاث بره دلوقتي نفت ازدواج الشخصية كنوع من أنواع المرض العقلي، ويضمونها تحت أنواع الهستيريا

النفسية باسم «Dissociative Identity Disorder»^(١) .. مرض نفسي ..
مش عقلي .. عارف ده يا دكتور ولا صديت من القعدة في البيت ؟
- عارف .. بس فيه في الكُتب حالات زي «شيرلي ميسون» و...
- آديك قلت في الكُتب .. كُتب من العشرينيات .. أنا ستة وعشرين
سنة في المستشفى ما شفتش حالة واحدة ..

- يمكن دي تكون أول حالة ؟

نزل الصبر من فوق أكثاف الرجل فأشعل سيجارة:

- أنا هامشي معاك واحدة واحدة .. احكي ..

دخل علينا الساعي بالقهوة قبل أن ابدأ، صَحَّخْتُ كافيني وبدأت
في سرد التفاصيل حتى آخر دقيقة بدون ذكر الجزء الخاص بلبني،
استمع لي بعينين مَرَّخَتَيْن مُسْتَخَفَّتَيْن وأنامله تنقر المكتب في رتابة
قبل أن يزفر زهقًا:

- يا يحيى ما تقولش الكلام ده قدام حدّ عشان ما يضحكش عليك ..
بُص .. مُود شريف بيعلا؛ بيتكلم عادي .. إنسان طبيعي .. موده بيتزل
يبرجع للأعراض بتاعته .. ده على فرض إنها أعراضه حقيقية أصلاً ..

- هو ما كانش بيتكلم عادي .. دي حتى مش شخصيته الحقيقية !

- وأنت شفت شخصيته الحقيقية فين ؟

العبث مع طيب نفسية أشبه بالعبث مع ثعبان أناكوندا ذي رأسين
وست أرجل ..

(١) اضطراب الهوية الانشقاقي ..

.. أقصد.. مش طبيعته زي ما شفته أول مرة.. فيه تحول..

.. دي حالة صابغة يا دكتور.. محتاجة وقت..

للأسف الرجل على حق، ازدواج الشخصية أصبح في مقام
أنثى العنقاء، سوق رائجة في أفلام الخيال، لكنها لا تطير في
سماء الدنيا!

من فوق نظارته رمقني:

.. دكتور «جيكمل» ومستر «هايد» بتاعك معاك، قلبه واقراه وشيل
موضوع الازدواج ده من دماغك، وهاشوفه لما أرجع من الإجازة،
لته عندنا خمسة وأربعين يوم، مش عاوز حاجة من طنطا؟

خرجت أخرج رج خلفي أفكاري المختلطة بتحليله المتماسك
وتخبطاً مفاجئاً لم أعهد، شهادتي المعجروحة في الصديق «السابق»
ترنح، تنهاوى، كما أن كلماته عن لبنى أثارت الاشتزاز في نفسي،
لصحتها! لست نبياً رغم يقيني، فقط نسيت، وأتناسى عمداً أنني
نسيت! لن أغافل نفسي، اشتهايني للبنى لم يكن أبداً أفلاطونياً، فكل
تفصيلة فيها لها عندي مرجع لم أتوقف يوماً عن مذاكرته..

ذلك الكي الذي يشوي صدرك حين تجوع لأنثى تذوقتها فقط
ولم تلتهمها..

شارداً سحبتني رجلاي لشارع «٩» بالمعادي، أمارس ضروريات
الـ «Single» المملة، قسط فيزا متأخر، استلام ملابس مَكْوِيَّة، ووجبة
سريعة مُهدرجة الزيوت قبل أن أتجه للبيت، استسلمت لدُش ساخن
وفتحت زجاجة «Meister» تكفي لتخليق منخفض قبل أن أرمي

بنفسي على الكنية أنأمل بقايا كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الذي وجدته خلف مكتبة شريف في شقته، وثبتت بين الصفحات أحاول استيعاب مضمون الكتاب، لم يكن سوى تاريخ وتفرغ للحوادث اليومية فترة ما قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، مروراً بعهد محمد علي! قلبت الصفحات حتى أوقفتني صفحة مليئة بخطرط أسفل السطور، كانت تتحدث عن باب زويلة والبيوت المحيطة به!! وضعت جانبا بعدما التقطت الرسوم الجنسية التي كانت محشورة بين صفحاته، تفسيري لرسم شريف مثل تلك الصور ووضعها خلف مكتبة حائط، يدخل في نطاق هوس جنسي يصل لحد الرغبة في التجويد، بحثا مُضنياً في مفاتيح أنثى لم تستسلم، طرقات على باب قلعتها بطرق سحرية تجبر الحراس الذين يحمونه على السقوط، أوضاع إعجازية تُحرك شجرة بجذورها، قلبت الصور حين فوجئت بصورة منها لم أكن قد لاحظت الشكل المرسوم فوقها بالقلم الرصاص، شكلاً عرفته! قمت مصعوقاً وقفزت في حوض سمكي الجاف أتقب عن الرسالة، اللعنة على أحواض السمك، حين ترمي فيها شيئاً لا تريده؛ تقابله يومياً، وحين تبحث عنه يوم تحتاجه يختبئ منك شهراً، أخرجت أحشاء الحوض الزجاجي حتى وجدت الورقة، فتحتها ووضعتها بجانب صفحة الكتاب... تطابق تام! صورة المربعات التسعة المحاطة بذراعي الشخص والعينين الصغيرتين في الرأس البيضاء!!

الرسم التي جاءتني في رسالة تحمل اسمي وعنواني منذ أيام!

هل أرسل شريف تلك الرسالة من سجنه؟

علامة استفهام كبيرة انضمت لأخواتها في جُمُعة ضاقت بهم..
قاطعت أفكار رنة تليفون برقم لُبنى، أخفيت الأوراق بين صفحات
الكتاب التاريخي كتلميذ إعدادي يُخفي مجلته الجنسية الأولى:
- معطلاك؟

- إزريك؟

- كويسة نسبيًا من ساعة ما قعدنا مع بعض.. إيه الأخبار؟

- مش عارف!

- فلقطني!

- الموضوع مُركّب شوية..

- أنت فين النهاردة؟

- نايب إداري في المستشفى..

- نايب؟

- يعني بايت نباتشية بالليل..

- لو جيت لك بنفع أشوف شريف؟

- تشوفيه لأ.. ممكن أحاول أخليكي تكلميه في التليفون..

- آجي لك الساعة كام؟

أعرف..

أعرف أن وقتًا كافيًا قد مرَّ لأنسى وأتناسى..

أعرف أن القصة تآكلت كفيلم هندي رخيص مدته أربع ساعات..

أعرف أن أفضل علاج للقلب مُعظم.. هو أن يتحطم مرة أخرى..

لصحت.. اكتب ما سأمليه عليك بلا ورقة ولا قلم:

هذه الخلق مُتبدل الإحساس جانح للوحدة، فائد للثقة بيمين حولي، ناهد للارتباط، مُتغير من المستولية تجاه أي شخص أو كائن «ولا استثناء للمبادئ»، كسول، يائس بلهجانية، أضحى كثيرًا بمن يُحاول فرائدي رغم ولعي بفراصة الآخرين، إعطائي للمعاد لو فعل حتى الفضة النخامية ولن يلمده علاج كيمائي، أفلحت من الكحول منذ شهرين، كانت تلك أسوأ نصف ساعة في حياتي الكئي على أي حال الحرب في حالتي فقط، حين أكون غطيًا، وحين لا أكون أقد الصبح أن الحاء ليس جهنًا كما ظننت، إلا يُضدًا المراسير أوقفت ثمارين البطن والجار جلبي في بناء فريعات العصباني التي شاهدها في فيلم

و ٣٠٠٠ إسبارطي، أكتفي بشفته حين أمر بانثى جميلة، كما اكتشفت
مؤخرًا أنني مُطرب سجع الصوت بنوح صمًا على فراق حبيبة رحلت
إلى حبيب أخلد...

ذلك أنا الآن، والسنوات العشر القادمة، إن لم أسقط في غيوبة
شكر أو ينقهر مُخي من بُخمة كحول..

مواجهة نفسي تبقيني حيًا، منذ طيرت من السيارة وطار طُحالي
وتضرر بنكرياسي حزنًا وأنا أسجل شفويًا تقريرًا نصف سنوي يُجسد
أحدث الصفات التي اكتسبتها، أو التصدت بي لباركتها، أو اكتشفتها
فسايرتها، قبل أن ألقي أمرها جانبًا ولا أحاول متابعتها، أذخر كرايب
حُزن ومَلل شرعي ويقايا كرامة هائلة ترفض حقيقة أنني حتمًا كنت
صاحب دور النذل في الفيلم الذي مثلته مع شريف، لن أنسى لحظة
الذروة التي شوق فيها الجمهور لما اكتشف هلاقتي بأخته من وراء
ظهرها قبل أن يُطلق علي الرصاص من مسدس صوت ويطردني من
الفيلم! وماذا أتوقع منها غير الانصياع لرأي أخيها.. وأنها وأبيها..
وصاحبنها.. وفيلتها التي تكريها!

سؤال:

هل نعرف ما الفرق بين حبيبة سابقة لم تظهر بها لأسباب تتعلق
بسلوكك وحبيبة أصبحت زوجتك؟

الإجابة:

لا فرق.. إنه عُشب الصفّة المتحابلة الذي سيبدو «دائمًا وأبدًا» أكثر
انحصارًا طالما لم تطأ قدمك..

إذا لم أستطع أن أكون قدوة حسنة.. فلاكن عفريتاً لحكايات
الأطفال!

قاطعت تقريرى الشخصى كشافات سيارتها الآتية من بعيد،
متأخرة نصف ساعة كعادتها، شعرها يهفو على وجهها ليزيده إثارة،
كعادتها، سلمت على وحبناها تأملان المكان في فضول، ذهوتها
إلى دكة تتوسط حديقة نحت عمود إنارة حتى لا تلعب الخيالات
بالزملاء المتحضرين، أما خيالاتي فساكنة أنا بها..

استوت أبني ولقت خصلة خلف أذنها:

- لو حد قال لي من ثلاث شهور إني هاقعد الساعة حدش بالليل
في مستشفى المجانين ما كتش هاضقة.

- إيشر عرفك إن هما اللي مجانين؟ ما يمكن إحنا ومش دريتين.

ابتسمت ونظرت في عيني لثواني ثم ابتسمت..

- ما اتغيرتش يا يحيى!

- بيتها لك.. اتغيرت كثير.. للأسوأ.

- تجربة زي اللي مرّت بك أكيد لازم تهزك.

- تشربي قهوة؟

نظرت للفراغ من حولها:

- هو فيه حدّ صاحي في المستشفى؟

- عندي سخان وحاجة ساعة في التلاجة.. فيه كمان عصير بتاع

العيانين.

- أنا كده كده مش قادرة.. فتحت تليفون شريف؟

حكيت لها ما رأيت في التليفون ثم مهدت لها الصدمة قبل أن
يتوزد وجهها وهي تتأمل الصور بخروج أسعر خفيها احمراراً..

- أنا مش قاهرة! الصور دي تعتبر دليل براءة.. ولا إدلة؟

- الاحتمالات فوق ما تتخيلي.

- لو قلنا إننا بنواجه شخصين.. ممكن تكون شخصية بتحب
بسمه والشخصية الثانية جكرها..

- حتى لو افترضنا إن فيه «Multiple Personality» وده احتمال
مالوش أي وزن في تقسيم اللجنة بالمناسبة لأنها مش معترقة به، لازم
يكون فيه سبب للكره اللي يوصله يقتل.

- أنت شليف إيه؟

سوالها كان أصعب من معادلة خوارزمية..

أخذت نفساً من السجارة استزاقاً لدقيقة استجمع فيها نفسي ثم
سلكت حلقاً حُشرت فيه الكلمات:

- خلينا منطقيين، بوعي أو بغير وعي مش هتقدر نهرب من إن
شريف قتل، ده بعد ما اعتدى عليها زي ما حكيتي لي وزيتي ما قال
تقرير الطب الشرعي، حتى لو عنده فصام اللجنة مش هتفي المسؤولية
عنه وقت الجريمة، خلينا نتفق على ده، مريض الفصام يبقى واعي يا
لبنى، كمان الصور وتعبيره فيها بتأكد إنه شخصية وراها كثير، شريف
بيستعرض، يستجّل لحظة انتصار، بسمه يا خلطت فيه، يا مع غيره،
ما فيش احتمال ثالث.

هل تعرف الجزار الذي غرز سكينه «غير المسنون» في رقبة
ذبيحته وأكمل كلامه؟

.. اللي زود الطين بلّة موضوع الشخصيتين .. ده هيجرجرنا ببساطة
لأعراض أفلام سينما.

.. اللجنة شاكّة في شريف!

.. اللجنة مهمتها تشك في شريف .. وتحلل .. بس كده كده تقريرها
استشاري مش مُلزم للقاضي .. أنتو المحامي اللي معاكو كويس؟

هل تعرف الجزار الذي ذبح ثم مسح العرق من على جبين ذبيحته
بمنديل ورقي؟

رمقتني بيأس رقرق حدقتها عتابًا على صراحتي الصادمة ..

.. المحامي كويس .. إيه أجمل نهاية ممكن تحصل؟ سألتني:

.. نلاقني إثبات على مرض عقلي مش نفسي ينفي مسئوليته.

.. بطلع عيان أحسن ما يتعلم.

.. هينحط في «الخانكة» لغاية ما يخف .. وممكن يُخرج.

.. وأموا حاجة؟

.. إن أخوكي يكون عنده سير مش ناوي يقوله .. رسوماته اللي

لقيتها ورا الدولاب خلّتي أفكر .. شريف ناقصه حاجة .. يمكن

موضوع الخِلفة .. يمكن أداؤه الجنسي ما كانش على المستوى!

ودي مشكلة الكل بيخاف بتكلم فيها! ووارد تكون بسمّة قالت كلام

مش المفروض تقوله لما اتأخر الحمل .. الموضوع ده يجرح أي

راجل.. حتى لو بالنظرة.. خصوصًا لو عنده عقدة معينة في الطفولة
ما كانتش ظاهرة.. وده خلاه يعمل اللي عمله في الصور ويسجله..
تعويض نفسي يساعده على الاتزان.. كل واحد فينا بيدور على نوع
من أنواع الاتزان.

- مش متخيلة إن اللي بتشكلم عنه ده شريف! شريف أكثر واحد
بيحب الناس ومش منطوي و...

- أنا عارف.. عارف.. بس كل حاجة واردة.. فيه حاجة كمان..
هو شريف كان يعرف مكاني قبل ما تحصل الحادثة؟

- شريف ما عرفش حاجة عنك من ساعة ما... آخر مرة يعني كنا
مع بعض..

- الجواب اللي جالي قبل ما أرجع المستشفى فيه نفس الرسم اللي
رسمه شريف ولقيناه ورا المكتبة.. والمتحف الإسلامي؟ القميص
اللي لابسه في الصورة! شريف كان غاوي أنتيكات؟ يشتري؟ كل
دي أسئلة ظهرت فجأة.

- مش عارفة.. ومش فاكدة إنه عمره اهتم بالأنتيكات أصلاً!!

سكنت لما التقطت أفكارى وخمنت أين تتجه بي..

- وأكيد مش هيكون سرقه؟

- أنا ما قلتش ده.. بس دي قصة ثانية مش قادر أفهمها.. صور
المتحف! هو في إيه ولا في إيه! وصوره مع بسمه في نفس الوقت
تقريبًا.. وصورته في المرايا من معلومات الصورة ساعة الحادثة
بالظبط.. شريف كان موجود يا لبنى.. ووسط اللي هو فيه ده بيتغزل

لي مرانه وبيصور منقلب ومصور نفسه في الحمام بفمهمس أثري ..
فشري لي أي حاجة لو نفدري ا

أغمضت عينيها حزناً ثم أردلت:

- هنودي الصور دي للمباحث؟

سوالها عن عدد شعر رأسي كان ليبدو أوقع .. طلّت منها نظرة
شك قرأتها إجبارياً ..

- أنا مش بانتقم من أخوكي عشان موقف مات وانتهى.

- أنا ما قلتش كده.

- قلنيه بعينيكي.

- أنت ما تعرفش حاجة عني.

- لسه أعرف أقرا عينيكي.

- عينيها اتغيرت يا يحيى.

- مافضل أعرفك أكثر ما أي حد تاني يعرفك يا بُنى .. غصب عني
وعنك .. أنت نسيتي إحنا كُنا إزاي؟! نسيتي يا بُنى؟

صمت الشجر بعدما سعلت الرياح واحتضر القمر، أشاحت
بوجهها بعيداً وارتعشت أناملها، سحبت دَمعة من أطراف رموشها
دفنتها في راحتها ثم رفعت رأسها للسماء وأغمضت عينيها، كان عليّ
أن أفعل شيئاً حيال الخنجر الذي غرّزته في كبدها ..

- الصُور هتفضل معايا .. لغاية ما نشوف هاعمل إيه .. لسة قدامنا
خمسة وأربعين يوم .. تعالي معايا.

ثمركزنا تحت الأشجار في سيارتها حتى اقربنا من ٨ هرب،
الغبني ساكن والحر من يعبدون في خشوع أمام تلفزيون يعرض
فيلمًا قديمًا ومروحة تنثر النسمات، طلبت منها الانتظار وترجلت
حتى عبرت البوابة المسلسلة، هترت على شحزض هالم على وجهه
ناص فطلببت منه استدعاء شريف، لما ذلف الأخير غرقتي أغلقت
الباب، جلس فأخرجت تلفونه من جيبي، رمقه بين أصابعي بتوتر
هرش من أجله رقبتة حتى كاد يُدعيها، فتحت صورته ووضعت
الشاشة المشروخة أمام عيني..

- عندي كلام كثير يا شريف عن الصورة دي.. بس بعدين.

طلبت رقم لبني وانتظرت حتى أتااني صوتها ثم ناولته التلفون،
نظر لي في صمت ولم تمتد يده، صوتها من السماعة ينادي اسمه
متلهفًا..

- أختك واقفة بره رُدّ عليها!!

نقل بصره بين المحمول وعيني قبل أن يمدّ يده إلى التلفون،
بيطء وضعه على أذنه، لم أسمع ما قالته لكن ملامحه ظلت جامدة
لا توحى بشيء، دقيقة وبدأ يجرّ أسنانه في عصبية، ما تبته أخته له
فعل نقاط مياه رنية تشرخ صخرة، شفتاه ارتعشتا بابتسامة راحة،
في تلك اللحظة وكعادته وبدون أن يقرع الباب دخل خيرة أطباء
النفس في العالم..

سامح زيدان!!

لم تكن نوبته ولا ميعاد عودته ولا كافتيرته المفضلة ولا مطقي
أصدقائه، فقط أتى في الوقت المناسب..

رَمَقَ التليفون في يد شريف قبل أن يُغلق الباب على ثلاثا
وَيَسْخَب كُرْسِيًّا أَصْدَرَ صَرِيرًا مُتَعَمِّدًا عَلَى الْأَرْضِيَّةِ وَهُوَ يَجْنِبُهُ
ثُمَّ جَلَسَ لِتَتَابَعِ الْمَشْهَدَ يَتَشَفَّى مَغْمُوسٌ فِي ابْتِرَازِهِ شَرِيفٌ يَسْمَعُ
لِكَلِمَاتِ أُخْتِهِ وَعَيْنَاهُ لَمْ تَعُدَا تَفَارِقَانِ سَامِيحَ، يَرْمُقُهُ بِابْتِسَامَةٍ تَسْبِيحُ
وَيَرِيقُ فِي عَيْنَيْهِ يَزْدَادُ تَأَلُّفًا، ثَوَانٍ وَأَنْزَلَ التليفون من فوق أذنه وصوت
لُبْنَى مَا زَالَ يَتَحَدَّثُ، كَانَ عَلَيَّ إِرْجَاعُ شَرِيفَ لِعَرَفَتِهِ تَقْلِيلًا لِلْخَسَائِرِ
قَبْلَ أَنْ يَفْرُشَ سَامِيحَ مَلَأَتْهُ اللَّفْ، دَمَسَتْ التليفون في جيبِي ثُمَّ
فَتَحْتُ الْبَابَ وَخَرَجْتُ أَنَادِي مُرَضًّا لِيَصْحَبَ شَرِيفَ حَتَّى غُرْفَةِ
الْعَزْلِ، أَيْنَ ذَهَبَ اللَّعِينُ؟

.. أنت يا متخلف إيه اللي بتعمله ده؟

ذلك لم يكن أنا، صوت سامح صدح في الغرفة بالشتيمة، رجعت
وكان ذلك ما رأيته، سامح واقف وظهره للمحائط في مواجهة شريف
الذي فتح زر بتطلونه وسقى باستمتاع قدمي سامح بولًا ساخنًا،
جَلَبَتِ شَرِيفَ مُحَاوَلًا تَجَنُّبَ تَأْفُورَتِهِ، مُسْتَمْتَعًا بِمَظْهَرِ سَامِيحَ وَهُوَ
يَقْفُزُ مُتَجَنِّبًا الْفَيْضَ الْأَصْفَرَ حِينَ دَخَلَ الْمُرَضُّ وَجَذِبَ شَرِيفَ،
خَرَجَ مَعَهُ وَرَمَى سَامِيحَ بِابْتِسَامَةٍ، لَهَا لَمَاعَةٌ كَانَ شَرِيفَ مُبْتَكِرًا!! مَنَكَّبَ
سَامِيحَ عَلَى قَلَمِيهِ زَجَاجَةٌ مِيَاهُ وَهُوَ يَبْعَثُ الْوَعِيدَ وَالسَّبَابَ بِصَوْتٍ عَالٍ
لِيَسْتَفْزِنِي قَبْلَ أَنْ أَجْلِسَ فِي مُوَاجَهَتِهِ وَرَائِحَةُ الْبُولِ تَفُوحُ مِنْهُ..

سامح في المُعْجَم:

شورية الخضار المضروبة في الخلاط.. بلا ملح..

.. «Fake» .. باين أوي إنه «Fake» .. بس مش هيشغلني .. يشتغل
أي حد إلا سامح زيدان .. جالي زيه هنا ميت واحد سابكيتها أحسن

منه.. ومن أول قعدة يخفقوا.. ولا مرة خيبت معانيها.. ولا مرة.. من
بكورة هاتقتم تقرير اسلم فيه حالته.. يا لانا يا هو.. لانا...
- فضر يا سامح.

- انت طبعًا رجعت المستشفى هلشاته؟

- ما تلخبطش في الكلام.. ذكرورة صفاء نزلتني ٨ غرب صديقة..
انا ما كتش جاي غير لما الشئون القانونية بحت.

- كان فيه مكان في قسم «سابع حريم» ورفضته.. صديقة! وزميلك
في الدفعة اللي مش صاحبك وتستلم حالته.. صديقة.. والعريبة اللي
واقفة برة ٨ غرب فيها وزة بتكلم اليه في التليفون.. صديقة برضه؟
اعطيته صمني ليفرغ ما في جوفه ويستمتع بوضعي تحت خمره..

مقطع من كتاب «لذة الفيل في استزاف الزميل الفصيل»..

تعريف «استزاف الزميل الفصيل»: هي اللحظة التي تترك فيها
خصمك ليطلق هرمون ذكوره في عروقه ليتشهي كطاووس في
موسم التزاوج..

وتتميز تلك اللحظة بأربعة أعراض:

اتساع بؤبؤ العين..

تطاير اللعاب من الفم..

شماتة مفرطة تطل من العينين..

وضع الجلوس يتخذ شكلًا هجوميًا متحفزًا يبداء على فخذيه
الملتصقتين..

بحماس اخذ سامح يلوك العظمة التي انتزعها من ضلعي بعد
غناء، ورقم لبني أثناء هرائه يُضيء شاشتي فأغلق الخط في وجهها
انتظاراً للسمج الهلامي علّه ينهي ابتزازه بلا مقدمات مملة، إيقاعه
متوהל ككروشه حتى حين يتفعل! أنظر إليه وكلماته تخفت في أذني
مقارنة بصوت أفكاري الذي يدوي لإيجاد حل معه، كان ذلك حين
طرح السؤال نفسه: «كيف وصلنا لتلك النقطة؟».

الإجابة: الفتاة التي ظنّ يوماً أنها تنظر له ولم تكن..

ترمين! زميلتنا في المستشفى، وزوجتي الراحلة، الفتاة التي خطب
ودها من قبلي ولم ترص به لأنني كنت أجول في قلبها وكان هو
جوال بطاطا، تلك الشفاقة الرقيقة التي تُراملك في العمل فتحصل
على نصيب الأسد من نظراتك طوال النهار حتى تُصبح «عنوة» فتاة
أحلامك، ذلك الضغط الذي يحولها إلى أجمل كائن على وجه
الأرض بعد أن يُخفي به التشبع والتعود كل اختلاف بينكما، أنت
لن تقاوم جمالها المتنامي يوماً بعد يوم، لن تقاوم اختلاصك النظرات
لكل تفصيلة فيها خاصة تلمس يدها في السلام الصباحي، كما لن
تقاوم المثالية في الارتباط بها، كل ذلك يبدو منطقيًا حتى تبدأ الحياة
الحقيقية..

هنا تسبح حذقة عينيك بغتة!

من هذه «السيدة» التي تُجاورني على الوسادة؟

أنت لن تعرف كيف تزوجتها، كيف حملت في طفلك، كما لن
تعرف كيف تحولت تدريجيًا إلى جزء «متميز» من أثاث البيت!
بيتنا الذي لم يكن في حاجة لزلزال بذلك الحجم لتسقط حوائطه

الهشة، فعند سَنتنا الأولى أدركت نرmin أن قلبي يحمل نكهة أنثى
أخرى، بقعة لم يصلح معها مسحوق ولا جاز أو حتى تتر ليزيلها،
كما أن ماسورة الكحول التي كُنت قد أغلقتها من أجلها ما لبثت أن
ضعفت قبل أن تنكسر «عمدًا» بسبب بُعد عالمينا! كان ذلك بعد
فوات الأوان، فابتنا نور كانت في شهرها الثالث! سرنا بقوة الدفع
نترف الحياة تحت أرجلنا، ندهسها ولا نترك فيها علامات، ازدادت
المسافات بُعدًا واتساعًا حتى بثّ أحتاج نظارة مقرّية لأراها، أطول
مُحادثة بيننا لم تتعد ثلاث جُمَل قبل أن تتحول لتراشق بالنظرات يليه
إفلام مسرحي تنويري، لم أكرهها يومًا، هي فقط.. أصبحت...!!
أصبحت درس حساب المثلثات اليومي من مُدرّس أكرهه، مُدرّس
مُمل فاقده للإيقاع، صوته مزعج وواجباته ثقيلة، ستان من الرّثابة
والتّأخر والتّفور حتّى جاء يوم وسافرنا، علّ هواء البحر يتكفّل
بتبريد الاحتكاك قليلًا، يومها تعاركنا، وما الجديد! فالزواج نصف
الكفر! آخر ما أذكره كان رائحة كحول في فمي وعداد سرعة يشير
إلى ١٦٠ كم/س على طريق وادي النظرون ثم إطار سيارة يتفجر،
لا أذكر أنّي اتخذت ردّة فعل، لا أذكر حتّى مُحاولتي السيطرة على
المقود، فقط طرنا إلى السماء جميعًا نلوى كراقصة باليه تستعرض،
لأنزل بعد ذلك.. وحدي..

لم أفهم!! وربما لم أرد أن أفهم وقتها، فقط المشهد لا يُمحى
من رأسي، أراه الآن كأنه يحدث، مشهد بلا موسيقى، فقط صوت
طنين نحل وّتيب يَدغدغُ أذني! صحوت في عرض الطريق غير
المأهول، كان الوقت غروبًا والريح ساخنة تنفخ الرّمال في وجهي،
تأملت عظمة كاجلي التي خرجت عن مسارها بلا ألم، ستطلق
...

بعد تلك اللحظة إلى الأبد، أنظر للخمى الأبيض كلحوم الطير هاربة
منه الدماء، مخضوض، وشريحة زجاج تخرق أسفل رثتي اليسرى
عرفت بعد ذلك أنها لم تكن تقصدني، ظلمتها، كانت في الأصل
تستهدف طُحَالاً. على بُعد أمتار كانت ابنتي على الأسفلت نائمة في
هدوء، تغط في ملكوت أعلى، جذاؤها الأيسر مفقود ورأسها يستند
على بركة دماء لا تتوقف عن الاتساع رغم زرقة الموت التي علت
شفتيها، فقدت الإحساس بالآمي دفعة واحدة، سليم مُعافى هرعت
إليها زحفًا، لامست أنفها وشفتيها، لا شيء! وضعت يدي على
قلبها، لم يكن هناك أحد، داعبت ضلوعها لتضحك، هزرتها كأنها
ستستجيب للإحاحي قبل أن يدهمني بكاء لم يدهمني من قبل، سألت
دموعي واختلطت بمُخاطي ودمائي، سجدت بعجبيتي على الأسفلت
أبتهل، أناديه وأعرف أنني لم أصالحه يومًا، أتأملها ولا أكاد أتصور
أنها رحلت بتلك البساطة، بدون أن تقبل خدي كما كانت تفعل،
بدون أن تختبئ مني خلف حوض السمك! لم يتزعني منها سوى
صوت نرمين تين، راقدة في السيارة المعجونة على جانب الطريق،
لما اقتربت كانت الروح تنسل من بين شفتيها دخانًا، أكاد أراها،
ثَغيب، تَلْلاشي، تابعت عينيها تنقلب وسبابتها ترتعش: ما تسييينيش!
خرجت يومها من قلبي، فقط تلك المرة كنت أعنيها بحق، أمسكت
بدها للحظات حتى توقفت الرعدة..

تلك كانت أول مرة أموت..

القيت ظهري على الرمال ورمقت الشفق ينحسر.. حلّ السلام..
لا كُره.. لا حُب.. لا شيء.. فقط الخواء والفناء والعدم.. ثم سقط
الليل فوق في لحظة..

من يومها تركت الدنيا كما تركتها ابنتي، وزوجتي التي كان سامح
دائمًا وأبدًا من مُريديها، ومُسَبِّحي الأرض تحت قدميها، وكبير
«مُستخسريها» في شخصي، بعدما طلب وذهبا قبلي مرتين ورفضت
لمنطقية رفض مثل ذلك الكيان السمج..

سطران آخران وسأبدأ في التعاطف معه..

لما خرجت عن شرودي كان قد تقيًا كثيرًا من كلامه، أفقت
في جُملة:

- وأمانة الصّحة لو عرفت إن فيه علاقة بين المتهم والدكتور...

قاطعته:

- أنت ليه بتكلم أكني اللي باحدد إذا كان بريء ولا لا! الرأي
رأي اللجنة.

- الكلام ده تقوله لدكتورة صفاء.. أنا الوحيد اللي عارف أنت
هناليه.

- إيه شغل ابتدائي اللي أنت بتعمله ده!

- ابتدائي!! أنت لسه ما شفتش شغل ابتدائي.

- مش ناوي تَبَطِّل غِل.

ارتفعت نبرة صوته رغبة في إيقاظ شهود..

- غِل! أنت مدخل تليفون لمتهم يا دكتور في ٨ غرب وبتقول

لي غِل!! إيه يا دكتور وور ما تفوق.

قررت قلب المنفصلة في وجهه اختصاراً لعجيب الفلاحة الذي
لا يجيد خبزه، اقتربت منه وهمست:

- مش ناوي تنسى في يوم أنها كانت مراتي هه؟ مش قادر تخيل
أنها حبتني أنا؟ ومش قادر تخيل إنك اترفضت؟
- أنا مش فاهم حبتك على إيه؟

- أنا اللي مش فاهم كنت عاوزها نحبك أنت على إيه!!
- العيب مش عليك.. العيب عليها.. مش فاهم إزاي مشيت ورا
واحد زيك!!

- اسألها؟

- لا.. أنا هاسأل بتتك.

تقطع آخر من كتاب «لذة القيل في استنزاف الزميل الفصيل»..
«.. هناك شخص نعي تماماً أنه - بلا جدال - سيمزقك غلاً بعد
طعنك، ثم يضع في زهو بصمات كفه ملطخة بدمائك على حائط
بطولاته، ولن يكتفي حتى يسلخك حياً بسكين خشبي قبل أن يفرش
جلدك على الأرض سجادة لضيقه، سيضع نابك فخراً في سلسلة
على صدره ويصنع من جمجمتك منفضة لسجائره»..

لِمَ تعطيه فرصة الاستمتاع بكل تلك الـ «Options» مجاناً؟

لم لا تغلق عينيه ببصقتك أو تعجر في حلقه نعل حذائك؟

مع حرف الكاف في آخر كلمة «بتتك» عانقت قبضتي أنف سامح
بزائوة صاعدة، زلزلت اتزانها، أصدر نكرة عظيمة قبل أن يلقي أرضاً

بمائة وخمسة عشر كيلوجرامًا نصفهم دهون، استقر بين قلبي وقد
تغير شعره ونسي اسمه لثوانٍ كانت كافية كي أغير فوقيه..

هل تعرف الجزار الذي ترك السكين في رقبة ضحيته وهي ترفس
الهواء ورحل؟

خرجت للرافلة في سيارتها أدلك عظام قبضتي من أنف سامح
الذي لكمها..

- وشك يقول إنني عملت مشكلة!

- اطلعي.. نتكلم بعيد عن هنا.

انزلت في الكرسي بجانب أبنى وابتعدنا عن المستشفى، أوقفناها
قرب «درينكيز» فرع هليوبوليس ودخلت أستجدي علبة بيرة أستبدل
بها دمي الذي غلى وتبخّر، تجرّعتها في المحل في رفعة واحدة وسط
دهشة الباعة والزبائن قبل أن أعود إليها، جلست وأشعلت سيجارة
هي الأمتع منذ الصباح، قبل يصفها قاطعت صمتي بفضول الأثني
لتسأل عما حدث، حكيت لها ما تقيأه سامح قبل أن يلکم قبضتي،
وجمت وعلامات تعجب كبيرة تزحم المسافة بيننا، وجهها الجائع
لاستكمال الصورة اضطرّني للرجوع بذاكرتي خمس سنوات لأحكي
قصتي واستمعت هي بإنصات..

- أنت فعلاً كنت...؟

- كنت شارب «Jack» زفت «Daniel's» وسابق على ١٦٠..
وباتخاقي معها.

الذهشة والاستنكار تقابلا في وجهها.. ولا أعرف لِمَ أصررت
على إكمال ما بدأت!

- كنت ناوي أقضي عمري كُلّه معاها عشان خاطر نور رغم إن
ما كانش فيه أي أرض نتكلم عليها.. غلطة.. والمفروض أعيش
وأواجه إنني كنت السبب في موتها.. وموت بتي.

- ليه؟ ليه وصلتوا لكده؟

- ليه؟ سؤال صعب ليه ده!

حاولت التزام الصمت الذي أجيدّه، بيتي القديم الذي جاهدت
منذ سنين في ترميم أحجاره كي لا ينهار، حتى إنني نكسته ودمست
بين ضلوعه القوائم الخشبية وطردت مكانه، ما عدا أنا، وها أنا أسمع
صوت الطقطقات، وأرى التراب يتسرب من السقف فوق رأسي، ثم
حدث الانفجار..

- ليه ضمتني من ليدّي قبل كده؟ ليه شريف رفضني لَمّا اتقدّمت
لك؟ فاكدة ليه؟ عشان صمّنت أنا وهو مع بعض.. شربنا وحششنا
وعاكسنا مع بعض.. عشان حبيتك من وراءه؟ مشيت معاك في زي
ما قال.. فاكدة عمل إيه لَمّا عرف؟ قطع عني المية والنور.. بهدنة
هو عنده حق.. الصحويّة حاجة والنسب حاجة ثانية.. أنا لو شريف
ما كتش جوزتني أختي.

سكتت وتركت صمتها يتكلم بعدما ألقيت ما في قلبي بلا إنذار،
كلامي يرميها كأن أشبه بالصفة الأساسية في النبؤ اللاإرادي..

لا إرادي!!

ظللتنا على تلك الحالة دقائق حتى رميت حَجْرًا في الماء الراكد
ليخرج التماسح ويأكلني:

- أنا آسف.. مش عارف إيه اللي خلّاني...

قاطعتني:

- ما حَبَّتْهاش؟

- حَبَّتْها.. زي مراتي.

- ما فكّرتش تربط ثاني؟

- أنا معاها ما قدرتش أنساكي يوم.. مش هاكرر غلطتي ثاني.

حان وقت التورّد واضطراب الملامح، كلماتي جعلتها تسحب
سيجارة من علبتها، مرّت دقيقة لعنت فيها نفسي عشر مرّات وركلت
حَجْرًا في روعي لتورّم..

حصيلة يومين فقط بالمستشفى:

حققت مع صديق عُمُر أصبح متهمًا، طاردني كلب أسود في
أحلامي وخارجها، لكمت زميلًا سويجًا كان يستحق اللكم على أي
حال، وفتحت ثابوئًا ترقد فيه قصّة حُبّ ماتت من عشر سنين..

- ولا أنا نسيتك!

استدركتني في اللحظة التي أوشكت فيها على ركل بحصوتي
إنهاء لمستقبلي..

- أنا عشت فترة زي الزفت على ما قدرت أصدق إنك انخضيت
من حياتي، انتحرت مرّة ولحقوني بالعافية، وما سامحتش شريف

ولا ماما علي اللي حصل لغاية النهاردة، ولا سامحتك، فيه لحظات
كنت حاسة إنني لو شفتك كنت هاضربك بالقلم.. أنا.. أنا..

اختنق صوتها قبل أن تتمالك نفسها.

- إوعى تفكر إنك لو حدك اللي تألمت.. بس أنت مش عارف
يعني إيه بنت يبقى عندها تسعة وعشرين سنة في البلد دي.. لما كل
اللي حوالبك فجأة يصوا لك أكنك عار ولازم يدفن.. جحيم.
- تخيلي أنا لسه باحبك..

ابتلعت ريقها واختلجت عيناها فأدركت مدى سخاقتي.. أنا
المحامي الذي ما زال يترافع في قضية تلقى موكله فيها الإعدام
ونُقذ الحكم فيه منذ أعوام.. انتابتنى رغبة عارمة في الحصول على
كأس شيفاز!

وجهها وكلمة «أننى متزوجة» على ظهر بطاقةها الشخصية لن
يتحملا ما وسوست به نفسي تجاهها، قاومت رغبة عارمة في لمس
يدها، أغمضت عيني وعددت من عشرة إلى واحد بالمقلوب.. ولم
أصل للواحد..

- أنا لازم أرجع المستشفى عشان أشوف المصيبة اللي هناك.

- ورطتك؟

- كده كده كنت هاضرب سامح في يوم من الأيام.. أشوفك
على خير.

تركها وابتعدت مُحاوِلاً تناسي ما قلت.. «أنا لسه باحبك»..

بالسخافة المراهقين ذوي حبّ الشباب والشنب الخفيف.. وللعجب
فلمست رومانسيًا.. هكذا قالت مايا ومن قبلها زوجتي.. لكن إذا كانت
في روعي فُجوة بحجم نيزك عملاق..
فاسمها أُننى..

حين وصلت « ٨ غرب » علمت أن سامح قد غادر وأنفه تنزف بدون أن يلفظ كلمة، ألقيت نظرة على شريف الراقد على جنبه نائمًا في آخر العنبر، لا أعرف إن كنت سأظل عوثًا له أم سأجبر على تركه يواجه مصيره بعدما فلتت أعصابي، أعرف نفسي، أو هكذا أظن! لن أتحمّل سخافات سامح ثانية، سأقدم استقالتي قبل أن تنفّوه صفاء بكلمة عن وجهه الذي لكم يدي..

مررت على « اللورد » قبل البيت؛ محلّ خمور صغير يملك صاحبه مُعجزات من الحياة في ثلاثته، التقطت منه زجاجة « Jack Daniel's » ستحتسني للنصف قبل أن أشعر بالارتفاع، تحليق قريب من الأرض لن يلتقطه رادار..

حين وصلت البيت غسلت كوبًا زجاجيًا طويلًا واستخرجت مكعبات ثلج حتى امتلأ حوض الاستحمام، استلقيت في المياه وعلى يميني تبغي، كحول، تليفوني، ومشغل أسطوانات عتيق يحتضن كل أغنيات فريق « Doors »، يقتلني « جيم موريسون » في رائحته « Break on through to the other side »، ضغطت زر التشغيل وأغمضت عيني واسترخيت..

You know the day destroys the night

Night divides the day

Tried to run

Tried to hide

Break on through to the other side

لا أعرف كم ساعة مرّت..

ضوء الشمس كان يتخلّل زُجاج الحمام حين سمعت نغمة التليفون
المَكْنُومَة، جلست نصف جلسة مُحاولاً تحديد اتجاه الصوت إن كان
داخل شقتي أم من الشارع، قُمت ولم أجد منشقة فسقيت الأرض
بمائي حتّى الصّالة، الانبعاث كان من الكنبَة المُلقى عليها بنظلوّني،
تذكّرت تليفون شريف، مسحّت يدي المَبْلُولة والتقطت من الجيب،
الرقم على الشاشة المَشْرُوخَة لم يظهر، تردّدت لشوانٍ كانت كافية
ليخلق المتّصل الخط مللاً، تنهّدت ووضعت التليفون على المنضدة،
ما إن استدرت حتّى رن الجرس ثانية! حسمت أمري وضغطت زر
الرد..

- ألو.. ألو!

لم أتلّق إجابة.. فقط صوت أشبه بدوران ريح في إناء أجوف،
أغلقت الخط واتّجهت للغرفة أبحث عن فوطة، فتحت الدولاب
أستجدي واحدة حين رنّ الجرس ثالثة، أين الفوطة اللعينة؟! ارتديت
'بوكسر' على بللي ثم التقطت التليفون:

- ألو!

- ألو.. و... شر... ي...

الصوت معدني مُقطع صَادر من منطقة تغطيتها ضعيفة، أو أن
المعيب في تليفون شريف المتهالك، اقتربت من النافذة لئتماسك
الإرسال:

- مين معايا؟

- نسبت صوتي!

- أنا مش شريف.. ده تليفونه.. أنا...

- أنا عارف إنك مش شريف.

- مين اللي يتكلم؟

- شفت بسمة كانت جميلة إزاي في الصور مع صاحبك؟

لا يعرف بأمر تلك الصور غير لبنى! أوريما زوجها الآن بخاوية
الانتقال الحراري.

- مين معايا؟!

- مش ممكن تكون نسبت صورها.. ما تتسبش.. (Goddess)

زي لغروبيت.. ما اتعملتش قبل كده.

- أنا مش عارف أنت بتكلم عن إيه؟

- دي كذبة!

- أنا ما ياكذبش..

- قلت لك.. ماقيش بني آدم ما يكذبش!

الإجابة جعلتني أنفض.. من أين حصل على تليفون؟

- شريف !! أنت بتكلم منين ؟

- برضه شريف ! أنت ليه مش قادر تفهم ؟!

- أفهم إيه ؟ إنك عاوز تتحرر ، نفسك على إيدي !!

- انت مش عاوز تريحه ؟

- ده إحساس بالذنب ؟

- من قتل يقتل .

- وما فكرتش تقتله أنت ليه ؟

- أقتعته مرة في الحمام .. واتلحق .. بس فين المتعة في ده ! أنا
عاوزه يعملها بإيده .

- بسمة عملت إيه عشان تموت ؟

- حبتي .. خلصها مني ...

- شريف ...

صَـرَـخَ فِيَّ بِصَوْتِ خَرَقِ طَبْلَةِ أَذْنِي ..

- أنا مش شريف ..

صفعة من الصمت لطمتني قبل أن يردف بهلوه :

- ومش صعب أقنعك .

اتغلق الخطأ !! قفزت في ملابسي ثم في تاكسي لقطني أمام
المستشفى ، ركضت حتى ابتلعت لساني ، حين وصلت ٨ غرب
كان الهدوء مُسيطرًا ، ضابطا الشرطة على مكبيهما يجتران ملأً ،

المرضى يجرلون في رقابة نحللات غفالة، والأطباء يسكنون
حجر الهم في محضوع الرهبان، أسرعت الخطا إلى العنبر حتى حصلت
على زاوية تكشف النزلاء، تجلت بنظري وسطهم أبحث، شريف غير
موجودا سألت مُمرّتها فأنهتني أنه لا بد لي الحمام، طلبت منه
فتح العنبر ومصاحبتي مع عسكري إلى الداخل، اصططكت مفاتيحه
وأستاتي قبل أن نخوض وسط النزلاء لنصل الحمام، حار رطب
رائحة نفحة من التحميم، كل الستائر الزرقاء مكشوفة هذا واحدة،
اقتربت منها وناديت شريف فلم يجيب، ناديت مرة أخرى ولم يجيب
فتوتر العسكري وهمّ بكشف الستارة ففرمته بيدي حين سمعت
سعال شريف..

- شريف.. أنت كويس؟

تركتي ثواني قبل أن يجيب:

- كويس.

- الحمد لله.

صرفت المريض والعسكري بهزة رأس مطمئنة واقتربت من
الستارة:

- خلص عشان عاوزك.

- قابلت ليني؟

- ومش هاتخيل حالتها النفسية عاملة إزاي.

- جوز ليني أكبر منها باتناشر سنة.

-...!

- عظمة كبيرة.. أفكار مختلفة.. وشعوب.. مش قد الموتور
اللي تحت إيداه.

ذلك لم يكن شريف..

حاولت العثور على رة لكني فشلت حين أردت:

- تفنكر لو مات لبني متعيش إزاي؟ ما تخيلتش؟

- ما تخيلتش.. وما أتمناهاش ده!

- التفاحة المُستعملة ريحتها مُختلفة.. زي ريحة النيت المعش..

فيها لسة كده.. وصحّي النيت.. يقولوا كلس في الشهر يغني عن
المرض.. يظهر الكبد.

- كفاية يا شريف.

- الخيال مش عيب يا دكتور.. العيب إنك تخيه.. وتطلّعه

لما تشرب بس.. مش جراءة دي! عارف.. لو رجع الزمن بروضه
ما أجوزكش منها.

- ليه؟

- ما كنتش هتشتاقلها زي دلوقتي.. كان زمانها بقت زي مراتك..

مُملة وسخيفة..

- لبني طلعت من دماغي يا شريف.

- أراهن إنك في وقت فراغك بتخيلها في السرير..

- كفاية يا شريف.

- الحياة مش مضمونة يا صديقي .. لازم نطلب الحلو قبل الأكل احتياطي.

- قلت لك لبنى طيلعت من دماغي خلاص يا شريف.

- تعالى نقول نفس الكلام ده بعد كاسين شيفاز .. لسه بتحب الشيفاز مش كده؟

قالها وضحك، ضحك كما لم أسمعه يضحك من قبل، ثم صمت، انتظرت له ليُفرغ «نداء طبيعته» مُتحملاً رائحة كريهة رطبة نافست إبط إبليس، دقائق من الملل جعلتني أستعجله، ناديتَه مَرَّتَيْنِ فلم يجب، هممت بجذب الستارة حين عَبَّرَ المذَّ الأحمر من تحتها، مَوْجَة لَزْجَة لامعة رأيت فيها انعكاس لمبات السَّقْفِ ووجهي، تَوَسَّعت بثقة حتى لامست نعل حذائي، وَدَّ فعلِي تأخر ثانيتين لأستوعب المشهد، أفقت فجذبت الستارة، شريف كان جالساً بجانب العِرْ حاض عَارِياً، شاحباً كبطل قيلم أبيض وأسود ورأسه مُطَاطاً فوق صدره، فارحاً ساقيه في زاوية واسعة والدماء تدفق من مُلتقاهما في بُضْ مستظم يُفرغ بثرته سَاحِخاً على البلاط!!

ركضنا به إلى مُستشفى عين شمس التخصصي وباطن يدي يعتصر الجرح المُتفجّر، وَضَعْنَاهُ على طاولة وشرعنا في إقناع نزيهه المُنهجر بالتوقف، آخر ما لمحتَه قبل أن يبدأ البنج عمله كانت عينيه، رغم الذبول والاختلاج كان يرمقني ..

بسخرية!!

لن أحكي عن صوتي الذي راح صريخاً في الممرّضين والزملاء،
ولا عن مَلابسي التي خُصِّبت بدمائه، ولا عن كتفي الذي مُلِخ وأنا
أجاهد في حمله..

لن أحكي عن الوشم المُمتد حتّى أعضائه التناسلية كشجر
اللبلاب، ولا عن شَبقي لكأس ويسكي مثلج، ولا عن بقايا دمائه
التي لم أستطع إزالتها من تحت أظافري..

تقرير المستشفى كان نزيهاً حاداً نتيجة قطع في الشريان الفخذي
ثم باستعمال آلة حادة، مُحاولَة انتحار كادت تنجح لولا هزاله الذي
جفّف فخذه فسَهّل على الجراح العثور على الشريان الغاطس وغلق
القطع فيه! غيَّوه بعدها صناعياً ولم أرحل إلا حين استقرت معدلاته
الحيوية، رجعت بعدها ٨ غرب وطلبت فِنطاس قهوة، حمله لي
محسن الممرّض حين أمرته بغلاق الباب وسأله:

- محسن من غير لف ولا دوران أنت عارفني ما باحبش أشم
الكذب في حدّ باعزّه.. شريف اتكلّم معاك عني؟ حكيت له حاجة
يعني عن... الحادثة؟

- أنا! أنا يا دكتور! هو أنا تلميذ.. طب وعهد الله...

قاطعت أيمانه:

- مين اللي اتكلم معاه غيرك؟ ما هو لازم حدّ قال له.. أمال هيعرف مين!!

- يا دكتور شريف ده من ساعة ما جه وهو أخرس.. المرة الوحيدة اللي عمل حاجة كانت لما ضرب فوكس.. خلاف كله قاعد لوحده على طول..

- سامح ما كلمهوش في النباتية؟

- ما شفتش.. يمكن..

- مين اللي دخل تليفون لشريف في العنبر النهاردة الصبح؟

- تليفون!!! إزاي يا دكتور أنت عارف إن ده ما يحصلش.. العسكري قاعد على الباب م الصبح اسأله.. ما حدش دخل والكعبة الشريفة..

- سامح كان فين؟

- كان موجود بس ما دخلش..

- شريف كلمني الصبح قبل ما يعور نفسه يا محسن.. أنا لو ما عرفتش مين اللي دخل له التليفون هاجيب جزا للقسم كله.. روح عسّ لي وظبط واعرف لي.. مفهوم؟

قاطعتني جرس التليفون برقم صفاء المُديرة، استدعتني بثلاث كلمات مقتضبة إلى مكتبها، صرفت مُحسن ودفنت سيجارتي في تنوة قهوة مُتبقيّة في الكوب قبل أن أتخذ طريقي لمبنى الإدارة، أشحذ في رأسي كلمات «قرن غزال» سأغرزها بين ضلوعها لو بدأت في التحقيق معي..

في المكتب كانت دكتورة صفاء على كُرسِيها، والمَجْنِي عليه جالسًا إلى يمينها وأنفه التي لكمت قبضني تفتش وجهه كقطيرة حارة، ابتسم تحديًا ببرودة تكييف ٨ حصان حين أشارت لي صفاء:

- اقعد يا يحيى..

قعدت في مُواجهة اللزج أرتقب أول غيث التحقيق، دقيقة مُملة قبل أن تترك أوراقها وتلتفت لي:

- احكي لي يا يحيى عن الحالة اللي معاك؟ شريف الكردي..

بداية غريبة لم أتوقعها.. اتخذ الأمر مني ثواني تابعت فيها وجه سامح قبل أن أجيبها:

- شريف الكردي عنده أعراض مرگبة-يا دكتور، سكيذوفرينيا، (OCD)، سكيذوجرافيا، وفي آخر يومين لاحظت...

- ازدواج ا د. كيلاني حكى لي عن آخر كلام دار بينكم.. طبعًا آخر حاجة دي مش محتاجة أقول لك إنها عاوزة قاعدة يا يحيى..

- يا دكتورة شريف بقاله يومين بيتكلم معايا بشخصيتين مفصولتين.. أنا عارف إن ده صعب.. بس ده اللي حصل..

- شريف يقدر يتكلم بشخصيتين في أي وقت لو حب يا يحيى.. ده دكتور..

- أنا عارف يا دكتور إن الازدواج نظري، بس شريف لو يمثل ما كانش حاول يتحرر، أنا شفت شخصيتين، وبينهم خناقة..

- مُحاولَة الاتحار دي تدخله في خانة الاكشاب، لا سكيذ ولا ازدواج يا يحيى، وده ما يعنيهوش من المسئولية..

- أنا ما بحاولش أعفيه من حاجة .. بس إحنا قدام حالة حقيقية ..

- مش هاطلع تقرير من المستشفى يا يحيى بقول للمحكمة إن المتهم بشخصيتين .. أنت عاوز تضحك عليا الناس .. الحالة صعبة شوية .. بس مش ازدواج .. دكتور كيلاني راجع الأسبوع الجاي وهو اللي هيحسم الموضوع .. وهاتابع شريف معاك أنت وسامح من النهاردة ..

- سامح !!

نظرت له في امتنان أم لابنها:

- سامح طلب يتابع معاك الحالة دي عشان تبقى تحت المراقبة طول اليوم رغم اللي حصل في وشه، وقع على السلم إمبارح زي ما أنت شايف ..

- أنا مش محتاج حد يساعدي .. هاجي بالليل أتابع ..

- سبحان الله! ده أنت ماكتش طابق ترجع، وبعدين هتشتغل على الرسالة إمتى وإزاي؟! سامح هيساعدك في الحالة يا شريف، بصراحة مش جديدة عليه، سامح طول عمره صاحب واجب ..

كش ملك !!

حاصرني «أنف الكلب» ببيادقه وطايتيه ووزيره العاجز جنسياً، إما أن أرفض عرضه الخبيث وأترك شريف بين يديه لقمة سائغة وأنسحب، وإما أوافق على دس زلومته المفلطحة في القضية وأورطه في المسئولية عن سلامة شريف .. الأمر أشبه بلعبة البوكر ..

ولم نعوّدي «البوكر» يوماً على الانسحاب..

خرجنا من مكتب صفاء والطريقة كانت خالية، لم أتمالك لسعة قنديل
البحر التي ألهمت صدري، جذبتني من قميصه وشفعت الحائط بظهره:

- أنت فيه منك رجالي؟

خوفه امتزج بتشفي مغلول، وُضع ذيله بين رجليه وبدأ يرفع
صوته..

- اضرب.. خلّي المستشفى كلها تتفرّج عليك..

ضغطت على صدره:

- أنت بتخلّي شريف يكلمني على المحمول؟

أفلت يدي:

- وأنا اللي خليته يتكلم فيه إمبراح برضه؟ أنت مُجرم زيّك زيّه..
وفيه لعبة ومسخة بتلعب..

- أنت مش رخم.. أنت حاجة أوسخ من كده بكثير.. عارف لو
قربت له هاعمل فيك إيه؟

رمقني باستهتار مُصطنع لا يخلو من رغبة في التعجيز..

- إيه؟

«تم حذف الإجابة لاحتوائها على تلميح جنسي لا يليق بالذوق العام».

قلتها وتركته مُبعثراً يللم قميصه داخل بنطلونه.. قبل أن أصل
إلى آخر الطريقة استوقفني وأشار إلى أنفه:

..وحياة دي لا فرجلك..

تركه يعوي واتجهت لمستشفى عين شمس التخصصي، حيث
الحارس الرابض على باب شريف ودخلت، الغرفة صغيرة والزمن
فيها لا يتحرك، خالية إلا من سرير يرقد فوقه شريف مرخي الأعضاء
وطاولة عليها جهاز رسم قلب منحنياته تئن برتابة، بجانب أبواب
محاليل يسقيه الجلوكوز تنقيطًا، صوت نفسه بطيء متحشرج
وساقه مكبلة في السرير بأصفاد حديدية، سحبت كرسيًا غير مريح
وجلست بجانبه، شريف يرقد في سبات صناعي حقه الطبيب في
أوردته ليتعب مرحلة الصدمة العصبية، لفافة شاش كبيرة تحيط فحذه
المهتوك، جفونه نسي أحدهم غلقها جيدًا وبشرته صفراء ذابلة نافرة
العروق..

كوكتيل من الألم.. بلا تلج!

دقائق لم أحصها جلست أراقبه قبل أن يبت السكون في جسدي
خدرًا شجعني أن انزلق في الكرسي، جفوني اكتسبت وزنًا زائدًا
وتهيات بالفعل لغلق أبوابها قبل أن يداعب عيني وشم ذراعه، قمت
واقتربت منه بفضول قط، الرسم بدا شجرة مطبوخة في بشرته البيضاء
أقرب منها وشما دخيلًا، كأن دولة زنجية من «الميلانيين» أعلنت
استقلالها على سطح جلده بلا ثورة، مددت سبابتني اتخس الفارق
بين اللونين حين اضطرب إيقاع نبضاته، سرعة مطردة في ضربات
القلب ستقفه خارج ضلوعه، اقتربت من شاشة جهاز القياس أتابع
إحداثيات الزلزال العنيف، قلبه يركض بسرعة ١٣٠ نبضة في الدقيقة،

ركلت ذر الاستدعاء أطلب استغاثة، ١٩٠ نبضة، سرعة تلفظ الدم من غرف القلب قبل أن يدخل، سيحتاج صدمة تُوقف تهوُّره قبل أن ينقلب به قلبه على الطريق، الجهاز يقرأ ٢٢٠ نبضة، لم أختبر تلك السرعة حتى في يوم الحادثة، وضعت كفي على صدره أحاول تهدئة تشنج برجه حين بدأت الزُّرقة تصبغ جلده وشفتيه، نقص الأكسجين بلغ مرحلة حرجة، كان ذلك عندما فتح عينيه بغتة وقبض على يدي بملاح استولى عليها الألم، ويده الأخرى تعصر كفه اليسرى، نفرت شعيرات عينيه وتشنَّجت رقبته في صرخة مكتومة تستجدي هواء، انفتح الباب عن طيبة وممرضين وجهاز صدمات كهربية مجرور على عجلات، قبل أن يتصل الجهاز بالكهرباء سكنت حركته، خمد بين يدي مُنقطع الأنفاس، تحوَّني جانبًا ونزعوا رداءه، وضعت الطيبة سماعتها على صدره في عدَّة مواضع تبحث عن ناج يستغيث فلم تجد، سَكَّبت الممرضة على صدره مُلطفًا قبل أن تمسك الطيبة بالقطبين وتصبكهما، وضعت واحدًا فوق صدره الأيمن والثاني تحت القلب، ابتعدت عن السرير ستيمترات حين سَرت الشُّحنة في جسده، انتفض وتقلَّص ظهره فطقطقت الفقرات ثم خمد، الجهاز صفَّر في رتبة مُعلنًا غياب الحياة، شحنت الطيبة قطبيها ثانية بعد أن رفعت الفولت، راقبت الجهاز للحظة قبل أن تكبس الأقطاب، انتفض جسد شريف، كاد ينكسر من التقوس، أصدر صرخة هائلة أفرجت الطيبة قبل أن يتفض، قُبضته اعتصرت ياقة قميصي فأيقظتني من الذهول، جذب وجهي إلى قمه وهمس:

- القميص.. القميص يا يحيى!!

قالها ونظر في عيني لحظة قبل أن تخور قواه وتخور حدقاته
ليسقط بين يدي رخوًا كأن عموده الفقري قد انسل منه، لملمناه
وأسجناه على السرير، طعن بالحُقن وعُلِّقت له المحاليل وخُبط
جرحه الذي انفجر ثانية حتى انتظمت مُعدلاته الحيوية، سيحتاج إلى
أربع وعشرين ساعة إضافية يُمارس فيها الغياب عن عالمنا «عَنوة»
مُكَبَّلًا في سريره حتى يستقرّ عالمه!

أحتاج إلى ثلاث كتوس ويسكي وطبق ترمس مملح..

في طريقي للحصول على وجبة الكُحول أوقفتني كاميرا مُراقبة
لاسلكية في حَجْم سَبَابَتِي، معروضة في فاترينة «RadioShack»،
تبث إرسالها إلى مُستقبل بلوتوث في نطاق مائة وخمسين مترًا
حولها، يُخزن في لَقَطَات مُتقاربة بفارق ثانية واحدة مائة وعشرين
ساعة أستطيع تفريغها على كمبيوتر، كما اشتريت جهاز تَسْجِيل
صَوْتِي في حَجْم الشوكولاتة، يُسْجَل مائة ساعة بلا توقف على
كارت ذاكرة متحرك، كَلَّفَنِي ثَمَنُهَا مَحْصُول ليلة من ليالي عُونِي،
سَأَتابع شريف في العنبر على مدار أربع وعشرين ساعة، كما يجب
أن أعرف ما يفعله سَامَح مَعَهُ حين أكون غائبًا..

حين وصلت البيت القيتهما على كنبتي وارتيمت بهجانبهما أتأمل
كتالوجاتهما مُحاولًا تَخِيل الخطوة التالية، أغرقت خلاياي في
الكحول حتى تشبعت وكِدْتُ أَحْتَرِّق لَمَّا أَشْعَلْتُ سِجَّارَةً، لقد نجح
شريف في إفساد التسلسل المنطقي لدراما حياتي الرخيصة الرتيبة
التي يستطيع طفل صغير أن يتنبأ بِمُستقبلها.. فالأسطورة تقول:

صديق قديم يظهر من العدم.. متهم بجريمة قتل..

إما أنه فعلها وما يلبث أن اكتشفه فيعرض عليّ مبلغًا مُغرِبًا
من المال نظير تحييد رأي اللجنة في قضيته.. فأرفض وأكون من
الجاهلين! أو أوافق، وأدفع بمرضه المزيف إلى منصة القضاء ليخرج
كل أطراف القضية سعداء..

وإما أنه لم يفعلها حقًا فأساعده وأنا مرتاح البال ويخرج الكل
سعداء! أو أفشل، فأكون من الجاهلين..

وفي كل الحالات لن أفوز بالبطلية في النهاية..

شريف كان الدراما الثالثة التي لم تُكتب من قبل، دراما ترقص
فوق السلم ما بين نصاب محترف وحالة مستحيلة، دارت رأسي
حول نفسها حتى نفذ الوقود منها، ألعب لعبة أزلية ليس فيها «Game
Over»، استدعيت رقم لبني على تليفوني ثلاث مرات حتى حَفَفْتُهُ،
لن يُقيدها معرفة حالة شريف الآن، بحثت عن حُجَّة أخرى تُبرر
اتصالي بها فلم أجِد، كما لم أجِد تعريفًا لما أفعله سوى:

«اقتراحات مُراهق لرؤية الفتاة التي تشاركه الدرس الخصوصي
بدون أن يبدو سائل اللعاب!».

رائحة لبني لا تغادر أنفي كما لا يُغادرني وَصف التفاحة
المُستعملة، شجرة الجنة المخمرة، أصبّ الكحول على أفكارِي
فتزداد وزنًا، كأسًا خلف كأس.. أنسحب وراء ندّاهة إلى قاع بركة
ملينة بالتماسيح النيلية، عمودي الفقري انغرز في الكتبة حتى لامس
البلاط، ولبني جالسة إلى يميني وطفلتي «نور» تقف بجانب كلب
أحلامي الأسود، أنا نائم لا، أنا مستيقظ وأحرف، السمجاجة صارت
ركامًا من الرماد، اعتدلت ونظرت للعقرب، يست ساعات سقطت

سهواً، قُمت إلى الثلاجة العزيزة أجنّي ثمرات ثلجها، تجرّعت كأساً
إضافية واجتررت أفكارى على الكنية لأنفحصها حتى أعرف سبب
بطء الفهم الذي أصابني، بعد كأسين أظلمت الدنيا!! حانت اللحظة
التي توقعتها منذ زمن، لحظة ضرب الكحول المغشوش لعصبي
البصري، بصمة الميثانول!

هل الخمر «المضروب» حرام!!

لم أقف على القيام، رفعت يدي أمام وجهي فلم أرها، انطلق
الأدريينالين في دمي فقامت أبحث بيدي عن أي شيء يضيء حين
تذكرت الولاة على المنضدة، رجعت فأسقطت الزجاجاة ولم
أكثر - على غير العادة - بالكحول المراق قبل أن أعر على الولاة،
فركت حجريها فلسعت نارها حدقتي، أنا حي أرى، تنفست فالتقطت
الزجاجاة أنمي كحولّي الذي شربته السجادة وارتميت على الكنية،
لحظات وهاجمني الضحك على فزعي قبل أن أصي أنني قد أفقت
من سكرتي في ثانية، كان ذلك حين باغتتني الفكرة! لما انقطعت
الكهرباء عني تغيرت كيميائي في لحظة، تبخر الكحول من دمي
كأنني شربت كوزاً من القهوة ليفصلني! هذا ما حدث مع شريف،
انقطعت كهرباءه بعد زيادة ضربات القلب قبل أن يتلقى شحنة كانت
كافية ليفيق، شريف لما تكلم كان شريف الذي أهرقه! صوته ونبرته،
والقميص!! فتحت الكمبيوتر أبحث عن صورته! لماذا يهتم شريف
بذلك القميص؟

قرّبت الصورة ولم أتعب في تحصيل الصلة الوحيدة بين شريف
والقميص، الأرقام، كلاهما مقدس الأرقام، شريف ينقشها في كل

مكان والقميص مزخرف بها كورق حائط مكرّر، إِمّا أني قد وجدت
خيطًا، وإِمّا أن إِرَاقَة نصف زجاجة «Jack Daniel's» على السجادة
قد لَسَع عَقْلِي، الخَلايا التي حَرَّرها الكحول في رَأْسي رَقَبَت أحجار
الدومينو المُبعثرة، شريف كان ينوي «لها جس ما» سرقة قميص
المتحف الإسلامي، ذهب إلى هناك ليعاين المكان والتقط صورًا
لنظام الإنذار وشكل القاعة ومكان الفاترينة، لكن تأتي الرياح أحيانًا
بما تشتهي السفن، حدث كل شيء يوم الانفلات الأمني، هَرَعَ شريف
فيمن عاثوا في الأرض فسادًا وانتزع غنيمته، بأقل مجهود..

أما لماذا؟ فسيظل ذلك لغزًا حتى يفيق سيادته، وَجْهه وهو يصرخ
في لا يُغادر عَيْنِي، يمنعني من التفكير، وَشَمُّه الغريب أيضًا يهيني
بغثيان لا أهدم سببه، الوشم! بحثت عن محفظتي لأستخرج الكارت
الشخصي الذي وجدته في الزهريّة بالشقة، فحل رسم الوشم بمصر
الجليلة، مواهبه مكتوبة على الظهر بجانب العنوان..

لم أملك سوى أن أنطلق إلى هناك..

في شارع هادئ مَيّت مُتخِم بالأشجار عثرت على المحل؛
واجهة زجاجية ضَيِّقة عليها رسم لبوذا في هيئته البدينة، جالسًا
ويده مُخضبتان بالنقش ومن خلفه ستارة فضية متألّثة فوقها اسم
«Buddha» مكتوب بلمبات نيون تضيء وتنطفئ برتابة، دَفَعَت
الباب فاصطَكَت الأجراس، صالة المحل من الداخل كانت ضَيِّقة،
حيطانه مُزدحمة بنماذج وشوم لكل من يبحث عن هويّة، جَمَاجِمُ
موتوسيكلات وحيوانات مفترسة لأذرع الذكور، فراشات، قلوب
مُعذّبة وورود تُضفي على جسد الإناث ما يُضفيه الليمون على
الأيون، جنون مضاعف! في ركن وراء مكتب جلس شاب رَخو
كفنديل بحر، قرط في الأذن اليمنى، قميص خرج للتو من فم كلب،
ووشم يحتل ذراعه وآخر يتمشى على رقبتة:

- مساء الخير..

- مساء النور.. فيه معاد ولّا أوّل مرّة تشرفنا؟

- أوّل مرّة..

- لازم نحدد معاد لأن الشغل هنا بالحجز.. فيه تاتو معين...؟

قاطعته:

- أنت صاحب المكان؟
- مدام «ديجا» هي الـ «Owner».. بس عندها «Session» رسم
دلوقة..
- ديجا! أجنبية؟
- ديجا.. خديجة.. «Nickname»..
- آه.. هاستأها..

جلست قُربه وأذناي تلتقطان أزيز آلة رسم وشم رتيب يشوش
المُوسيقى الهندية المنبعثة في المكان، كسرًا للوقت تصفّحت كتالوج
وشوم كان على المنضدة، دقائق وتوقف صوت الماكينة قبل أن تخرج
من خلف الستائر فتاة أجبرني وشمها الذي يتوسط أسفل الظهر «بين
الغزتين» على متابعته حين انحنت لتلتقط حقيبتها، قلب أحمر مفروز
فيه سيف مسنون وعبارة لم أقرأها بسبب الالتهاب الوردي، يجب أن
تأتي مايا معي يومًا، سادعوها لو شم بعض مزاراتها التاريخية العريقة!
تابعت الفتاة الموشومة حتى رحلت حين اختفى الشاب الخرج خلف
الستائر ثم عاد يدعوني للدخول..

الغُرّة كانت واسعة نسبيًا، رائحتها بخور مُسكر، غنية بتمائيل
لبوذا بأحجام مختلفة، من عقلة الأصبع لمترو فوق الأرض المكسوة
بسجاد شيرازي مزخرف، ونجفة خافتة تُضيء بالكاد الحائط المُزين
بلوحات أبيض وأسود مُبهرة لجلود آدمية وُشِمت بعناية، بجانب
مكتبة تصل للسقف عامرة بالكتب، وفي المنتصف منضدة عليها
مُسَدّس الحَقن والمطهرات وبعض الألوان في أوعية زجاجية،

حين دخلت كانت السيدة على كرسيها المنخفض ترتب أدواتها،
«ديجا»، أتى في العقد السادس من عمرها حاصرت التجاعيد عينها
وافترشت أفرعها بين ثدييها اليابسين اللذنين طلا من فستانها الأخضر
المكسوم، جاذبيتها فارسية كزجاجة نبيذ أحمر تعتيق ١٩٤٤، عاشت
جميلة في وقت ماء، ولم تياس، يُحيط برسغيتها كمية لا بأس بها من
الأحجار الكريمة مفروسة في أساور فضية، في أصابعها خواتم
كبيرة متوجة بالعقيق، تُعقص شعرها الأبيض الخشن على جانبي
رأسها بإشارب أحمر قان، وتضع في أذنيها قرطين واسعين كأطواق
الهولاهوب، لما رأني ابتسمت بصف أسنان اسودت شقوقه ثم
أشارت إلى كرسي جلدي مريح أمامها لأقعد وقدمت نفسها بصوت
أرهقه السجائر:

- ديجا..

- يحيى..

- برجك إيه يا يحيى..

- برج إيفل..

- ضحكت..

- ماشي.. شاي أخضر؟

لم تنتظر إجابتي.. سحيت الإبريق من فوق سخان كهربى وصبت
في كوب زجاجي صغير ثم ناولتني.. التقطت الكوب فشمت
حين أردفت:

- ده شاي أخضر.. من المغرب..

- ريحته حلوة..

نطقتها رياءً وبالكاد ابتلعتها، فأنا لم أذق السوائل غير المُخمّرة
منذ زمن..

- أول مرة تعمل ناتو؟

- لا.. أنا جاي...

قاطعتني:

- استنى ما تقولش..

نظرت في وجهي بتركيز شديد ثم أغمضت عينيها:

- أنت محتاج.. محتاج جلوح.. رسمة صقر بمخالب كبيرة ورقبة
ملبّاة.. وممكن راس ثور بقرون و...

- الحقيقة أنا جاي أسالك على رسمة معينة.. هي معليا..

ناولتها صورة من ملف شريف تبرز وشم فرائعه، حملت فيها من
وراء نظائرتها قبل أن تغلب ملامحها فجأة، رفعت عينيها إليّ بغضب
وقامت مفزوعة، دسّت يدها في حقيبتها الشخصية وأخرجت عبوة
'Self Defense' ووجهتها نحوي:

- أنت تبعه.. هو باعتك؟!!

- ثانية واحدة.. فيه سوء تفاهم.. أنا...

حقيقة أنا لم أقل كلمة إضافية، فقط تلقيت السائل الحارق
في وجهي لأتشجج كدجاجة اغتصبها اثنا عشر ديكًا دفعة واحدة،
فلقطة حمراء مُرسّات بين أنفي وحلقي، ماء نار حفرَ خدقتي وصّال

مُخاطبي أنهارًا على ذلتي، هذا بجانب كُنْة مشحجرة شققت رثتي،
كان ذلك حين دخل الشاب الرخو العامل عندها، زكل خُصيني
بحرفية «كريستيانو رونالدو»؛ لأحب ريال مدريد، بدون أن يسأل
ماذا حدث، تكومت ألمًا لا أدري أأمسك بمعدتي التي انقبضت من
الركلة الحرة المباشرة أم أكنح لأستجدي الهواء

جاهدت لأخرج المحفظة من جيبي فركل الرخو يدي والتقط
بطاقتي قبل أن يناولها لدهجاء، كانت تمسك تليفونها باليد الأخرى
تبحث عن رقم أو هكذا خيل لي..

- أنا حافلة لو قُرب هنا ثاني مش هبروح بيته.. معاون مباحث
النزهة مذهني رقمه...

بمرت كلماتها لما نظرت للبطاقة ورات صفتي كطبيب
فأنزلت التليفون:

- أنت مين؟

سؤال متأخر لم أستطع الرد عليه، لكنني أقسمت إنني سأقتل تلك
الولية يومًا ما قبل أن ألد مُساعدها وأد بنات الجاهلية في الصحراء،
أكملت احتضاري حين أمّرت عيدها الأملس برش كوب ماء علي
قبل أن يُساعدني في دخول الحمام، نصف ساعة وبدأت أتمالك
نفسي نسيبًا بعدما تجرّعت لتر لبن واستحسنت تقرييًا، أغرقتني
الولية أسفًا قبل أن أستطيع الكلام، حكيت لها عن طبيعة عملي كمقيم
لحالة شريف وعن الجريمة، سقط فكها السفلي على حجرها صدمة
ونجلاً من تسرّعها معي قبل أن أسألها:

- أنت اللي رسمتي الثانو ده؟

- لا.. أنا اللي حاولت أشيله.. وماهرتش!

- احكي لي..

الشخص ده بمجرد ما قعد قدامي حسيت إنه مش طبيعي،
مجنون رسمي، نظراته غريبة ويقول كلام كثير بصوت واطي
مش مفهوم، اللي فهمته منه إنه عاوز يشيل تاتو، شرحت له إن فيه
كريمات بتتحقن تطلع التاتو لطبقة الجلد المكشوفة ويعمل قشرة
زِي الجرح ويتشال، رفض لما عرف إن ده بياخد About شهرين،
كان عاوز يشيل التاتو في ساعتها، الحل الثاني إنه يتشال بالليزر
وده مؤلم شوية، وافق، حطيت له كريم بنج موضعي على ذراعه
واستينا رُبْع ساعة لغاية ما الكريم عمل مفعوله، بمجرد ما شغلت
الليزر وقربت لقيته بيهس لي ويضحك وفجأة مسك إيدي، ضغط
عليها لغاية ما كسرها كسر مُضاعف.. بهس..

كشفت عن رسغها فوجدت فيه أثرًا داكنًا والتواء يُلاحظ بصعوبة..
تراجعت لي تلك اللحظة عن فكرة قتل تلك الولية، لكن واد
عندها الرخو لا تفاوض فيه..

ارتشفت شايفها الأخضر تهدة لأعصابها التي توترت ثم
أكملت:

- كنتم بقي عشان ما أصرخش وسحطني لغاية الرُكن وقعد فوقي،
فُضِّل على ده الحال يمكن خمس دقائق، آخر حاجة قالها لي إنه
هيبت صديق يخلص عليا، ده اللي قدرت أفكره لأن بعد كده أهم

عليها من الـ «Pain» .. ده بفسر رد فعلي معاك .. أنا آسفة .. أنت مش متخيّل .. بس أنا اتبهدلت ..

- الرسم اللي على ذراعه ده ليه معنى ؟

التقطت الصورة ورمقتها ثواني :

- مش فاكدة إني شفت حاجة بالـ «Finish» ده قبل كده ..
الـ «Style» شرفي بس I'm sure إنه معمول بره مصر .. للأسف
ما هنلناش المَكْن ده ..

- أي معلومة توصلني لحاجة ؟

- أنا آسفة .. كان نفسي أساعدك ..

قمت مستأذناً حين تذكرت صورة شريف وبسمة على الشاطئ،
أخرجتها من محفظتي :

- شفتي البنت دي قبل كده ؟

التقطت مني الصورة وسحبت نظارتها المدلاة على صدرها بحبل
رفيع ودققت النظر ..

- لا ..

- متأكدة ..

- «Sure» ..

- التاتر اللي على الفخذ ده ...

- في الغالب ده حة مش تاتو .. ومش قاهرة أشوف الرسمة ..

تركها ورحلت بعدما رميت عبدها الهزيل بنظرة وعيد... اللغز
يزداد وضوحاً.. أو اهتماماً لم أعد أعرف!

حادثة دهجا تؤكد أن شريف قد يكون أول حالة ازدواج حية
أصاقلها في حياتي..

سحبني قدمي للمستشفى، كان الوقت ليلاً حين وصلت،
بعد مناسب لسرقه شجرة بجذورها إذا أردت، تمسيت في الطريقة
حتى أصبحت أمام غرفة التمريض، مظلمة كانت، يملؤها الممرض
النوباتشي بشخير ورائحة قدميه، لما اطمانت أنه قُت بسلام
أخرجت كاميرا المراقبة، بحثت لها عن مرقد في مواجهة الزجاج
فوق دولا ب يطل على العنبر، وجهتها إلى حيث تكشف الأسرة
كلها بعدما أخفيتهما في زاوية لن تراها عين، ثم اتجهت إلى غرفتي
ولتحت مستقبل الإرسال حتى التقط الإشارة، جرتها على كسيوتر
المستشفى فوجدت النتيجة مرضية، صورة تُلتقط للعنبر كل ثانية
توضح خط سير النزلاء وكل حركة يأتونها، ستكون عيني على
شريف في حالة غيابي، وضعت المستقبل في درج أدخلت مفتاحه
معي قبل أن أرحل..

لما وصلت أمام البيت كانت النوافذ مضاءة، لا يجرؤ على تلك
الفعله سوى الوحيدة التي تملك مفتاحي؛ مايا، زيارتها الأسبوعية
لتي تعني لي الكثير! ما إن تدخل حتى تُعثر برموناتها الأثوية في
كل ركن، فالمسكينة لديها موسم تزواج محطوف، فقط اثنا عشر شهراً
في السنة! تأتي كيفما تشاء، وبقما تشاء، ستر أغنيائها في ساعتي
وتطلب طعامها جاهزاً من مطعم إيطالي قريب! أحياناً تُعيد ترتيب

البيت بعد الفوضى التي أعيش فيها، أو تُحدث فوضى أكثر مما أصنع،
لا يهم، ما يهم هو كسرهما روتيني، وتغييرها هواء شفتي ورتتي،
تجلس في مكانها المفضل أمام منضدة غرفة المعيشة، تفتح قناة أفلام
أجنبية على فيلم رومانسي، أو رعب، ثم تُخرج عدتها؛ زجاجة فودكا
«ID»، حبات الـ «Acid» المقدسة عند قبيلتها، وسجائرها المحشورة
بخيرة الحشيش المغربي..

مايا في المعجم: إلهة الخصب والربيع عند الرومان، وعند اليونان
أم «هرمس» من كبير الآلهة «زيوس»..

لَمَّا دخلت لمحت ساقها متفتي الرسم متشابكتين فوق الكنب،
لعن الله من اخترع الكعب العالي لينحت السماء مع المشي بذلك
الشكل، أصابعها الدقيقة مَطلبتان بلون لبني فاقع والدخان يتصاعد
إلى السقف فوقها، لَمَّا سمعت صوت مفتاحي انتفضت كمن رأت
فأزاً، جريت نحوي لترشق في صدري احتضاناً وتلف ساقها حول
ظهري، كمهدا دائماً، خفيفة كحمامة، هفوة كمخدرات صدمات
السيارة الفارحة، وناهمة كرخام إيطالي مصقول..

- يا نهار اسود.. خلقت دقنك!!

- معلش.. الجو بني حَرّ..

- يا تعبان! أنت عارف إني باحب دقنك!!

- متطلع ثاني يا مايا! هو أنا قلت إني عملت ليزرا

قبلتي قبلة تبادلنا أثناءها الأنفاس واللُّعاب ولبانة بنكهة الفراولة..

- إياك نحلقها ثاني.. أنت فين؟ ما جيتش «Deals»! ومش بترد
عليا.. قلقنتي!!

- أنا كوتيس..

أجلستني على الكنبه وجلست فوقي، ثمانية وخمسون كيلو
من الرفاهية:

- مالك؟

- مافيش.. فيلم أجنبي كده..

- احكي..

- رجعت الشغل.. في المستشفى..

- رجعت المستشفى!! أنت هاوز فلوس؟

- لا..

- هاوزة أسمع..

- مايا أنا تعب..

- جاية النهاردة «Stuff» هيطلمك الهرم جري..

- أنا مافور من هير «Stuff»..

- وفيه مفاجأة!!

قالتها وأخرجت من حقيبتها رُجاجة أعرفها، متوسطة الحجم
مُرسوماً عليها هين حدقتها خضراء ورموشها من الفضة تشع حولها
كاشعة الشمس، تحوي مائلاً أخضر رائحاً وتحمل اسم «La Fee

!«Verte - Absinthe

الجنية الخضراء.. نكهة اليانسون + ٦٨٪ كحول..

لم أفقد خالتي رحمها الله مثلما افقدت تلك الزجاجة..

- جات لي من بره.. قلت مش هافتحها من غيرك..

مايا.. لا دين لها..

الشبق فوق شفتيها أشعل حماسي، ناولتني كأسين فوضعت فوق
أولاهما مصفاة صغيرة أتت بها من المطبخ وألقيت فيها قالب سكر،
فتحت الزجاجة وصببت السائل الأخضر على القالب فتخلله، رُبِع
الكأس كان كافيًا، الثقطت ولاعتي وأضرمت النار في القالب المشبع
بالكحول، ارتفع اللهب الأزرق وتراقص قبل أن يتحول السكر إلى
«كراميل» يتسرب من الفتحات الضيقة إلى القاع، ثوانٍ وأسقطت بقايا
القالب في السائل الأخضر فاشتعل، قبل أن أضيف ببطء بعض تونيك
الليمون حتى امتلأت الكأس وناولتها، احتضنته براحتها واشتمت
طُرفه ثم تجرّعت ستيمترات الجنون بعينه، أغمضت عينيها وارنخت
على الكنبه مُبعثرة ساقبها شرقًا وغربًا:

- فتي..!

صنعت لنفسك كأسًا أخرى وارتميت بجانبها فنظرت تجاهي..

- فيه إيه احكي لي؟!

سألت مايا.. ولم يكن لإنسان على وجه الأرض من بعد آينا آدم
أن يُوقِف إلحاح مايا إذا بدأ..

مايا في بعض المعاجم الفينيقية القديمة: إلحاح مُرابي يهودي
هلى ماله + فائدة مُججفة..

حين أنهيت قصتي حول صديقي وأخته العائدين من الظلمات
كانت هي قد جحظت عيناها والتهمت سيجارة محشوة واحتضنت
كأسها الثانية..

- أقول لك على حاجة بس ما تفهمينش صبح.. أنا عاوزة أنام
معاك دلوقتي حالاً..

- نصدقي أنت فصلتيني..

- مش قصدي والله.. بس وانت بتحكي شفايفك تجتن.. ومن
كتر ما أنا متوترة جت معايا على نوم.. اللي فاصلني منك بس الهانم
اللي عُمرِكَ ما حكيت لي عنها..

- الموضوع ده انتهى أصلاً قبل ما يبدأ..

- طريقة كلامك عنها بيقول إنه ما انتهاش.. أنت مش شايف
نفسك..

- مايا أنت سكرانة..

- أنا مش سكرانة..

- سكرانة.. بس مش هاكذب عليكِ لما شفتها اتلخبطت
ثوبة..

- دوقتها؟

- مايا!!

- مافيش حد بيتلخبط كده غير لما يكون داق اللي بيعبّه..
At least بوستها؟

- وافرضي !!

- تبقى بوستها.. وطعم شفايفها لسه في بَقك.. لسه بتحبها؟

- حُبّ ا بخلاف إن الكلمة دي مدارس أوي.. بس بتلخص رغبات
ومسحة مكسوفين نقولها.. مافيش حاجة اسمها حب.

- ده كلام خطير ا

- يا بتي لو قعدنا نحب في بعض أسبوع ومفيش «Sex»، هنتف
في بَق بعض.

- «Disgusting».

- العلاقة رغبة.. إعجاب.. مطاردة.. صيد.. «Sex».

اتسعت حدقة عينيها شبقاً..

- طب وأنا وأنت في أي مرحلة دلوقتي؟

- في الشقة.

- بطل رخامة أنا مش عيانة من بتوعك ما تلاعبنيش.

- إحنا عدينا المراحل دي كلها.

- يحيى.. عارف.. أنت عمرك ما قلت إتك بتحبني.

- لأنني ما بحبكيش.

رفعت شفتيها باشمئزاز قبل أن أداركها..

- أنا جعانتك.

- هيسجي يوم وتشبع.

بشروء خرجت مني ولم أقصد..

- يمكن.

زمت شفتيها ولتت شعرها بعصية كحكة فوق رأسها ثم أردفت:

- أنا قلت لك إني بأحبك ثاني يوم نمننا مع بعض.. وجودك معايا

فارق.. عارفة إنك رافض تتجوز بس مين عاوز.. May be أنا أتجوز..

بس Sure مش عاوزة «Kids».. ما باقدرش أقعد معاها أكثر من عشر

دقائق! ولو إني مش هلاقي حد زيك.. وغالبًا هاجيلك أزورك.. أنت

عارفني أنا آخري ثلاث شهر مع أي حد.. ساعات باستغرب أنا ليه مش

عارفة أزهدق منك.

- مش عارف.. مع إن أنا زهدت مني!

- أنا عارفة مش بازهدق ليه.. عشان أنت مش طبيعي.

- إيه؟ بثلاث رجلين؟

ضحكت في غنج فاستدركتها:

- ده أنت دماغك وسخة.

- أجمل حاجة فيك إنك فاهمني.. وده عُمرِي ما قابلته.. أنتو

أغلبكو أصلكو دماغه محدودة.

- ده شغلي.. أفهم الناس.

- بس؟ يعني أنا بالنسبة لك شغل؟

صورة لبنى في مخيلتي أفقدتني حس الدعابة.. كُلُّ شعور ظنته

صادقًا اختل ودب فيه الشك بعد عشوري عليها.. فقدت قدرتي على

مُغازلة مايا.. مُمثل نسي نَفْسه.. وحتى تملقها بكلمات من وراء قلبي
لأستبقِها! صار حَجَرًا كَبِيرًا على صدري لا أستطيع زحزحته..
ظننتني يومًا أحبها.. ظننتني يومًا نسيت لُبِّي!
- لا.. أنت مايا.. مش شُغل.. بارتاح وأنا معاكِ وأنت عارفة..
خرجت بصعوبة..

- طيب ومعاها؟ لُبِّي؟

- مافيش.. صدري اتحرق بس لما شفتها عشان.. عشان! يعني..
حرقان!!

- لو بنحبك بجد كانت حاربت علشانك.. لو مطرحها كنت لميت
هدومي وجيت عِشت معاك..

- يا بتي أنت فاقدة أصلاً.. لُبِّي لو حاربت أكيد ما كتش أنا
هاتجوزها من ورا شريف.. ده غير إن شريف اعتبرني خاين لما
عرف علاقتي بيها..
- ومن ساعتها...؟

- من ساعتها ما عرفتش أمشي.. الحياة ببساطة.. عطلت..
آآآ.. اتشليت.. فقدت حاسة الشَّم.. مش عارف.. عطلت.. أنا مش
رومانسي.. بس اتقلب على ضهري زي أي صرصار مُحترم..
اتجوزت لأن المفروض أتجوز.. زي ما بتاكل عشان جسمك عاوز
غذاء.. بس نَفْسِك مش عاوزة..

- ولغاية دلوقتي عطلان؟

- دلوقت أنا خلاص .. ظبّطت حياتي .. بشكل ما .. مش عارف
ليه أم اللي جابها ثاني .. مش وقتها .. مش ساعات كده فيه حاجات
صح بتيجي في وقت غلط؟ صح؟

- كان نفسك تكون جاية لك «Single»؟

- تجرّعت كأسى الثانية ولم أجب .. ثم قررت أن أجابها:

- يمكن ..

- يمكن؟

- يمكن رد اعتبار ..

- انتقام؟

- أنا مسامحها ..

- أنت هايج!

- مش كده يا مايا .. مش بافكر كده ..

- أنت اللي قلت إن مافيش حُب ..

- آه .. بس .. ده حاجة ثانية ..

- ضاقت حدقة عينيها غضبًا ..

- تبقى لسة بتحبها!

- أنت سكرانة ..

- لو فايقة كنت اتخافقت معاك .. إحنا متعودين على الصراحة

صح؟ جاب ..

.. هي بس .. بترجلتني .. عادي .. عمرك ما اتبرجلتني لما قابلتني واد
كتني ماشية معاه أيام الكلية!

- ممكن .. وإيه اللي كان عجبك فيها؟

- دماغها .. عاقلة .. بتفهمني ..

- لو كانت وحشة كنت هتقول نفس الكلام؟

- وعودها حلوة .. باحِب عينيها أوي .. ودمها خفيف ..

- ها وإيه كمان؟ ده أنت محروق موت!

- محروق عشان في يوم من الأيام .. كنت فاكرها هي .. هي اللي

ممكن تقف الحياة عشانها .. بس طلعت مش هي ..

الجملة الأخيرة كانت الكذب بنفسه حين يمشي على قدمين ..

لكنها نجحت في إسكات مايا ..

- ماشي .. هتكب فعلاً الدكتوراه؟

- دكتوراه! أنا مش محتاج الدكتوراه .. زمالة من أي نبلة برّء تكفيني

لما أبقي حاوز أكمل الشغلانة المهيبة دي .. أنا قاعد لغاية ما موضوع

شريف يخلص ..

- أنا مش مصدقة صاحبك ده! حاسة إن فيه حاجة غلط ..

يشتغلك .. يشتغلكو كلكو .. يشتغلني أنا كمان .. ممكن تكون لبني

كمان بتشتغلك!

- لبني لا .. لبني أنا أعرفها زي كفّ إيدي .. ففف .. أنا دماغي

وقفت ..

نظرت لي بابتسامة خبيثة..

..طب يله.

..الله يخرّب بيت دماغك!! يا قول لك تعبان.

لم أكمل الجملة، قفزت فوقى وقبلتني هُضاً، سرت الكهرباء في
جسدي فابتسمت:

..بطل غلامسة.. «Relax».

أجمل ما بيني وبين ماها أننا لا نصل لمرحلة العراك.. سبعة أمتار
قبلها ونتوقف أو نوماتيكياً.. بتصالح مع النفس اتفقنا «بدون أن نتفق»
على أن تكون علاقتنا فريدة من نوعها.. نسيح في الحياة كيف نشاء..
وحين نلتقي:

المشوق كما ينبغي أن يكون.. وكل أمر متاح حتى أبعد الحدود..
قبل أن نعود ثانية لحياتنا..

لا غيرة..

لا تليفونات اطمئنان كل ست ساعات..

لا عتاب على توافه..

لا التزام..

لا حديث عن المستقبل..

نساء الأرض عادة يحتجن سبيلاً لإقامة علاقة مثل تلك.. مايا
نحتاج فقط..

شقة خالية!

مايا في مُعجمي: كوكيل مِن ويسكي، نُبيذ، عرقِي، فودُكا،
كامباري، سِيدار، B52، ساكي، براندي، كونيَاك يوناني، روم، تيكِلا،
بيرة، شامبانيا، آيرش كريم، وحتى بوظة بلدي بالفول الثابت!!

أثرت على رُكيتي ونثرت شعرها في وجهي ثم أخرجت من
حقيتها علبة شفاقة صغيرة التقطت منها قرصًا لون العاج، عليه
رسم لفيل أزرق بأربع أذرع، رَافعًا خُرطومَه إلى أعلى ويُمسك بيده
شيئًا لَمْ أُمَيِّزُه..

- إيه ده؟

- ده الفيل الأزرق.. «Stuff» مش هاتصدقه.. أول مرة يتزل مصر..
جيت من «Dealer» جنبك هنا في المَعادي..

- ماليش في الكيميا..

- دي مش كيميا.. دي تذكرة لعالم البرزخ.. تذكرة رايح جاي..

- البرزخ!

- البرزخ..

- البرزخ اللي هو بعد الموت! ده «LSD»؟

- الـ «LSD» ده لعب عيال.. ده اسمه «DMT»..

- أيوة يعني بيعمل إيه؟

- دي مَادَة اكتشفوا إنها بستفز في الإنسان وهو ييموت.. بتساعده

بـ «Relax» وهو يستقبل العالم الآخر عشان ما يتصلعش.. رحلة
مدتها ساعة واحدة.. تشوف فيها اللي ما تحلمش تشوفه.

.. ما باحَبَّش ابلِيع حاجة ما أعرفهاش.

.. أنت مش بتقول إنَّ حياتك عَطلانة.. هتخسر إيه؟

جَميل أن تأتي الفلسفة والمنطق من فم مايا.

.. أشوف فيها كُل اللي نفسي أشوفه..

.. كُل اللي أخذوها حياتهم اتغيرت.

قالتها وعَضَّت على شفتيها غَنَجًا، قد يكون ذلك ما دفعني يومها لتركها تضع الفيل الأزرق «بزلومت» فوق لساني قبل أن ابتلعه بكأس الـ «Absinthe» الثالثة..

هل تابعت برنامج «أسبوع القِرش» على قناة «National Geographic»؟

استرخيت في الكنب تاركًا نفسي بين يديها، وسَاقِها تلك الليلة كان عليها الكثير من الواجبات سأتجاوز أدبًا عن شرحها، يكفيني بقيني أنها تستحق دكتوراه مع مرتبة الشرف في تخصصها وتكريماً من الملكة الأم في إنجلترا ولقب دوق، أسدلت جُفوني وحاولت الاندماج فيها حتى أذني مُجاهداً لطرْد الأيام الماضية من رأسي.. وربما مَحَو وجه لُبني التي التَصَقَّت صُورتها في بطن جُفوني، كلما أغمضت عيني رأيتها..

هل لاحظت أن مقلوب كلمة قِرش.. «Shark»!!..

بعد ثلث ساعة كان الفيل الأزرق قد تَوَلَّى الدَفَّة، عَرِفت ذلك حين بدأت الغرفة تَسع، قبل أن يبدأ كل شيء حولي ينبض، بانتظام،

يتنفس انقباضًا وانبساطًا في إيقاع ثابت كأنني في قاع بحر، الأثاث
 يتعد ببطء نحو الحوائط، الرسم على السجادة يتلوَّى كأنه الشعاب.
 وورق الحائط المنقوش بدأت أغصانه تصعد «لبلايا» إلى السقف
 هلوسة مُقنعة راسخة مُطمئنة كجبل على الأرض!! الذي كتب «الف
 ليلة وليلة» يعرف ما أقصده، التفاصيل أصبحت حادة والألوان
 ازدادت زهواً كأنني في معرض زهور يابانية، قبل أن تنحصر الحياة في
 منطقة ضيقة بين البنفسجي والأزرق، ثم غزا العُشب الأخضر أرض
 الغرفة تدريجيًا، الأخضر له نعومة خريز شلال كاريبي، البنفسجي
 له رائحة البخور الهندي الذي اشتدته في محل الوشم، أما الأزرق
 فصوته يشبه صفارة قطار منتظمة تأتي من بعيد! مُقارنة بعهد ما قبل
 القُرص كنت أعيش في فيلم أبيض وأسود مخربش، على ذكر الأفلام
 القديمة عبر أمامي أنور وجدي وليلى مراد، مرًا في طريقهما للحمام
 وابتسمت لي ليلى بصف أسنانها البراق، تبدو أقصر مما تظهر في
 الأفلام، لكنها فاتنة! تفاديا بالكاد ساقى مايا المنفرجتين ولمبات
 النيون التي تلوَّت مثل الحيات تُبَخِّج كهرباءها قرب رأسيهما فوق باب
 الحمام، متى رُكبت تلك اللمبات؟ كُتفا مايا الناصعتين انسابتا مثل
 الشمع على صدري، نمشها المشور كالنجوم فوقهما له عبق الكاكاو،
 ونديان مقاس «34c» مثاليان يدوران كما تدور الأرض حول نفسها،
 ٤، ١٦٤٤ كم/ ساعة، حرقها تبغ نكهته فانيليا، شعرها شديد الحمرة
 يَمُوج في وجهي، شعرها أسود! لا إنه شديد الحمرة، لم ألحظ أنها
 صبغت! باتت تُشبِّه معشوقتي الفرنسية «Eva Green» في فيلم «The
 Dreamers»! من النساء من هن جينة «روكفور»، ومنهن من هن
 القشلة والزبدة والحليب كامل الدسم، كم أنا محظوظ! لم ألحظ

ذلك من قبل، ولم الحظ الوشم فوق فخذهما اليسرى، وشم على شكل كلمات.. لا.. أرقام! ٩٠٠١٠٠٢٠٠١١٤٠، أحد عشر رقما مكتوبًا بجبر غير ثابت ما إن لمستها بأناملتي حتى استحالت حشرات صغيرة وانسلت من بين أصابع قدميها لتتوه في العشب الأخضر الذي كان قديمًا.. سجادة..

هل تابعت برنامج «الحشرات» على قناة «National Geographic»؟

هل لاحظت أن مقلوب كلمة «حشرات».. لا تمت بصلة لـ «Bugs»؟!

أين نظارتني؟ لم أصنعها بعد.. لكنني أستطيع رؤية السقف بوضوح والحشرات الصغيرة تتجمع في أركانها، كما أرى بوضوح الأبواب التي أحاطتنا! اللعنة على صاحب البيت! رجل بلا ضمير.. ثلاثة أبواب يخفيها عني! ثلاثة أبواب مغلقة بمقابض فضية، عدا واحدًا بدا مواربًا يتسلل منه ضوء أصفر باهت، تجرعت باقي كأسني ترطياً لربيقي الذي جف على عنق مايا ثم أنزلت ساقها من فوق كتفي بعدما أنهت صراخها وكفت عن نداء اسمي كالتائهة وخمدت كقشرة موز..

لم تعد تُشبه «Eva Green»!!

أزحتها برفق ثم قُمت للباب الموارب، أشعر بالبرد رغم الجو الحار! بصعوبة أمسكت المقبض الذي يطن كعش دبابير مزدحم ودفعت الباب ودلفت.. تلك الغرفة!! تلك الغرفة أهرقها جيدًا.. إنها لا تنتمي لهذا البيت، تنتمي لشقة شريف بالمعادي، غرفته بالدور الثلاثين!!

«Mother Fucker» بالإنجليزية تعني «تبا» بالعربية..

كُل شيء في الغرفة كان كما هو، الحوائط المتسخة، الكنبه
المُغتصبة، المكتبة ووراءها الأرقام، وصوت الهواء يصرخ في النافذة
المفتوحة كامرأة فقدت ثديها الأيسر للتو، نظرت خلفي لأتابع مابا
فوجدتها على الكنبه نائمة وأطرافها الستة مُرتخية بجانبها! لعن الله
الشعر الأحمر وطلاء الأظافر اللبني حين يجتمعان مع ذلك الصدر
اتجهت إلى النافذة لأغلقها، أتحرك ببطء كأني في قاع بحر، كأني فيل
أزرق، وصلت للنافذة بعد رُبع ساعة وألقيت نظرة، مياه النهر العتيق
كانت تنساب ببطء الزيت، يشقها صندل صديي يحمل على ظهره
شحنة قصب، يُصير مُحركة زُمجرة رتيبة أزعجت الغريبان فقرت إلى
الضباب الذي افترش أرض جزيرة الذهب، أمسكت المقبض لأغلق
النافذة حين أوقني حفيف الخطوات، ببطي اللإرادي استدرت
فرايتها قرب باب الغرفة.. بسمه.. رحمها الله!

لعن الله «مايا» إلهة الكيمياء!

لم أكن لأخطئها رغم علاقتي بها القائمة على صور الجريمة
فقط، عارية كما ولدت، كما تريد أن تبقى وتندوم! مُتناسقة كماسة
في خاتم، جذابة كإلهة رومانية منحوتة في رُخام، حتى جروح الغل
البنفسجية التي قرأتها في تقرير الطب الشرعي لم تزدنها إلا فِتنة،
يبدو أن ساديتي دخلت في طور المرض! المفاجأة أنها لا تُشب
«Eva Green»، بل أجمل، لومي لشريف على تصويرها يُعدّ هرطقة
وتجديفًا، لو امتلكت كاميرا الآن لقتلتها فلاشاتي حرقًا، اقتربت،
عيناها ذاهلتان وكحلها سائل على وجتها في ياس، ملامح الألم

تجول في وجهها، ونهر دموي رفيع ينساب من بين فخذيه في نبضات تخضب خطواتها على الأرض، ونهر آخر يخرج من مفرق شعرها إلى جبهتها، احتضنت أسفل بطنها الماء وكادت تهوي فلم انمالك نفسي، ركضت إليها فلم تتحرك قدماي، عمودا خرسانة دُفًا في الأرض، ثمالكت نفسها وشفتاها ترتعشان في وهن، حاولت أن ناديهما، ازدحمت الكلمات في خلقي فأغلقتة، وازداد الشلل وطأة حتى نسيت أن أتنفس! اقتربت، لامس شعرها المتطاير رُسخي وهي نمر، تلاقى عيناها للحظة، لحظة فريدة جمعت الجمال والألم، لا أعرف هل رأيت استجداء أم ابتسامة مكسورة! عند النافذة لطم الهواء شعرها العجري فتبعثر على صدرها وكشف عن كتفها البديعين؛ قبل أن تصعد فوق إطار الشباك الذي انغرس في فخذها، نبضات قلبي ازدادت اضطرابًا لما أصبح ظهرها للهواء وساقاها في الغرفة قبل أن تزن وتسكن، الدَّم نبيذ أحمر ينسال من بين فخذيهما على الحائط في فيضان ضعيف لا يتوقف، ناديتها ولا أتذكر بماذا ناديت! ولا أتذكر أنني حتى سمعت صوتي يخرج، نظرت خلقي استجدي مايا أو ألفت انتباهها فوجدته واقفاً خلقي! شريف! هيته كما رأيته في صورة المرأة، ذاهلاً شاحباً، صدره عارٍ والقميص في يده، يده الخالية من الوشم!! لا أثر للرسم على ذراعه التي اعتصرت القميص بغل كأنه سيهرب! اقترب منها وابتسمت له! نظرت لها بحنان وحزن وحواجب مُشفقة، الغرفة ازدادت وسعاً كملعب كرة بلا مدرجات! يجب أن أفيق، أن أستيقظ، لا أستطيع أن أراه وهو يلقيها.. هل قلت يلقيها؟ كلما اقترب شريف منها صارت الغرفة أكثر زرقة.. أزرق دم غزال.. وصارت ملامحه أكثر صرامة وتصميماً..

قديماي تنهاران من تحتي .. بسمة تنظر إلي .. تستغيث .. قالت كلمة
لم اسمعها .. كررتها فقرأت شفيتها .. أكاد أجزم أنها قالت اهرب ..
تأمرني .. في تلك اللحظة لامسها شريف .. بات بين ساقها .. تركتني
ونظرت في وجهه .. قبلها فأنصهرت بين يديه .. ثم انصهرا في عيني ..
لم أعد قادرا على المقاومة ! فقط ترنحت كمكواة وسقطت ..
بجانب قدم فيل أزرق ..

الفيل هو أكبر حيوان برّي يدبّ على الأرض، نباتي؛ يتغذى على الجذور والأعشاب والفواكه، يمكن للفيل البالغ أن يستهلك ما يصل إلى ١٣٦ كيلوجرامًا من الغذاء في يوم واحد، هذا الحيوان لا ينام كثيرًا، من الجوع، يتجول لمسافات كبيرة تطلعًا لغذاء يكفي جسمه الضخم، أنثى الفيل لديها أطول فترة حمل، تصل إلى اثنين وعشرين شهرًا، خطم الفيل الطويل يُستخدم للتنفس، الصراخ، والشرب، ويحتوي وحده على حوالي مائة ألف عضلة مختلفة..

لَمَّا اسْتَيْقَظْتُ كُنْتُ مُسْتَلْقِيًّا عَلَى أَرْضِ الصَّالَةِ، يَشُوكُ شَعْرَ السَّجَّادَةِ جِلْدَ ظَهْرِي، اتَّخَذَ الْأَمْرَ مِنِّي ثَوَانِي حَتَّى أَغْلَقْتُ فَمِي الْمَنْسِي وَاسْتَدْعَيْتُ رِيْقًا أَبْلَعُهُ لِيَرْطِبَ حَلْقِي الْمَتَشَقِّقَ، سَحَبْتُ ذِرَاعِي الرَّاقِدَ تَحْتِي وَنَفَضْتُ النَّمْلَ الَّذِي نَهَشَهُ مِنَ الدَّاخِلِ وَجَلَسْتُ، بَحِثْتُ بِعَيْنِي عَنْ سَاعَةِ الْحَائِظِ فَوَجَدْتُهَا نَافِقَةً، كَفَفْتُ عَنْ تَغْيِيرِ الْبَطَارِيَاتِ مِنْذُ زَمَنٍ حَتَّى تَعَفَّنْتُ الْعَقَارِبَ، قُمْتُ أَبْحِثُ عَنْ شَيْءٍ أَرْتَدِيهِ فَوَجَدْتُ الْبُوكْسَرَ يَتَسَكَّعُ عَلَى بَعْدِ أَمْتَارٍ، نَادَيْتُ مَايَا، لَا زَالَ الْأَثَاثُ يَنْبُضُ بِخَفْوَةٍ، لَمْ يُمْتْ بَعْدَ، لَعَنَ اللَّهُ قَرَصَ الْفِيلِ الْأَزْرَقِ الَّذِي ابْتَلَعْتَهُ، قُلْتُ لَهَا إِنِّي لَا أَحِبُّ الْكِيمِيَاءَ! اللَّوْنُ الْأَزْرَقُ أَصْبَحَ خَفِيفًا وَانْسَحَبَ الْبِنْفَسْجِي، مَايَا!!!، رُجَّاجَةُ الـ«Absinthe» بَاقٍ فِيهَا الرَّبِيعُ، أَغْلَقْتُهَا

جرصًا وتقديرًا، والتقطت حَمالة الصدر التي أحسدها على وظيفتها
الإنسانية، وجدت في كَفَنها اليسرى بقايا قِرْش الحشيش قدسسته في
البوكسر! مايا لا تعرف أبيها حين يتعلّق الأمر بالحشيش!

.. مايا!!!!!!..!!

دلفت المطبخ أبحث عنها حين التقطت صَوْت دُش الحمام،
مَآيا تفصل خطايا البشرية جمعاء، صَنعت لنفسِي كوب قهوة «دوبل»
واستقررت فوق مِنْضِلة المطبخ أنتظر صفارة الغليان حين داهمني
وجه بسمة، على بُعد ستيمترات من وجهي تصرخ:

اهرب..

سَرَى في جسدي تيار كهربِي فسقطت من فوق المنضدة! قبل أن
أصل للأرض تداركت الحلم فجأة، كان مَنسِيًّا في ركن من أركان
عقلي، لقد رأيتها، رأيتها ولمستني! ورأيت شريف، أغمضت عيني
مُحاوَلًا الحفاظ على بقايا الرؤية التي شاهَدتها، كتمت أنفاسي
وغطيت أذنيَّ يديَّ حتى لا تهرب التفاصيل، استجمعت المشهد
كاملاً في لحظة:

اهرب..

لِمَ نصحو دائماً قبل النهاية؟! قبل سقوطنا من سَلَم وقيل حريقنا
في قرن.. وقيل أن يمزقنا وحش..

وقيل أن نموت «بسمة»!

هل ألقاها؟ أم أَلقت نفسها؟ فتحت عينيَّ لَمَّا ظهرت كلمة النهاية
في جفوني، اختفى اللون الأزرق وكُفّت الحوائط عن النبض!

لم أعد في المطبخ!!

أنا مُستلقٍ على كُتْبة الصَّالة، وبجانبِي مايا توليني ظهرها الموشوم،
منى رسمته؟ وجه «جدي» كبير مُشعر مُتقن الرِّسم، قُرُونُهُ طَوِيلَةٌ تصل
حتى كَتْفَيْهَا، جَدِي!! اللُّعْنَةُ عَلَى ذَوُقِهَا، عَقْرِبَ سَاعَةِ الْحَاطِطِ يَسِيرُ
بشَكلٍ جَيِّدٍ! عَكْسُ اتِّجَاهِهِ!! وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ رَابِضٌ أَمَامِي يَحْرُسُ
مَدْخَلَ الْغُرْفَةِ، يَرْمُقُنِي بِمُحَجَّرِيهِ الدَّمُوعِينِ وَصَاحِبِهِ مِنْ وَرَائِهِ، صَاحِبِهِ
الَّذِي زَارَنِي مِنْذُ أَيَّامٍ، غَارِقًا فِي ظِلَامِ الْغُرْفَةِ لَمْ أَتَيْنِ مَلَامِحَهُ، فَقَطْ
أَعْرِفُ أَنَّهُ يَنْظُرُ لِي، يَتَخَلَّلُنِي، يَنْهَشُنِي، نَظَرْتُ لِمَايَا فَرَأَيْتُ الْجَدِي
الْمُوشُومَ يَتَنَفَّسُ عَلَى ظَهْرِهَا فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَزْعَجَهُ، حَاولْتُ الْقِيَامَ فَتَأَنَّبَ
الْكَلْبُ، غَرَزَ بَرَائِثَهُ فِي عَشْبِ الصَّالَةِ الْأَخْضَرِ وَزَمْجَرُ، نَظَرْتُ لِمَ صَاحِبِهِ
فَلَمْ أَحْتَ ابْتِسَامَةً.!

ايتساعة صخرية..

كان ذلك حين فتحت عيني..

صالحه

فوق الكتبة كنت مُلقى بإهمال، قاتلت لفتح عيني في ضوء
الشمس المُبالغ الذي غمر الشقة، الشمس!! كائن أصفر مزعج
ليس له قاع ولن يفوتك! رمقت ساعة يدي فوجدت عقربها يسير
بشكل صحيح، العاشرة والرابع، السجادة كما هي وليست خضراء،
اختفت الأبواب، وزجاجة الـ Absinthe باق فيها ريعها، أين مايا؟
قُمت إلى غرفتي وفتحت بابها، فوضعتي المعتادة كانت سائكة مطمئة،
ماااايا! ليست في الحمام، ترنحت إلى المطبخ، ماياااا! لا شيء،
حتى في الحديقة المنسية الجرداء لم تكن تُحسني قهوتها، اللعنة،

بالتطبيع ذهبت لشركة المنصب التي تعمل بها، رجعت للمصالحة ووقفت
أتمل الكنية، مايا ذهبت لعملها وتركت حبسها، زجاجتها، حمامة
صدرها «المحظوظة» ولباسها الأرجواني المقدس! أمحال! أمسكت
تليفوني وضربت اسمها فلم أسمع نغمتها! مايا! دُرت في الشقة
مرتين قبل أن أخرج للشارع، وقفت «عيطًا» لا أعرف أين أذهب،
أجول بعيني بحثًا يمينًا ويسارًا، وعند أقرب كشك، قبل أن أنتبه
لجاراتي المُسنّة التي وقفت ترمقني! مدام كوثر، تكرهني تلك السيدة
منذ ماتت زوجتي، كانت صديقتها وأما ثانياً لها، وبالطبع حكمت
لها عني وكيف كانت الحياة «مثالية» بيتنا، فكيف حين تراني واقفاً
بالبوكسر في عرض الشارع!

المحبة كلها..

- صباح الفل يا مدام كوثر...

حرقني بنظراتها وانسحبت للداخل.. فلتذهبي للجحيم
على حسابي..

أين مايا؟

لا بد للأقراص اللعينة التي بذرتها فوق لِسَانينا أن تكون لها يد
في اختفائها! هذا بخلاف الـ «Absinthe»، كوكتيل الجنون، ربما
قررت مايا أن تمشي على الكورنيش بتلك «الدماغ»، اللعنة! ما نوع
ذلك القرص؟ قرص الفيل الذي فتح لي ثلاثة أبواب لم أتفقد منها
إلا واحداً، لكنه باب بألف باب! قلبت حقيبة مايا حتى عثرت على
العلبة، كانت فارغة لا أفيال فيها، احتاج قهوة، لا، بيرة مثلجة، اتجهت
للمطبخ ورفعت زجاجة نسيب أن أضيفها لهرم الزجاجات، يُطاردني

هاجر أن المجنونة قد تكون ركبت ميكر وياصر إلى دار السلام !
لا أستطيع تخيل ذلك الكابوس، غسّلت أفكاري ووجهي في حوض
الحمام حين لاحظت الدماء في يدي، نثرت خفيفة حول قبضتي
وقرب رُسغي، دماء جافة مرّ عليها ساعات بجانب ورم خفيف في
منتصف البنصر !! غسّلت يدي بالقلق والتوتر قبل أن ارتدي ملابسني
لأبحث عنها، في الطُّرقة أوقفني باب الغرفة، غرفة ابتي نور، بابها
الذي لم يُفتح منذ ماتت، كان مواربًا! فتحت، الظلام كان مُسيطرًا رغم
النهار، ستائر الغرفة القُرْمزية ضربتها الشمس فسكبت نبيذها على
الدولاب والسرير وصور ابتي التي غطّت الجدران، كُل شيء في
مكانه كما هو منذ خمس سنين، لعبها، دولابها الوردي، وبيجامتها
المفضّلة، فقط تفصيلة واحدة كانت غريبة على الغرفة، مايا! كانت
راقدة متكوّمة في مُنتصف الغرفة، تُضمّ ساقها إلى صدرها وجبهتها
مدفونة بين ركبتيها، ذراعها مُرتخيتان بجانبها وشعرها مسجى فوقها
ناموسية تُخفي ملامحها، تهزّ جسدها إلى الأمام وللوراء في رتابة
أسطوانة مشروخة..

- مايا!!

توقفت عن الاهتزاز وإن لم تجب، اقتربت منها وجثوت على
ركبتي، ما إن لامست كتفها حتى صرخت مُمزّقة طيلة أذني قبل أن
تتفض واقفة وتنظر لموضع لمستي كأني الطاعون ذاته..

مايا لم تكن على ما يرام..

لم تكن مايا التي أعرفها إذا صبح التعبير..

عينان حمراوان مُحترقتان، أنف يتزّف، وكسر في منتصف رُسغها

الأسير جعله ليّناً كالعجين مُتدلياً تكاد أنامله تلامس الكوع لو رفعت
يدها..

- مايا 11 إيه اللي... 119

لم أكمل جُمْلتي، تراجعت المسكينة هلعاً حتى اصطدمت
بالحائط، رُعبها منّي فاق إحساس ألمها الجسدي، اقتربت منها
محاوِلاً احتواءها..

- مايا.. فهميني إيه اللي...

- كلب..

- إيه؟ مايا 11

- كلب..

لامست ذراعها السليمة أقربها منّي، وكأنني الكهرباء ذاتها
صَرَخْتُ الماءَ نظرت في وجهي للحظة، لحظة شعرتها ساعة، عيناها
كانتا تحملان كلمات أوشكت على قراءتها قبل أن تدفعني فتعثرت
في السجادة ووقعت، نَحَرَجْتُ من الغرفة رَكَضاً وأغلقت الباب
وراءها بالمفتاح، ثم ألكت نفسي وقُمت، شددت الباب جَلْدًا لثلاث
دقائق حتى النخيل المقبض فالتفت للنافذة، نَزَعْتُ العوارض الخشبية
التي أغلقت بها الشيش منذ خمس سنوات، انفتحت بفرقة شديدة
بعد ليّس قبل أن أتدلل على العُشب، مَسَحْتُ الحديقة الجرداء
فلم أجدها، ركبت يميناً ويساراً على الرصيف ولا أثر لها، ثواني
ولاحظت زحام الناس يتكثّل حول نقطة على بُعد ثلاثمائة متر..

طاووس، قرد، أسد ثم خنزير..

طبقًا لكتاب «حَلَب الكَمِيت»، المَرَجع الأقدم في الخمر، جاءت تلك الفقرة وصفًا لمراحل الشُّرب:

بعد أول كأس ستنتشي وتزدهر ألوانك كالطاووس.. مع الكأس الثانية كالقُرْم سيجتاحك اللعب والتصفيق والرقص.. بعد الثالثة ستُعيد وتعبث في المكان حولك «أسدًا» لا مُكافئ لك، قبل أن تنفوه بما لا فائدة منه.. وبعد الكأس الرابعة ستنطفئ كالخنزير السمين.. سترقد مكانك مفكوك القوى تُطلب النوم فيدهسك دهسًا كما دُهِست.. مايا..

لم يكن لكتاب من الكتب أن يتكلم عن المرحلة الخامسة..
مرحلتني أنا..

فقدت مايا ذلك الصباح..

فقدتها كما فقدت زوجتي وابنتي.. ونفسي.. بسهولة شديدة جدًا
لمن لا يعرف..

اللحظة التي سحقتها فيها السيارة حُفرت بسكين سَاخن على
نعاريح مخي بجانب النصب التذكاري لزوجتي وابنتي..

لن أحكي عن دمائها التي نمتت بجانب الرصيف قبل أن تتجلط
قرب قدمي..

لن أحكي عن شعرها المبعثر ولا عن فستانها الذي طيره الهواء
فتعرت..

لن أحكي عن الشاب الذي وقف ينظر لجشتها باشتهاء حتى وجدوا
لها جريدة تُداريها، ولا عن وجهها الذي طبع ملامحها بالدماء على
الجريدة..

لن أحكي عن رائحتها التي لم تغادر صدري بعد.. ولا عن إنكاري
معرفتي بها لما سألوا عنها الواقفين..

لكني قد أحكي عن خذلاني لها كما خذلت كل من حولي من قبل..
ولا زلت..

ساعتان قضيتهما أتابع من بين المارة العجسد المسجى على
الأرض حتى أنهت الشرطة عملها وحملتها سيارة إسعاف إلى
المشرفة، ما هي إلا ساعات ويعيشون بجسدها ليفكوا شفرتها،
كسر رؤسها الحديث في الأغلب سيضمونه لكسور الحادث، ونزيف
أنفها لا شيء بجانب ما نزفته على الأسفلت، سيعثرون على بصماتي
ولعابي ولن يجدوا لها مرجعاً، أما حيواناتي، فأمنة لم تتجول مرة في
جنة مايا، لم تكن تحب الأطفال لكنها دائماً ما كانت تقول إنها تمنى
طفلاً يحمل ملامحي..

كم أنا حقير أن يمتد تفكيري لذلك وجسدها لم يرد بعد! لكني
اعتدت منذ زمن قسوة خواطري.. حادة متحجرة لا مشاعر فيها..

استطاع القول بأنني لم أعد أشعر بذنب.. تجمّدت.. باتت الأحداث
مبانٍ عندي.. حسناتي كسبناتي.. طيخ مسلوق بلا ملح.. حتى
عينايا نسيتا البكاء.. ما الذي يحملني على الاستغراب ودين البكاء
على ابنتي وزوجتي لم أسدده حتى الآن؟

بعد ثلاث ساعات دُرت فيها كالتائه أمسح الشوارع، وجددتني
في بلكونة عوني استنشقت دخاني واحتسي نفسي، مذاقي مُختر
منفن ككأس نبيذ مفسوش، وألف فكرة في رأسي تراحت على
باب ضيق لتخرج منه قبل أن تموت معظمها من التدافع، أغمضت
عيني علي أفيق فأجد مايا بجاني، لعل مفعول القرص ما زال مُمتدًا،
لعل الحلم كابوس ومياتيني الفيل الأزرق طائرًا بجناحين، أمسكت
بسبجارتني وفتحت راحة يدي قبل أن أدفن النار فيها، انتفضت حرقًا
لما تأكدت أنني لا أحلم، لقد ماتت مايا يا يحيى، صدق، ماتت أم
ثلاثها؟ سؤال لا إجابة له عندي، اللعنة، لم لا أذكر ما حدث!! فقط
يُدهمني منظر الدماء على يدي وأنا واقف في الحمام فأنقبض، هل
لقرص أن يكون له مثل هذا المفعول؟ أقتلها بدون أن أدرك! أم أنها
زجاجة الـ «Absinthe»؟ ربما الاثنان معًا؟ هل تعرض شريف لمثل
هذه المؤامرة على نفسه؟ قاطعت «نيجوزي» الخادمة قبني النفسي
لما نقرت كفتي، سألتني بإنجليزية إفريقية إذا كنت على ما يرام فقد
سمعتني أصرخ، شكرتها بهزة رأس فنظرت لكفتي التي اعتصرها
يدي، التقطتها وأزاحت أصابعي فلمحت الحرق..

- نيجوزي.. أنا كويس..

نظرت في عيني مُدققة قبل أن تتبدل ملامحها إلى أسى وقلق..

.. «Come please» ..

سحبتي من يدي كخروف لقيط وتركت نفسي، دخلنا المطبخ
فاغلق الباب وراءنا، أقعدتني على كرسي عالٍ وأخرجت مُطهرًا
وقطنا كبسته على يدي قبل أن تنظر في عيني..

.. «There is something.. not good» ..

.. أنا كويس يا نيجوزي.. صديق عزيز مات النهاردة..

ثم تذكرت أنها لا تجيد العربية فترجمت بالإنجليزية ولم تسمع
ترجمتي..

.. «Please wait» ..

ضغطت على الحرق وهي تتأمل وجهي بتركيز شديد قبل أن
تنزع شعرة من رأسي!

.. أي.. إيه يا ست ده؟!

اللعيبة ستسحرني ضفدعًا!!

دفنت الشعرة في كفها وأغمضت عينيها ثم رثلت شيئًا ما بلُغتها
قبل أن تفتح عينيها وتردف:

- «You had been touched.. Something no good.. It's a
warning.. Only a warning»..

لم أكن لأتحمل هذا الهراء، نظرت لها ممتنًا قبل أن أقوم، أمسكت
برُسفي تستيقيني، فتحت راحتي اليسرى تُعاین الخطوط الغائرة ثم

امسكت بالخنصر والإبهام واعتصرت اليد عكسياً حتى لامست
خُدود الألم وأصبحت الخطوط واضحة جلية، دَقَقْتُ في الخط
الآخر الخارج من الكف إلى اليمين ثم نظرت في عيني..

«Can you give me 50 pound?»

يا نهارك أسود.. والله أنا ما ناقصك..

أخرجت من جيبي عشرين جنيهاً لأجل خاطر عوني وناولتها
حين أصرت:

«50 pound»..

أخرجتهم من جيبي ودمستهم في كفها محاولاً كتم غيظي..
«يا سيّتي ما حدث قالك اقري الكف ولا عزمي.. أنا مش ناقصك..
قلت لك كويس..»

تركتها وخرجت ألعن البيت وأصحابه، تبعني نيجوزي ترطن
بشيء لم أدركه وعند الباب استوقفني عوني.

«مالك يا Man» مش في المودا فيه حاجة؟ أنت مروح؟

خدجت نيجوزي بشرو..

«مرّوح.. تعبان شوية».

لمع عوني نيجوزي التي تراقبنا..

«البت دي زعلتك؟»

«الولية دي مجنونة».

- عملت إيه؟

- فُيرت لي الكف وبخرتني من غير ما أقولها وطلبت
خمسين جنيه..

- «Bitch!! Sorry ya Man» هاجيهم لك منها، دي أول مرة
تطلب فلوس، هاكلّم المكتب بتاعها بكرة...

- بس بس بس مسيها خلاص ما تكبرش الموضوع.. همتا في
إفريقيا عايشين على الشغل ده.. أنا مسامح..

- وقالت لك إيه بقه؟

- أنت مش عارف إيه.. وخد بالك وبتاع.. وآخر إنذار.. كلام
في الحمام..

- يا دكتور يعني تشتغل ترايزة باللي عليها وتيجي بت من رواندا
تشتغللك!!

- اللي حصل..

- مش هتلعب النهاردة؟

- مش في المود..

- أخرج من جيبه قطعة حشيش صغيرة تكفي ليلة..

- طَب خُذ دي.. «Cadeau» مني.. بدل نُصَب..

- مش النهاردة يا هوني.. مش النهاردة..

- رحلت وسط استنكاره وشجبه ومعارضته الثامة لرفض الحشيش.

أول مرة أرفض فيها نبتي المقدسة! كنت أحتاج لذهن خالٍ من
أي تدخلات أجنبية..

تمشيت حتى البيت، عند البقعة التي تركتها مابا على الأسفلت
نوقفت أنامل ولم يطل وقوفي، انهارت ركبتي فقعدت على الرصيف
أنزف الصمت حتى تقيأت، اللعنة عليّ، وعلى كل من حولي واجبة،
وعلى لمستي السحرية التي تذهب بهم للجانب الآخر، الجانب
الذي لن أكون فيه حين أموت، أكاد أشعر بهبوط السكر يحاصرني،
ينلغمني، في لحظة بلل العرق جلدي وبدأ نفسي يتهدج، قُمت إلى
البيت والنبضات تطرق أعلى صدري ببطء، أخرجت جهاز قياس
السكر الذي لم أستعمله منذ زمن، ثبت إبهامي ووضعت قطرة على
طرف مسطرتي، ٥٠ جاءت القراءة، رسمياً سأسقط ميتاً بعد دقيقة
من الآن، أو أنني بدأت بالفعل، تسانددت إلى الحوائط حتى المطبخ
وفتحت الثلاجة، لا شيء فيها سوى جبنه وترمس وخيارتين تالفتين،
لعن الله مزات الخمر ولعن الوحدة، بدأت عيناّي تخبوان وأنفاسي
تسلق الجبال، لامست ركبتي الأرض لا إرادياً، تمشيت عليهما
حتى هلبة السكر فوق الرخام، كانت على بعد ساعة من مكاني،
وصلت فمددت يداً صفراء باهتة ترتجف، بالكاد التقطت العلبة،
كانت تزن مائة كيلوجرام، رفعتها بصعوبة قبل أن نسقط سوياً على
الأرض، بما تبقى لي من شحن في بطاريتي فتحت غطاء بثقل غطاء
بلاعة، دارت فرأيت السكر، رفعته فوق فمي وحشوت، كان ذلك قبل
أن يهبط سقف المطبخ تدريجياً ويمتلئ نجوماً صغيرة..

لم يتزعني سوى جرس المحمول، لم أُمّت بعد، مَدَدت يدي
إلى جيبي وميزت بالكاد ساعة الشاشة، كانت تشير لنصف ساعة

من الغرق بعيدًا عن السكر، الجرس لم يكن منبعثًا من تليفوني، كان
آنيًا من تليفون شريف، أخرجته من جيبي ونظرت للشاشة التي لم
تُظهر الرقم..

- ألو..

- عامل إيه دلوقتي؟

نفضت السكر الذي امتزج بالعرق على وجهي قبل أن أجلس
محاولًا استيعاب الصوت..

- أنت بتكلم مين؟

- فآكر آخر حاجة قلتها لك؟

اجتررت سريعًا آخر كلماته في المكالمات السابقة..

- قلت مش صعب أقنعك!

- ذاكرتك ممتازة.. واقتعت؟

- يلإيه بالظبط؟

- إني مش شريف..

- مين اللي اذاك تليفون؟

- مين اللي قتل مايا يا يحيى؟

سَاد الصمت لدقيقة لزجة ابتلعت فيها لساني وانخفضت خلايا
جسدي، قُمت أفرك وجهي وأبحث عن شيء أستند عليه حين كُسر
السكون بأداة حادة..

- الإنسان ده غريب.. إزاي هان عليك تسيها تخرج
بالمنظر ده؟

- أنا ما لمستهاش..

- متأكد؟

- متأكد!

- الصور اللي في تليفونها بتقول حاجة غير كده..

مَجْنُونًا خرجت للصالة أبحث في متعلقاتها عن تليفونها.. اللعنة..
أين اختفى!!

- صور إيه يا شريف؟

قاطعتني:

- ثاني شريف!

صرخت فيه:

- نحب أنه أمك إيه؟

- ما تفقدش أعصابك.. أنت محتاج لها.. قول لي.. مايا
ولا لبني؟

أفرغت حقبتها على الأرض.. كرايب لا حصر لها ولا أثر
للتليفون..

- مايا ولا لبني إيه؟

- أطعمم..

- انحنيت تحت الكنبه أبحث .. لا أثر ..
- لو فيك جرأة قول الكلام ده قدامي لما أشوفك .
- متهيناً لي دلوقت هتفوق للبنى .
- دخلت الغرفة أبحث عن التليفون .. لا أثر له ..
- زي ما أنت قتلت بسمه عشان واحدة تانية؟ صح؟
- لسه بتخلط ما بيني وبين صاحبك .
- شريف ما يقتلش .
- كل اللي قتلوا كان بيتقال عليهم كده .
- أنت اللي أجبرته .
- للأسف دايمًا أنا كبش الفدا لكل نزوة .
- أخيراً عثرت على التليفون في أرض الحمام ..
- أنا جاي لك دلوقت .
- تيجي ليه .. أنا معاك في الشقة .

انقطع الخط وركضت ضربات قلبي، كم أشل عقلي عن التفكير،
التفت حول نفسي كضربير فقد عصاه، اللعين يُلاعِبني! تعرّقت
في لحظة فرّجت بظهري للحائط أفتح فمي كي يتسع مجال أذني
في التقاط أي صوت، نافذة الحمام خلفي كانت تطل على أغصان
الشجرة التي تتوسط الحديقة، استللت عصاة المسحة وخرجت
ببطء أمسح الشقة، لم أترك حتى الدواليب وأسفل السرير، لا شيء،

..الجماعة جايين من الكويت أول الشهر إن شاء الله..

رجعت شقتي وأغلقت الباب، اللعين زاولني ونجح، التقطت تليفون مايا وفتحت، بملف الصور كان هناك أكثر من عشرين صورة أجبرتني أن أراها بوضوح أكبر، أخرجت شريحة الذاكرة بأصابع مرتعشة من بقايا الهبوط وفتحت الصور على الكمبيوتر العتيق استوضح التفاصيل، الألبوم يُشبه مجموعة صور شريف وزوجته التي عثرت عليها في كاميرا تليفونه، صور لا أتذكر أنني التقطتها؛ مايا وهي نائمة، غارقة بين عبق الـ Absinthe وأقدام الفيل الأزرق، كل تفصيلة أحييتها موجودة، لم تغفل الصور واحدة، حتى أصابع قدميها المنمقة، تلها مجموعة قاسية تُجَلِّ ملامح وجه يتألم وعينين جاحظتين تستجديان النجاة، ويدي تأخذ صورة تذكارية فوق عُقْمها! نعم يدي! تلك الصور كانت في غرفة ابنتي! مع آخر صورة شممت رائحة حريق تصاعدت من قدمي إلى رتي قبل أن تصنع بقعة داكنة في السقف من فوقي..

مبروك.. لقد قتلت مايا!!!

تنافست الديدان في التهام رأسي من الداخل، انتابني صُداع شديد أطلق النبض في مؤخرة رأسي، لم أدر بنفسي إلا وأنا أتعامل، أتعامل كما يتعامل أي قاتل ماجور يُكوّن نفسه ليتزوج ويُنجب، جَمَعْتُ أغراض مايا في كيس كبير، مَلاَبِسها وحقيبتها بمحتوياتها وحذائها والقبلات التي تركتها على رقبتني، لم أستبق سوى صور تليفونها على الكمبيوتر في ملفٍ مخفي، صُورنا التذكارية الأخيرة، ثم وضعت الكيس في البانيو..

عزيزتي مايا.. أرجوك لا تغفري لي!

شربت نصف زجاجة بيرة وأفرغت النصف الآخر على الكيس ثم
اشعلت النار، دقائق وصارت ذكرياتها رمادًا ودُخانًا خائفًا، اتصلت
بالمستشفى أسأل عن شريف، لم يغادر اللعين سريره!!

كيف عَرفَ بأمر مايا؟

سقطت مني ثلث ساعة قبل أن أجِد نفسي في تاكسي، طريق
المُستشفى كان مُزدحمًا، أحرقت عشر سجاائر وجزءًا من الكنبه التي
أجلس عليها قبل أن أصل، حين أصبحت أمام باب الغرفة كان أمين
شرطة المُكلف بحراسة شريف مُلقى على كُرسيه البلاستيكي يضع
راديو «تراتزستور» على أذنه، أبرزت له كارتيه المستشفى ثم نظرت
في عينيه وسأله بهدوء:

- إزاي تخلي حد يخش للمتهم بالتليفون؟

تكنيك سريع لكشف الكذب، تُباغت فيه الخصم بسؤال مُخرج
لن يجد جسده مفردًا من إرسال إشارة كذب بشأنه..

- نعم!!!

إجابته كانت تكفيني.. لغة جسد الرجل صادقة.. تركته غارقًا
في استنكاره ودخلت.. شريف كان مُكبلاً من قدمه كما تركته..
مستيقظًا شاخصًا يبصره للمحائط قبل أن يلتفت لي ويبتسم.. أغلقت
الباب واتجهت لسريره:

- فين التليفون اللي معاك؟

لم أنتظر إجابة، فتشت الغرفة وكدت أخلع الأرضية ودهان
الحيطان قبل أن أزيح شريف من فوق السرير..

انزل.. انزل...

لم أتمالك أعصابي وهو يرميني بابتسامته الباردة، بغلظة قبضت
على عضده وأنزلته على الأرض، لم أستطع إقصاءه إلى ركن بعيد
بسبب قدمه المكبلّة بالسرير، نفضت المرتبة والمخدّة، لا شيء،
انقضضت عليه أفقش ملابسه، بعثرته وكدت أنبش الشاش الملفوف
حول جرح فخذه، تراخي واستسلم حتى انتهيت بلا شيء، أخرجت
تليفون شريف من جيبه!

ها أنا بدأت أتكلم عن شريف كأنه غائب!

شخص آخر غير شريف الجاثم على الأرض تحت قدمي!!
على طريقة برايل ضغطت على قائمة المكالمات وتلمّست ضريحاً
آخر رقم اتصل بي، ضغطت زر «Call» الأخضر وانتظرت، ثوانٍ
وسمعت جرساً، نغمة أعرفها، نغمة تليفوني!!! أخرجته من جيبه
ونظرت في شاشته، كانت تنبض برقم مجهول!
ألو، ألو..

لم أسمع سوى صوتي في سماعة التليفون والصّدى الآتي من
حيطان الغرفة، أغلقت الخط وأغمضت عينيّ للحظات مُحاولاً
الاتزان، لم أملك غير جذبته من ياقته والصّاقه بالأرض قبل أن أجثم
فوقه وأنظر في عينيه بحثاً عن الشخص القائم بأعمال تلك اللحظة،
هل هو شريف؟ أم صديقه المزعوم نائل؟ لم يُبدِ مقاومة تذكر، رمقني
ببُتات انفعالي يُحسد عليه..

- كلمتني من تليفون مين؟

الصمت والسخرية علي جانبي شفتيه عرّفاني مَنْ أَكَلَمَ..

- رُد.. عرفت منين؟ مايا؟

- المُرَاقِبَة بتخلّي الوقت يمر أسرع.

- إيه المتعة إِيّك تلاعبني؟ أنا الوحيد اللي بيحاول يساعذك هنا!!

- المُتَع نسبية.. فيه ناس بتأكل عناكِب في الصين.

- فَهَمَنِي؟

- خدمة قصاد خدمة.. الجرح بينزِف.

ملامح وجهه وابتسامته قالتا إن التهديد معه لن يكون مجدّيًا..

كان عليّ فتح باب التفاوض.. تركته يقوم ويجلس فوق سريره..

مكان جرحه نشع نقاطًا دموية من عنفي معه.. استوى ونظر لفخذه

وتلقسها قبل أن يتسم..

- جرح كبير.. ماكانش المفروض يعدّي.

- اتكَلَم.

- عاوز أعمل معاك جلسة.

- جلسة؟

- بقالي كثير ما اشتغلتش.. إيدي بتقل وهانسي الشغل.. وحشني

دور الـ (Psychiatrist) ..

- أنا مش فاضي للتهريج.. مين اللي جاب لك التليفون؟

- احكي لك بعد الجلسة..

- ماشي.

- ورقة وقلم؟

أخرجت مفكرتي التي أحملها دائماً.. انتزعت منها ورقة وناولته قلمي..

- استريح.. عاوزك تكون «Relax» على الآخر.. خُذْ نفس عميق..
فكّر في مكان لطيف تكون بترتاح فيه.. أو حدّ تكون بتحبّه.. مايا
مثلاً..

قالها بقسوة ساخرة.. وياحترافية طيب نفسي حقيقي.. جلست
على الكرسي المقابل للسريّر مُحاولاً الحفاظ على أعصابي..

- افرد رجلك.. وفكّ ذراعتك من فوق صدرك..

بجزّة على أسناني قاربت كسرّها صبرت..

- الأول قبل ما نتكلم نتفق.. مافيش كذب.. ده مهم عشان الجلسة

تمشي صح..

....

- ومافيش سؤال مالوش إجابة.

- ماشي.

- احكي لي..

- احكي عن إيه بالظبط!!

- احكي لي عن أسود حاجة فيك..

- أنت مجنون!!

- فضفض.. خُذ راحتك.. صعب؟ طيب.. أسهلها عليك.. إيه

شعورك لما شفتها بعد السنين دي؟ لُبنى.

- زي شعوري لما شفتك بالظبط.

- إيه! عاوز تمارس معايا أنا كمان!!

- استغراب.. مفاجأة..

- لسه شايل لشريف رفضه إنه يجوزك أخته؟

- الحوار ده بقى ماسخ.

نظر في وجهي جيداً ثم ابتسم..

- عشان بيلمس عندك حاجة؟

- حاجة خلصت.

- اتفقنا بلاش كذب.. عارف إتك لسه جواها؟

- أيا كان.. مش مهتم.

- عارف مين أجمل أنثى؟

....

- الأنثى اللي لسه ما دوقتهاش.. الأنثى المحرّمة.. سكوتك يعني

باتكلم صح..

- بُنى متجوزة يا شريف.. أو أبًا كان اسمك.

- دي بداية تفاوض.

لم أعد أطيق مُحاصرته.. بعثرة أكثر أفكارى تُطرقاً على أرض
الغرفة ليست بالشيء اللطيف.. اقتحام قبوي المظلم الذي دفنت فيه
لُبنى.. حَيّة.. القبر الذي يحوي أحلاماً ورغبات جاهدت لأخفيها..
ولم أفلح..

- أعتقد إن فرصتك جت.

- فرصة إيه؟

- فرصة إنك ترجع للحياة ثاني.. يحيى.. إنت بدأت سِكة
الجنون.. شهور وتهيجي المستشفى زيك زي المرضى بتوعك..
معقول هتسيب نفسك!! خليني أساعدك..

- أنت بتخوّف.. ساعد نفسك.

- مش مصدّقني!

- مش مُهتم.

- لو مش مُهتم بنفسك.. اهتم بيها.. بُنى محتاجة لك.

- كفاية تهريج لغاية هنا.

قمت إليه وسحبت الورقة التي لم يتوقّف لحظة عن الكتابة
فيها وهو يتكلم معي.. كورتها وأقيتها ووقفت أتأمل بروده
اللامتناهي..

- سُؤال واحد عاوز إجابته دلوقتي.. كلمتني مين؟

ابنسم ولم يجب..

- مين اللي بيراقبني؟

- كل واحد بيراقب نفسه.. لو خربشت نفسك كنت هتلاقيني جوة.

- إيه؟ جن؟

- خيالك واسع.

- مش خايف على نفسك لو شريف اتعدم تتعدم معاه!!

- شريف غلط ولازم ياخذ جزاءه.. ح ترضاها؟ ترضى إنه يقتل

ويطلع بريء؟

- مش هتعدم لو عندكو... أقصد عندك ازدواج.

- الازدواج مش مُعترف بيه.

- كل حالة ليها استثناء.

- لو كلمت الله هتقول عليا باصلي، لكن لو هو كلمني! تستيها

ازدواج!!

- ربنا بيكلمك!!!

- طبعا.. ده السميع البصير.. لا يخفى عليه شيء.

- أنت بتخرف.

- مش موضوعنا.. الجلسة جلستك.. خليك «Professional»

بادكتور.. سيب شريف يواجه مصيره اللي مكتوب له قبل ما يتولد..

مش غريبة دي!! إن مصيره يتكتب قبل ما يتولد! مسكين شريف.

- شريف مش هيموت ..

- شريف قتل .. ولازم يموت .. دراما الحياة هي اللي بتقول كده ..

- إفا كان فيه حد هيموت فهو أنت ..

التفت حول السرير والتخطت قطعي جهاز الصدمات الكهربائية بعدما تأكدت من غلق الباب جيداً .. نظرت لي بقلق وأنا أسحب الأقطاب وأصكها .. جزلوي سن سكاكته .. لم أمهله ليفكر .. ضغطت زر الشحن وانقضت عليه دافئاً الأقطاب في صدره .. غمدتها فانتفض بقوة وضرب ظهره السرير قبل أن يخمد .. مرّت ثاتيتان جدافاً .. توقفت قلبه بدأ يرسم على ملامحه .. تراخى ومكن كما تسكن السمكة خارج الماء .. قتلة أخرى في أقل من ٢٤ ساعة! رقم قياسي لسفاح! لبث ثاتية أنامله قبل أن أتمالك نفسي وأدفع زر الشحن ثم صككت الأقطاب وغمدتها في صدره ..

- «Restart» ..

انخفض ثاتية وتقوس ظهره قبل أن يفتح عينين أخريين غير اللتين تحلّمتا معي منذ دقائق، أمسك يدي واعتصرها فاقتربت منه .. قمت في أذني بحشرة مئّرت منها:

- قميص مامون .. معاك؟

- مامون مين؟ القميص ده إيه قصته؟

- بسمة ..

- مالها؟

..

نرفرت عيناه واختلج صدره..

- بسمه ماتت؟

- أبوة يا شريف..

نظر لي بعينين غير مُصدقتين فعاجلته بسؤال خوقاً من ضيق
وقت انفصاله عن الصديق الذي يزاحم عقله.. سيستعيد السيطرة
في أي وقت..

- مالها بسمه؟ احكي لي.. فهمني أي حاجة؟

-...!!!

حُشرت الحروف في حلقة ففتح فمه حتى كاد يتقيأ..

- الشقة.. فـ فـ.. في الـ....

- فين؟

اعتقد أن ما قاله كان يقصد به مكان القميص إلا أن لسانه قد خانته،
دليله من بين فكّيه كلسان ضفدعة تلتقط حشرة طائرة، ثم نطق بجملة
طويلة حروفها مبعثرة غير مرتبة، وبلا ترجمة أسفل ذقته!! ليست لغة
أخرى، هي فقط سُلطة من الحروف لم أفهم منها شيئاً، نظر لي بعدها
بعينين صامتتين لا معنى فيهما..

- شريف.. مش قادر تتكلم؟

أشار إلى زوره إشارة اختناق.. فتحت قميصه وضغطت زر
استدعاء التمريض وأمسكت الورقة والقلم.. دمستهما في يده..

- اكتب أي حاجة مش عارف تقولها.. أي حاجة.

أمسك بطنه وتهذج نفسه بشدة وبوهن شديد رسم مرحاضاً..
- إيه.. عاوز نخش الحمام؟.. ماشي بس كمل.. ركز يا شريف
الله يبارك لك.

دخلت الممرضات في اللحظة التي أفرغ فيها معدته، على صدري
ولم يَخَلْ أَلَيْتِي استجبت لرسمه المرحاض لم يكن قد أكل شيئاً
غير الجلوكوز، لكنه صبح قميصي برائحة كالقبر، كان ذلك قبل أن
تُزع بطاريتَه ويُغرق في إغماءة، انسحبت ناركاً طيباً وممرضين
يفحصانه حين لمحت على الأرض الورقة التي كان يخط فيها بالفلم
أثناء حوارهِ معي.. فتحتها فوجدت فيها رسماً.. رسماً دقيقاً لجسد
أنثى عارية شعرها طويل! بلا وجه!! رسماً يشبه رسوماته التي وجنتها
وراء المكبة في الشقة..

لعت اليوم الذي عاد فيه شريف إلى حياتي..

لعت اليوم الذي عادت فيه أُنِي..

ولعت اليوم الذي وطأت فيه المشفى..

شريف سيقط تحت الملاحظة متوقفاً إجبارياً حتى يُدخل إلى
العباسية وسيبقى في غرفة العزل حتى يُشفى جرح فخذه..

في طرفي للبيت اشترت زجاجة «Jack Daniels»، كك
مُكبر مُحترم لا يستطيع أن يشتري الشيفاز، أخفيها في كيس لباد
مثلما يُخفي المراهقون أفلام الكس تحت مسمى «سيكوميكوا»
تمويهاً!! لم أدخل الشقة، حاولت إقناع نفسي لكنني فشلت، قط
خلعت القميص وغسلته بماء خرطوم الحديقة قبل أن أنشره على

الشجرة ونزعت حذائي، لامست العُشب الضامِر في الحديقة أبحث
بعيني عن ركن لن تزوره شمس الغد، على صوت صراخير الغيط
الرتيب، استندت على الشجرة المُحتضرة وشربت من الزجاجاة حتى
لمحت مايا قادمة من بعيد...
كنت أحتاجها بشدة..

حين استيقظت كانت ترمقني بقرف واشمئزاز، كأنها تتابع
صرصار يحتضر، لوت شفتيها في كراهية ممزوجة بقيء وهزة قدم
رتيبة نافد صبرها، جلست نصف جلسة أحمي عيني من الشمس
قبل أن أحييها:

- صباح الفل يا مدام كوثر..

لم تجبني جارتني التي تكرهني كره الراعي للذئب.. ظلت ترمقني
من وراء نظارتها قبل أن تقترب بدون أن تتخطى حدود حديقته..
هذا بخلاف أنها كانت تمسك بمقص عشب كبير..

- مش مكسوف من نفسك!!

- يا مدام.. أنا مش عارف إنت بتكلمي عن إيه؟

- نجس!

- إيه كله يا حاجة كوثر..

- الله يرحمها.. رحمها منك..

ألفتها ودخلت شفتها ترميني بنظرة توعد، الحاجة دائماً على حق،
رغم أنها مصابة بهوس أحادي، وفويا الجيران، ومتلازمة لترديد

ما تراه في التلفزيون.. هذا بخلاف بعض التبول اللاإرادي ومدى تأثيره على الواقع الافتراضي من منظور هذيان الاضطهاد! إلا أنها على حق بشأني..

لم يتزعني من شرودي في كلماتها سوى جرس تليفوني، المستشفى كانت تتصل، لهم عندي يومان لم أظهر فيهما..

- عيان.. اعمل لي إجازة عارضة.. راجع بكرة..

ظهر رقم لبنى على قائمة الانتظار فأغلقت مكالمة المستشفى وتلقينها..

- ما بتردش بقالك يومين!!

- كنت هاكلمك.. حصل مشكلة.. أنا رايح شقة شريف دلوقت.. لأخلكي بلاش تبجي.. خليةنا نتقابل بالليل.. ما تقلقيش.. هافهمك بعدين.. حاضر.

«طب خلي بالك من نفسك» في المعجم المحيط:

كلمة لم تسمعها منذ أمد.. لها فعل السحر في النفوس..

وقوفي تحت البروج المشيدة كان مُقبضاً رغم نور النهار، الهواء يهيم كتنين أسطوري طائر بين جنبات الأبراج الشاهقة فارد جناحيه يث الرعب والصريخ، في المدخل لمحت إعلاناً صغيراً يفيد بيع شقة بالدور الثلاثين بسعر مُغزٍ، لم أحتج مجهوداً لأخمن، صعدت الطوابق الثلاثين يتلوّى قولوني توتراً قبل أن أقف أمام باب الشقة المفتوح، اقتربت، الحركة كانت منتظمة، سيدة مُسنّة بمؤخرة سَمينة راجمة على الأرض تمسح، ورَجُل لم يكن ليكون غير والد بسمة،

جالس بأسى على كُرسى يتأمل صورتها بين يديه، اللعنة، تقهقرت
خطوتين محاولاً حساب المعطيات الجديدة للحظ السيئ قبل أن
أعود مدفوعاً بأمل العثور على القميص، قرعت الباب!

- أوْمُر يا ابني.

- يا حاج.. الشقة دي للبيع.

- أيوة يا ابني إن شاء الله.

- مساحتها قد إيه؟

- طب اتفضل.. اعلمي شاي يا أم شيماء.

جلسنا وتبادلنا الحديث حول مميزات الشقة وموقعها، ولم يذكر
الرجل أنها كانت مسرحاً لجريمة! فقط ابتلع ريقه بقلق بعد أن سكنت
عن المعلومة، سألته تمويهاً عن السُّعر وأجابني بثمن بخس بالنسبة
لموقع على النيل.. طلبت التجوّل فيها فقام لمرافقتي:

- خليك يا حاج مش عاوز اتعبك.

رفض السمع وأصرّ وأقسم بالآيمان، تبعني ليحيطني بجنبات
الشقة إرشاداً، اصطنعت الجهل وتبعته لا أعرف ماذا أفعل، مرّ بالطرقة
والمطبخ والحمام ثم غرفة الجريمة التي اختفت كل معالمها، حتى
الكتابة التي كانت على الحائط مسحتها الخادمة المسنة، اللعنة على
المؤخرات العريضة! تبعته بعد ذلك إلى غرفة نوم شريف ويسمة،
آخر أمل لي، تأملتُها فحَصّاً ثم سألته:

- لو حبيت أشتري العفش؟

- يا ريت يا ابني.. ده والله عفش جديد ما عداش عليه سنة..
«زان» مستورد.

فتحت الدولاب اتصنع فحص خشبه.. ودمست عيني بين
الملابس المكذبة فوق الشماعات أبحت عن القميص..
- طب وبالنسبة للهدوم؟

- هنشيلها طبعًا يا ابني.. ما تقلقش.
- لا.. أنا كنت أقصد لو حبيت اشتريها.

-...؟؟

- اضلي مشترك في جمعية خيرية وممكن أتبرع وكده.. الأيتام..
وال... ثواب يعني.

- يا بني!! ما يغلوش على ربنا.. نخلص بس في الشقة ونتكلم
في الموضوع ده.

- ممكن كباية مية؟

- تشرب بقى شاي.

- زي الفل.

تركتني الرجل ففتحت الأدراج بسرعة أفتش محتوياتها.. أنهيت
دولاب شريف ثم فحصت دولاب بسمة الملاصق.. لا أثر للقميص..
نظرت تحت السرير وفي الشوفيرة.. لا شيء.. التقطت كرسياً صغيراً
وضعدت لأفتح أعلى الدولاب.. البلاكار كان مليئاً بالبطانيات
والملابس الشتوية.. باعدت ما بينها حين انهار الجبل فوقني في

اللحظة التي عاد فيها والد بسمة.. وقف الرجل يتأملني والملابس
الشتوية مبشرة بجائتي.. لم أمهله ليرجع فتكّه المتدلّي إلى مكانه..

..البلاكار دُرّفه ما اعتقدش زان برضه يا حاج؟

ابتلعها الرجل واقترب يللملم الملابس معي ويدافع عن الدُّولاب
وأخشابه.. الوقت أصبح ضيقًا ونفدت حجيج وجودي.. استعيد
كلمات شريف الأخيرة معي عليّ أجد بها ما أسترشد به عن
مكان القميص.. اللعين لم يقل شيئًا ولم يرسم في الورقة سوى..
مرحاض!!

..استاذنك يا حاج أخش الحمام..

استاذنت وجهه المملوء ألمًا واغلقت على نفسي الباب
ووقفت أنظر حولي.. لم يكن العثور على قميص في حمام مُعادلة
لو غاريتمية.. سَبَت الغسيل فارغ.. لا شيء مُعلق وراء الباب.. ولا
في دولاب المرأة التي تم تفرينها من دواء الأملاح وبقية المتعلقات!
تيسّت دقائق مشلول التفكير.. انتظاري أكثر من ذلك داخل الحمام
سيئر الرّية.. يأسًا أمسكت المزلاج لأفتح الباب حين استعدت
رسمة شريف في مخيلتي.. يا للغباء! لقد رسم شريف مرحاضًا!
نظرت للمرحاض ثم لمحت محبس السيّفون المكسور.. عمنا!
سريعًا مددت يدي ورفعت الغطاء.. خاليًا من الماء كان.. وبالداخل
كان يرقد قميص.. مطويًا في كيس بلاستيكي مُغلق بإحكام ومَحشور
وسط الموابير الرقيقة والبالون البلاستيكية.. مددت يدي وسحبته
برفق.. الأرقام عليه كما رأيتهما في الصور.. قماشه سمّي يابس رفيق
يُشبه الكتان.. ومن يسعى جاهلًا ليمزّق.. سحبته وأرجعت الغطاء

مكانه ثم بحثت عن شيء أخفي القميص فيه.. طبقته برفق وحشرته
بين بنطلوني و قميصي قبل أن أخرج متجنبًا مواجهة والد بسمه..
بادلته حديثًا سريعًا ورقم تليفون وهمي قبل أن يلتهمني المصعد..
في البيت فردته فوق السرير.. وقفت أتأمل النقش فيه لا أكاد أفهم
شيئًا غير آيات قرآنية وحروف مقطعة ودوائر وأوراق شجر مرسومة
بحبر بُني داكن.. القميص كان مقاسه «XL».. لم أجده مكتوبًا على
الياقة لكنني استتجته حين وضعته برفق فوق كتفي وتدلى قليلًا..
لم تواتني الجراءة لارتدائه.. النسيج وهن للدرجة التحلل.. سيصير
نرابًا قبل أن أخضعه!

تحديث لحالتي بعد خمسة أيام من رجوعي المستشفى:
بحمل بيتي قميصًا أثريًا مسروقًا من متحف الدولة..
بقايا جريمة قتل لا أعرف عن تفاصيلها سوى أنني مساهم أساسي
فيها..

لم تكن زجاجتنا فردكا «Sec» بمزاجهما المبهج أن يفعلوا شيئًا
حيال ذلك الشعور بالتهب! فتحت الإنترنت لا أدري ما أكتبه بحثت
في البداية وراء سرقة المتحف ولم أعر على معلومة تُفيد قبل أن
أكتب مواصفات القميص:

«قميص.. سمعي.. آيات.. حروف.. ورق شجر..».

كان بحثي كهيد سمكة بدون صئارة، ولا طعم، أني حتى لا أدري
ما أبحث عنه! يأس كما ينبغي أن أياس وغيرت ملابسي ثم أخفيت
القميص في الدولاب بعدما غلقتة بكيس بلاستيكي وخرجت
لأقابل ليني..

في الطريق ترددت بداخلي كلمات شريف، أو أيا كان! حول
لبنى، اللعين على حق، لم أستطع يومًا أن أنزع من رأسي فكرة عودتها
لحياتي مرة ثانية، تعلق طفولي صعب عليّ التغلب عليه، شيء يشبه
حلم بقفلة متطرِّفاً، لا يفصلني عن الخوض فيه سوى تذكري مشهد
يدي ونثرات الدماء تغطيها، يدي التي رأيته في الصور تخنق مايا،
يدي التي ترتعش الآن..

حين وصلت للبنى كان الليل قد انسدل، الجو خلا من الأكسجين،
والرطوبة بحر بموجه وأسماكه ومراكبه، استوينا في ركن وطلبنا قهوة،
لففت سيجارة في محاولة للحفاظ على اتزانتي وأنا أحكي ما حدث
بشكل مخفَّف قدر الإمكان، لم أحك بالطبع عن مايا! كان يكفيها
ما سمعته عن إصابة أخيها والقميص لتطلب مني سيجارة بعدما دار
رأسها وتورّد خذاها اضطرابًا، سكنتا شروذًا ننظر للنيل المتهادي
بجانبنا، نتظر منه أن يمدنا بإجابة عن المتاهة التي انغرسنا فيها..

- أنا مش عارفة اللي حكيته ده معناه أمل ولا معناه إنه خلاص..

- معناه إن شريف ببجد.. قتل.. ما كانش في وعيه.. بس

قتل.. بس!

- مُمكن اللجنة تفهم ده؟

- صعب.. إلا لو شافوا حاجة بعينهم.. هو ده اللي محاول أعمله

لما يرجع العنبر.

- خايفة بعد كل ده.. مش قادرة أتخيل.. يتعدم!

- ما تخافيش.

- ممكن سيجارة؟

لغفت لها واحدة دسّتها بين شفّتيها وأشعلت النار، فيها وفيّ!
لا ادّعي أنني نسيت ما حدث لمايا لكنني نُهت، نُهت في وجهها،
إصعب شيء أن تكون بذلك الجوع والطعام أمامك بذلك القُرب،
طعام محرّم والتلفظ باسمه كُفر بين وزندقة، لقد أحللت لنفسي
الخمر والنساء والقمار والقناطير المقنطرة من الحشيش والكيمياء
المقدّسة، ولم تُحل لي بُني! سخونة صدري قاربت على حرق
القميص الذي أرتديه، ظللنا على تلك الحالة دقائق حتّى أخرجنا من
الشرود جرس تليفونها.. التقطته من حقيبتها ووضعتّه على أذنها..

- أبوه يا حبيبي.

شرعت في القيام لأتركها تتحدث على راحتها فربت على راحتي
لأبقي وأكملت مكالمتها..

- أنا في Meeting.. لا مش في البنك.. يعني.. Around ساعة..
Ok.. حاضر.. باي.

أنهت المكالمة وشغلت عينيها في شاشة التليفون تهرب من عيني
خجلاً.. التزمت الصمت لكنها لم تستطع..

- ده خالد.. أصلي مش حاكية له التفاصيل.. إني باقابلك.. يعني
قلت إني قابلت دكتور معرفة من زمان.. وكده.. و...

- غيور؟

- مش بالظبط.. بس صعب أشرح له.. غير إن موضوع شريف
ده كاسفني.

- أكبر منك بقدر إيه؟

- خالد؟؟ آآ..

عاجلتها:

- فوق العشر سنين؟

- عرفت إزاي؟

- طالما آآ.. يبقى فوق العشر سنين.

ضحكت بشفاه مرتعشة قبل أن تُسقط رماد سيجارتها في المنفضة..

- جوزي ما يعرفش إني باشرب سجاير.. جوزي ما يعرفش إني كنت أعرف حدّ قبله.

مثلاً ينطق الطفل كلمة «والدي» بدلاً من «بابا» في إعلان صريح أن المسافة بينهما أصبحت تُقاس بالكيلومترات؛ تنطق المرأة كلمة «جوزي» بدلاً من ذكر اسمه!!

- خالد طيب.. فوق ما تتخيل.. مثالي.. ما قدرتش أصدمه وأحكي له خمس دقائق حتى قبل ما أتعرف عليه.. أقصد أحكي له عنك.. فيه ناس تحس إنك مش عاوزهم يتغيروا من ناحيتك مستي واحدا

- اتجوزتي إزاي؟

- الموضوع جه بسرعة.. بيشتغل معايا في البنك.. أول سنة جواز ما كناش متفاهمين.. أنا كنت هاأطلق.. لكن بعد كده اكتشفت إنه إنسان يجنن.

«ما كناش متفاهمين».. قائلات تلك العبارة في الغالب ينقصهن إضافة كلمة «جنسيًا».. كما أن كلمة «يجتن» لم تخرج على ما يرام من بين شفيتها.. تُشبه رأيي في الطعام المسلوق.. مثالي.. لكن ذلك لا يعني أنه لذيذ.. لم تنظر إليّ وهي تتحدث.. تُقاوم الفضفضة ولا تريد لعيني أن تُجبراهما.. تركتها تسترسل وتنساب يسر على المائدة وبقيت أنا أنحت تفاصيلها..

- عارف؟

قالتها وسكتت.. ارتعشت أناملها بالسيجارة وهي تبحث عن كلمة مناسبة تحكي بها ما في نفسها قبل أن تُردف:

- مش عارفة أقول.

- ليه؟

- أنت آخر واحد المفروض أقول قدامه الكلام ده.

- اعتبريني دكتور نفسي.

- ما هي دي المشكلة.. مش عارفة أشوفك غير يحيى بتاع زمان.

- إنتِ مش مبسوطة مع خالدا

رجعت بظهرها للكرسي وهزت ساقها في اضطراب..

- ليه قلت كده؟

- إحساس..

- أنا كنت حالفة ما أتكلمش..

- لو ماتكلمتيش معايا هتكلمي مع مين؟!

ارتعشت أناملها بالسيجارة..

- مش قادرة أقول إني ما باحبوش.. مكسوفة من الفكرة.

- مكسوفة من وجودك معايا؟

- أنا مش امرأة العزيز.. بس مش قادرة.. مش باكرهه.. بس

ما باحبوش الحب اللي.. أنت فاهم حاجة؟

مززت رأسي ولم أعقب.. حركاتها كانت صادقة صدق كلماتها..

سكنت لحظة ثم سحبت نفسًا سريعًا تكتم به انفعالاً..

- ده مش معناه إني ما باحبوش.. بس.. ففف.. إيه معنى سكوتك ده؟!

- معناه إني فاهمك.

- تفكر؟

- المثالية مش كل حاجة.. والحب كمان مش كل حاجة.

- أنت دايماً كنت أكثر واحد فاهمني.

- وما كانش المفروض أظهر دلوقتي.. مش كده؟

سكنت ثم نطقها بدهول:

- حاجة زي كده.

- مجرد ما ينتهي موضوع شريف أنا هاختمي.

- مش قصدي.. أنت فهمتني غلط.

- أنا مش زعلان.. الدراما بتقول كده.. لازم أخضى مطرح
ما جيت.

- عارف.. وجودك ده مقويني أوي.. وضاعفني في نفس الوقت.
- بُضي لبتك كبير وأنت تقوي.

- حاسة إنني ما أستحقهاش.. وساعات ببص لنفسي في المرآة
مش مصدقة إنني بقيت أم.. فإكر أنا كنت عاملة إزاي؟
- أنا مش فإكر أي حاجة غير إتك كتنِي عاملة إزاي.

تداعب خاتم زواجها الماسي بأناملها.. تلقه حول بنصرها بعصية
وضيق.. وجوده بيني وبينها يثير دُخانًا بلا نار.. أردفت:

- الحياة مُملة بتموتني ببطء.. أنا مش ناقصني حاجة.. مستوانا
المادي ممتاز.. خالد مش مغليني عاوزة حاجة.. بيحبني.. وده
بتموتني.. وموضوع شريف جه قُضي عليا.

- ما فيش حاجة بتفضل علي حالها.

- إسمعني أنت فضلت علي حالك؟ جوايا!

أمسكت نفسي بالكاد أن أنطق.. نظرت في عيني وأردفت:
- أنا باخرف.

- خالص.. أنت بتكلمي عن اللي جوايا أنا كمان.

- وبعدين؟!

- ولا قبلين.. يخلص موضوع شريف وأرجع ثاني للركن الضلمة
اللي كنت قاعد فيه..

- كلامك ييموتني.. يحيى! الدقائق اللي باقدها معاك مش
هتصدق بتعمل فيا إيه!! أنا باعيش عليها لغاية ما أشوفك تاني..
مش عارفة لو اختفيت ممكن أعمل إيه!
- كل شيء بيتنسي.

- إلا أنت.. فشلت إني أنساك.. وفي نفس الوقت مرعوبة من
وجودك.. بييجي لي كوايس طول الوقت.. وأنا أصلاً باتكلم
وأنا نايمة.. عارف.. ساعات باتخيل إني ممكن من غير وعي
أنطق اسمك.. أو لو حتى عملت عملية.. تحت البنج ممكن
أتكلم عنك.

لم أجد ما أقوله وأخذتنا سكتة ثالثة!

تلك كانت ليلة من الليالي التي يُقال فيها كل شيء، أكثر مما
يُنبغي، يُقال فيها كل ما يُجرح ويُعشق فلا يُنسى.. أما السكوت
فدائمًا أبلغ.. يحوي بداخله ما تعجز عنه الكلمات.. ويقايني ساكنًا
أقام لُفْس يديها دخل بجدارة في حيز المعجزات..

ظللنا نتابع الجالسين حولنا هارئين من عيني بعضنا بعضًا حتى
بدأ يظهر وجه مايا في كل الجالسين حولي فأغمضت عيني عليها
ترحميني..

- أنا حاسة إنك مش مضبوط.. أنت تعبان؟

- أنا دايماً مش مضبوط.. الاستثناء هو إني أبقي مضبوط.. وده
ما شفتهوش من ييجي عشر سنين.

- لنا ضايقتك؟ مش قصدي حاجة بموضوع الكابوس.. أنا أقصد...

- أنا ما اتضايقتش ..

- عارف .. كنت خايفة أشوفك ثاني .. بس من جوايا

كنت باتمنى ..

- «Law of attraction» ..

- مش مسألة قانون الجذب .. أنا من غير ما آخذ بالي كنت باندك لك ..

- وأنا جيت ..

سكنت تتأمل عيني وكلماتي التي تصطاد في المياه العكيرة ..

- شكلك مش بتنام .. عينيك تحتها أسود جامد ..

- هاعيش ..

نظرت لساعتها في ضيق ..

- أنا لازم أمشي .. هاشوفك إمتى ؟

- يومين وهاكلمك .. عندي شغل كثير مع أخوكي ..

- خلّي بالك من نفسك ..

قالتها ورحلت ..

ساحبة معها الهواء والنور ومسببات الحياة ..

سألت نفسي لِمَ لا زِلت مُعلّقا بها رغم كل تلك السنين ؟ لِمَ لم

تُبْهت وتنفّس وتُداعى ككل حيواني القديمة ؟ لِمَ لم تولد من تَبْدُل

نكهتها في قلبي ؟ مَن تَمْحو آثار شفّتها مِن على شفّتي ! مَن تَمَلأ

الفراغ الساخن في صدري ؟!

ما المميز فيها عن ماها وعن زوجتي؟
الإجابة كانت مُرجبة..
لا شيء..

في اليوم التالي استيقظت عَنوة، نِصف ساعة ووصلت المستشفى،
عرفت حين عُدت أن شريف سيأتي بسيارة إسعاف، سياسة ٨٥ غرب،
لا نسمع بغياب المتهم بعيدًا عن الحَجَز لمدة طويلة، إلا في حالات
العمليات الجراحية الكبيرة، سمعت بُوق الإسعاف قبل أن تنتهي قهوتي،
اقتربت من السيارة وانتظرت السائق ليفتح بابها حين وجدت بداخلها
سامح! يجلس بجانب شريف الغائب عن الوعي مُكبلاً في نقالته..

- بتعمل إيه هنا؟ سألته حين نزل.

- المريض بتاعي ولازم أتابعه.

قالها وتركني ليساعد المُمَرِّضين في إنزال السرير.. دقائق واستقر
شريف في غرفة العزل قبل أن ينسحب سامح.. استوقفته فالتفت
لي.. طلبت منه كلمة على أفراد فرفض كرامةً وخوفًا فسيرت بجانبه
وهمست:

- أنت عاوز إيه بالطبط؟

- عاوز حق ربنا يظهر.. نطبط التقرير.. عيب يخرج من ٨ غرب
حد يشتغلنا كلنا بالمنظر ده.. أنت راضي على نفسك أنت حر..
بتكسكس لصاحبك دي مش بتاعتنا.

- الكلام ده تقوله لعيل صغير .

- هو بصراحة فيه سبب كمان .. أرجعك بيتكو ثاني زي ما جيت .

- عاجبني في وساختك إنها صريحة .

- من غير زعل .. مش معنى إن صاحبك اشتغلك يشتغلنا .

- أنت بتشتغل نفسك .. شريف عيان بجد .

- شهادتك مجروحة .. أنا جدعنة مني ما رضيتش أقول

قدام المدير .

- أنت وقعت على راسك وأنت صغير ولا اتولدت كده؟!!

- ماشي .. ماشي يا دكتور يحيى .. عامة افحص براحتك وأنا

هافحص براحتي .. وكل شيخ وله طريقة .. الحق ما يزعلش .

- لو ضامن وساختك كنت قلت ماشي .. إنما أنا عارف .. أنت

عاوز جنازة تشبع فيها لطم .

- طالما شهادتك مش مجروحة قلقان ليه؟

- لو غلطت معاه أو معايا هاطلع ميتين أمك .

- من خمس سنين كنت أنصف من كده .. أعلى ما في خيلك اركبه .

تركني ورحل قبل أن يقف على مسافة ويلتفت مشيراً لأنفه ..

- ويرضه مش هتعدّي دي .. ورحمة أمي ما هتعدّي ..

سامح في معجمي : ناصور شرجي يلتهب في غير وقته ولا تصلح

معه المراهيم ..

جلست في غرفتي ساعتين مُملّتين دار فيهما رأسي حول نفسه
ألف مرّة قبل أن يختفي المُيل من المبنى.. تابعت شريف من الكوة
الزجاجية في غرفة العزل.. كان خامدًا مُسترخيًا كبيتٍ مهجور
تفطت شرفاته.. دخلت لأطمئن عليه.. ثواني كانت كافية للصق
جهاز التسجيل الصوتي تحت سريره.. لا بد أن أعرف ما يدور بينه
وبين سامح حين أكون بعيدًا.. كما وجّهت كاميرا المراقبة إلى باب
غرفة العزل لأعرف من دخل إليه وكم بقي من الوقت..

حين حل المساء تلقيت مُكالمة ذهبت على أثرها إلى بار
(Deals)، صديقة لمايا سألتني عن غيابها المُقلق، انتهزت الفرصة
لأضع اللمسات النهائية لجريمة بالكاد أستوعبها، وأسأل عن فيل
أزرق يؤرقني، فيل أود أن أعرف موطنه وكيف جاء إلى شقتي، قبل
أن يفتح لي بابًا من أبواب الجحيم..

البار يقع في جزيرة الزمالك، متوسط الحجم تنزل من أجله درجتين
تحت الرصيف قبل أن تمرّ بباب خشبي على شكل نصف دائرة،
لبنخلّك مباشرة دفء الكحول والإضاءة الصفراء المخافتة..

على المنضدة التي اعتادت مايا الجلوس عليها لم يكن هناك
سوى صالي، صديقة مايا «الأنثيم»، مُلقاة على كُرسيا مُجهمة
نحسي خمر القلق، عانس طويلة الجسم والأظافر، صفراء فاقع
لونها لا تسرّ الناظرين، لما اقتربت منها قامت وضمتني بوجه خالٍ
من الأصباغ وعبق كحول، تركتها مُكرها تُنهي حُصنها بطنيء الإيقاع،
أنفخ شعرها بعيدًا عن فمي حتّى لا أتقيأ قبل أن نجلس..

..My Baby» ما بتخيش عني حاجة .. أول مرة تختفي بالشكل ده .. وتليفونها مقفول .. أنا هاتجتن .

- ريتا يستر .

- أنا تخيلتها عندك !

- أنا ما شفتش مايا من خمسة أيام !

مَسَحَتْ شعرها المصبوغ بالصفار وأشعلت سيجارة ..

- آخر مكالمة من مايا كانت بتقول لي إنها رايحة لك !

صَدَرَتْ وجهي العبيط الذي أمتاز به أحياناً ..

- صبح .. كلمتني وقالت إنها جاية .. بس ما جاتش .

- مايا ما لهاش حدٌ غيري لو كانت ناوية هلى حاجة كانت قالت

لي .. لازم يكون حصل لها حاجة .

- حد من البيت عندها دور في الأقسام أو المستشفيات ؟

- متبها لي يعملوا كده النهاردة .. أنا مش قادرة أتخيل .. باثرعب

لما أتخيل إن يكون حصل لها حاجة .. ممكن تكون اتخطفت ..

!!«Ohh my God» !!

- اتصلتني بكل معارفها ؟

- وصحباتها في شغلها وريهام بنت خالتها .

- مرة كانت حكّت لي إنها بتنجز من عند حدّ في المعادي ..

سكتت وقطعت جبينها مُلقية بعينها بعيدًا تستدعي من
الذاكرة شيئًا..

.. «Son of the bitch» .. تاكي..!!

.. مين تاكي؟

.. تاكي.. بس ده غلبان.. و«Gay» أصلًا.. مايا كانت بتجيب من
عنده «Some Stuff».

.. «Stuff» ليه؟

.. «LSD»..

.. «LSD» بس؟ طلب معاكي حاجة من الـ «Stuff» ده دلوقتي؟

.. مايا هي اللي كانت بتجيب عشان تاكي مُقرف ويحفظ عشان
يعمل «Delivery».. «Ohh My Bay».. أنا مش مصدقة!! مش مصدقة
يا يحيى..

أجهشت بالبكاء وارتمت على المنضدة مُبعثرة شعرها البشع
على ذراعي..

.. مكانه فين تاكي ده؟ مُمكن أسأله يمكن يعرف حاجة.. أو
شافها.. أو... مكانه فين؟

.. هو في المعادي.. «I don't know».. استنى.. معايا تليفونه..
«Where is the fuckin phone?!».

تركتها في حالة يرثى لها ولم تتبه حين رَحَلت.. اتصلت بهذا
التاكي وأجابني.. بعد مُقدمة شرحت له فيها لتي من شلّة «Deaf»
الزمالك ساكه عن أقراص القبل الأزرق..

- فيل إيه يا Man.. أنا ماليش في الجو ده.. مش فاهم حاجة!!

- مايا هي اللي كلمتني عليه.. الـ «DMT»..

سكتت قليلاً قبل أن يُجيبني..

- القرص بمية وثمانين.. و«Maximum» ثلاث أقرص..

- إشي معني..

- يا Man ده بييجي بالعافية وكمية قليلة..

- أقابلك فين؟

انتظرتُه عند ناصية اتفقنا عليها وجاء بعد ميعاده بنصف ساعة
راكباً موتوسيكل صوته صاخب، يشبه «Eminem»؛ مُطرب الراب
الشهير، لكنه منكوش الشعر كزغافة سَقَف، مَسْلُول يغطي ما تيسر من
كُنافته المُبعثرة بقبعة أخفت معالم وجهه، وقف أمامي ونادى اسمي
فهزئت رأسي موافقة، نَظَر حوله جيداً وداعب أنفه شعوراً بخطأ
ما يفعله ثم طلب النقود، اقتربت فأشار لي أن أبقى مكاني، ألقيت له
بخمسمائة وأربعين جنبها عند حجلة الموتوسيكل فالتقطها وعدها،
ثم أخرج من جيبه علبة سجائر ونظر حوله ثانية قبل أن يلقيها بين
قدمي، انحنيت والتقطتها وحين قُمتُ كان قد رَحَلَ، فتحتها مواربة
فلمحت ثلاثة أفيال زُرُق يلعبون..

في البيت جلست أمام المنضدة، وَصَعْتُ الْقُرْص تَحْتَ قَاعِ
زُجاجة الـ «Absinthe» ونظرت من الفوهة، تلك ميزة من مزايا
الكحول، تستطيع أن تستعمل زجاجته كما يَكْرُسكوباً!

فأنا! الفيل كان يحمل فأنا في يده ورأسه ملفوف بشال هندي،
أبعدت الزجاجاة وأنا أتذكر «الرويا» الكيميائية التي رأيتها من قبل،
اعرف جيدًا تأثير المهلوسات، عُبث في وصلات المُخ، مَاس كهرمي
بضرب الخلايا والمستقبلات فيشير جنونها، رحلة نظرية وأنت جالس
على كنبك مُعززا مُكرما، أصدق من حلم، البعض يرى نفسه ميتا
وتأكله الديدان، والبعض يرى الأنبياء ويتحدث إلى الملائكة ويُبعث
إلى قوم كفره ليهديهم وينزل بهم العذاب..

والبعض يقنعه فيل أزرق في لحظة غياب أن يقتل مايا!!

فتحت «Google» وكتبت حروف «DMT» في خانة البحث،
النتيجة جاءت في كلمة طويلة تحمل الأبجدية اللاتينية كُلها،
«Dimethyltryptamine»، ومُختصرها «DMT»، مادة طبيعية
تُستخرج من النباتات على نطاق واسع، والثدييات بشكل أقل،
وتُفرز بشراهة في جسد الإنسان لحظة موته، لتهيئ العقل «عَنوة»
على الانتقال من العالم الواقعي الملموس الذي نعيشه إلى العالم
الغَيبي المُبهم بعد الموت، عالم البرزخ، فيستطيع العقل استيعاب
ما هو مُقدم عليه..

وقد ثَبَّين أن انبعاث كميات هائلة من الـ«DMT» من الغدة
الصنوبرية في تجويف المُخ أثناء فترات الغَيوية قد يكون سببًا في
الشعور بتجربة الاقتراب من الموت والتحليق خارج الجسد.. ويتم
تعاطي الـ«DMT» بين المُدمنين على هيئة أقراص أو عن طريق الشم
أو التدخين؛ فيوفر للمتعاظمي تذكرة مجانية للعالم الآخر..

تذكرة ذهاب وعودة!

تفسيرى الوحيد أن السمين الهندي قد أخذني في رحلة لبرزخ
مهجور مُظلم، قبل أن يطبع بخرطومه على قشرة مخي ما حدث بين
بسمه وشريف، طبعه بالوان طبيعية، وتوليت أنا تنفيذه، بلا وعي،
نظريًا الرحلة كانت ناجحة، ثمرة ومُسلية، عمليًا، لقد خضت أرضًا
ليس لي فيها تصريح مرور، أرض ملغومة لا أعرف كيف ارتادها الفيل
بقدميه الضخمتين وخرج سليمًا!!

أحيانًا أتساءل لم حَرَم ربي المُخدرات؟!

هل تفتح لنا مستوى سحريًا مَختومًا بكلمة سر في لعبة «Video»
لا يرقى عقلنا وقدراتنا لاستيعابه؟

أم أنه مستوى تكون فيه وحدنا، بلا غطاء، بلا ملاك حارس
لن أعرف أبدًا، لكنني قررت خوض رحلتي الثانية مع نفس
الشركة، «الفيل الأزرق للسفر والسياحة»، وبصحبة الـ «Absinthe»
ضامنًا نفس مستوى الخدمة قاصدًا البايين الباقيين، صُبت الكحول
الأخضر فوق قالب السكر في كأس وأشعلت النار قبل أن أضع فوق
لساني فيلاً ما لبث أن انزلق بنعومة..

بعد نصف ساعة..

لم يحدث شيء..

كما أنا؛ مُستلقيًا، على كنبتي ولا شيء! فقط، الكنبه لم تكن على
ما يُرام، لم تعد كما هي مُقعرة تصنع صوتًا حين أتحرك، باتت بفتة
مريجة وأزحَب، مكسوة بقطيفة حمراء، كما أن يديها أصبحتا أكثر
ارتفاعًا، لم أكن أعرف أن خشبها مَحفور بالنقوش! ورد وملائكة

صغار! كما لاحظت السجادة تحت قدمي، سجادة يدوية النسيج
مرسوم عليها وُحَدَات مكررة من الغزلان والطيور، يُطاردهم أسد
يشبه أسد أبي زيد الهلالي، كان يطاردهم بالفعل حين دققت قبل
أن يلحق بغزالة صغيرة وينهشها قرب الشراشيب!! السجادة كانت
منقوبة في المنتصف، ومُفَرَّغًا فيها دائرة تسمح للشجرة العتيقة أن
تترعرع، شجرة كافور ثقت سقف صالتي واستجلبت الشمس إلى
أرض الصالة، تتخلل أشعتها الهواء في خطوطٍ مُتَوَازية عكسها الغبار،
قُمت إليها ألامس جسمها العتيق خشن الملمس، كانت تقطر مادة
لزجة رائحتها طيبة، كافور إن كنت أعرف رائحة الأصلي منه، نظرت
إلى فوق فأعمت الشمس حدقتي، أنزلت عيني حين عَبَر بجاني عم
سيد!! ترزي المستشفى، كما رأيته منذ أيام، ترينج أخضر باهت وقبعة
رياضية هالكة وفم شحيح الأسنان، ويحمل في يده كيس الأقمشة
والخيوط، همس في أذني بكلمات قالها لي من قبل..

- هو عارف إنك هترجع.. مكتوب نتقابل عند الشجرة..

- هو مين يا عم سيد؟

- المأمون..

- المأمون!! مأمون مين؟

- المأمون.. صاحب البيت.. صاحب السر..

- عم سيد استنى..

اللئيم لم يُعرني انتباهًا، ما لبث أن تمشى بهدوء يُخشخش بكبسه
في الطرقة المؤدية للمطبخ، هرعت وراءه فلم أجذ له أثرًا، رجعت

للصالة أتأمل أفاعيل صاحب البيت الذي باعني الشقة، الوغد لم يذكر
أن هناك شجرة كافور تتوسط صالتي كما لم يذكر أن هناك مشربية
بجانب الزير الكبير وقلتين في صينية وبعض النعناع!! اللعنة على
اتحاد المُلَّاك الفاسد! نظرت من فتحات المشربية فلم أرَ حديقتي
المُهملّة، المشربية كانت تطل على مساحة كبيرة محاطة بأشجار
الليمون، وفي المتصفّح حوض ماء تطفو فوقه أوراق زنبق الماء
الدائرية تحوم قريبا الفراشات، بجانب البغل! بغل ضخم أطول من
حصان، مربوط ثابت في مكانه، لون الشعر في جلده بني ينحرف إلى
أزرق مع ضي الشمس، كربة الحمام، شردت في هيته استغرابًا حتى
انترعني صوت همس مكوم، نَمِمة أثوية رتيبة، الضوت كان يأتي
من الباب المولوب بين الأبواب الثلاثة، هنا بدأ النبض، نبض المكان
من حولي، أسمع الطرقات في أذني، ثم بدأ كل شيء يتحرك، يتلوّى
كأنني أسير في قاع بحر، اتجهت للباب يبطني المعهود في مثل تلك
الرحلات، أشعر وأنا أسير أنني أحلق فوق مستوى رأسي بمرتين،
أنظر لنفسي من فوق «يحيى» كاني طفل يركب فوق كتفه، كأنني
بالون هيليوم مشدودة إلى جسدي بحبل شفاف، اقتربت من الباب
الخشي ودفعته، كان سميكا ثَقِيلاً كالرُّخام، لكنه تحرك..

بالداخل كانت الرائحة ذكية نفّاذة، تأتي من دخان مَبْخَرة بجانب
سُرير ضخم مُلتصق بالحائط، عواميده الغليظة الأربعة تصل قرب
السقف مشدود بينها ناموسية ضخمة كشبكة صيد حيتان، ومن تحتها
امراتان تنهامسان، الأولى شابة، هاربة من قصور «حور العين» في
الجنة، ترتدي رداء كثنائيا أبيض منقوشًا بأفرع رقيقة، شعرها طويل
يكاد يصل لركبتها إذا وقفت! نائمة على جنبها، حاسرة الرداء عن

فخذها ثمسك بين يديها مِرآة تعكس لعينيها أعلى وركها المُنمِلة
ووجهها يملؤه شغف وألم رأته في عضة شفتها السفلية.. المرأة
التي تجلس أمامها لم أتيناها من زاويتي، كانت توليني ظهرها،
مكتنزة الأرداف وسنّها متقدمة، عروق يديها نافرة كمواشير تسلق
عمارة عتيقة، ثمسك ما يُشبه إبرة مثبتة في بُوصة، مُنكبة ساجدة على
المورك الساحرة تنقرها برقابة لتسوخ رسماً في ورقة بجانبها، كُل يضع
وخزات للإبرة تدمس بدها في طبق صغير مملوء بيودرة زرقاء داكنة،
تسح بها فوق الثوب التي تقطرت بالدماء فيتسرب اللون تحت
الجلد الشفاف ليكُن ويستقر!

نيسيت في مكاني أراقب أصابع قلبي الحساء التي تنكمش على
فمها أَلَمًا، ويديها اللتين تعتصران ملاءة السرير العتيق، تتحدث
المرأة العجوز بشيء لم أسمع، حاولت الاقتراب فخانتني قلماي
كعادتهما، ثبت في الأرض كشجرة ينسلقها النمل، يتخللها وينهشها
ولا أقوى على طرده، أصغيت بكل قواي أعتصر الهواء وبالكاد
نثرت حوارهن..

- يا خالة.. جلدي يتقطع.. ما حُتِش قادرة.

- لجل الورد ينسقي العُلُق.. اصبري يا بتي.

- خايقة ما يكون ليه فايذة الدك ده.. كُنا نقشناه حنة.

- رسمة الورد لازم تبات في جلدك اتنين ومبعين يوم لغاية
ما ينفك يحرك.

- هاتجن يا خالة.. المأمون كُل ما يقرب مني يشوف قعري جيلة
نسلودة.

- ماتستهنو نيش بام الصبيان! دي غولة برجلين بقرة وصرختها تعجن
الرجال.. هي اللي عاملة فيكي العمل.. بتعمي عينيه عن عسلك.

- يا لهوي بامه.. مش قادرة! أنا خايفة يا خالة.. أي.. أي..

- اجمدي.

- مش قادرة.

- خلاص.. خلّي جوزك بفضل يشوف زرورك مسدود..

- هيرجع يا خالة معاشرني؟

- هيرجع! هيرجع ويشوف شغك شهد معسل، الطلسم هيفك
عين «أم الصبيان».

- ويعشقني زي لاول؟

- عشقك هيصليه، ميجي راكع يقبل قدمك، هيصير لك عبد.

- من بقك لباب السما يا خالة.

وتاهت الكلمات في الهواء، استرقت السمع أكثر فلم ألتقط شيئاً،
قبل أن ترتخي الناموسية فوقهن في نفس اللحظة التي تحررت قدمي،
نسيّاً، رفعت ساقي التي ترن طناً وريماً وتحركت، خمس خطوات
ثقيلة مُرهقة ووصلت السرير، استجمعت شجاعتي وأزحت السار
فلم أجدهما، الطفل كان عارياً مُستلقياً على ظهره، طفل غاية في
الجمال، لم أكن لأخطئ الشبه بينه وبين أمه، يملك وجهها وشامتها
الصغيرة فوق جبينها وفتلة شعرها الناعمة، لكن ذراع المسكين كانت

تَحْمِلُ رَحْمَةً دَمَوِيَّةَ خَمْرَاءٍ عَكَّرَتْ صَفْوَةَ نِقَائِهَا، اقْتَرَبَتْ مِنْهُ فَالْتَفَتَتْ
لِي بِبُؤْبُؤِ عَيْنِيهِ الْوَاسِعِ شَدِيدِ السَّوَادِ، رَفَعَتْ ذِرَاعَهُ أَتَامِلَ وَحْمَتِهِ،
لَا مَسْتَهَا فَتَحَرَّكَتْ أَوْ هَكَذَا تُحِيلُ إِلَيَّ، كَأَنَّهَا زُنْبُقٌ يَتَلَوَّى تَحْتَ زَجَاجِ
شِفَافٍ، وَضَعَتْ أَتَامِلِي ثَانِيَةً فَوْقَهَا فَتَحَرَّكَتْ تَجَاهَ أَصْبَعِي كِبْرَادَةً
حَدِيدَ تُعْرِفُ طَرِيقَهَا نَحْوَ مَغْنَطِيسٍ، تَتَجَمَّعُ تَحْتَ بَصْمَتِي، تَتَنَفَّسُ،
تَتَسَارَعُ، تَفُورُ بِعَنْفٍ! رَفَعَتْ سَبَابَتِي فَهَدَاتْ، ثُمَّ سَكَنْتْ، لَا مَسَتْ
أَتَامِلُهُ الصَّغِيرَةَ فَاحْتَضَنْتْ إِبْهَامِي بِكَفِّهِ الْمُنْتَقِ، ابْتَسَمَتْ لَهُ مُتَابِعًا
اِنْعِكَاسِي فِي عَيْنِيهِ اللَّامِعَتَيْنِ فَابْتَسَمَ رَغْمَ سَنَةِ الَّتِي لَمْ تُعْرِفْ الْإِبْتِسَامَ
بَعْدَ، شَرِدَتْ فِي بَرَاءَتِهِ حَتَّى شَعُرْتُ الْوُخْزَةَ، انْتَضَفَتْ وَتَسَحَّبَتْ يَدِي
لَا إِرَادَةً أَنْظُرَ لِإِبْهَامِي الَّتِي حَصَلَتْ عَلَى ثُقْبٍ صَغِيرٍ بِحَجْمِ شَكَّةِ
إِبْرَةٍ، نَظَرْتُ لِلطِّفْلِ مُرْتَعِبًا قَبْلَ أَنْ أَسْحَبَ كَفَّهُ أَفْتَشُ فِيهَا عَنْ شَيْءٍ
حَادٍ سَيَسْبِلُهُ حَتْمًا إِنْ لَمْ يَنْغَرِزْ فِيهِ، لَمْ أَجِدْ شَيْئًا، الْجَرَحَ الْكَمَنِي نَبْضًا
فَنَظَرْتُ فِيهِ أَفْحَصَهُ، شَيْءٌ أَسْوَدَ كَانَ تَحْتَ الْجِلْدِ، شَيْءٌ طَوْلُهُ حَوَالِي
سِتِمَتْرِينَ! فَرَعًا نَظَرْتُ لِلطِّفْلِ الَّذِي سَكَنَ يَتَامَلَنِي كَأَنَّهُ يَتَنَظَّرُ حَدَثًا،
يَرْمُقُنِي بِتَرْكِيزٍ شَدِيدٍ، عَيْنَاهُ، مَلَامِحُهُ، شَيْءٌ مَا تَبَدَّلَ! نَبْضُ الْأَكْمِ
أَعَادَ انْتِبَاهِي لِإِبْهَامِي الْمُخْتَرَقَةِ، اللَّحْظَاتُ الَّتِي رَمَقْتُ فِيهَا الطِّفْلَ
زَادَتْهُ احْتِمَاتًا وَسَخُونَةً، الْكَيَانُ الْأَسْوَدُ يَتَحَرَّكُ، يَنْهَشُ اللَّحْمَ، فَأَرَا
خَيْثًا يَعْرِفُ طَرِيقَهُ فِي مَاسُورَةِ الْمَجَارِي، صَرَخْتُ أَلْمَا وَلَمْ أَسْمَعْ
صَوْتِي، وَالطِّفْلُ صَامِتٌ سَاكِنٌ يَتَامَلَنِي بِلَا حَرَكَةٍ، تَمْثَالُ مَلَائِكَةُ مُتَقَنِّ
الصُّنْعِ، الْكَيَانُ يَتَخَذُ طَرِيقَهُ تَجَاهَ ظَفَرِي وَالْأَكْمِ يَتَضَاعَفُ بِجَنُونٍ،
ابْتَعَدْتُ عَنِ السَّرِيرِ أَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ أَفْتَحُ بِهِ إِبْهَامِي، أَحْفَرُهَا أَوْ
أَقْطَعُهَا، فَالْأَكْمُ بَاتَ غَيْرَ مُحْتَمَلٍ، الْكَائِنُ أَصْبَحَ تَحْتَ الظَّفَرِ، الشَّفَافِيَّةُ
جَعَلَتْني أَرَى تَفَاصِيلَهُ، مَيَّزْتُ أَرْجَلَ دَقِيقَةٍ تَخْرُجُ مِنْ جِسْمٍ بَغِيضٍ،

حشرة! لها ست أرجل، كدت أفرغ ما في معدتي قبل أن أنحنى عنوة
 على الأرض أعصر إبهامي، أنحطها على أرض الغرفة الحجرية علّه
 يتوقف عن نهشي، عرقني تشع نهرًا بلا سد يصعب السيطرة عليه
 وتهذج نفسي، ثم ظهرت الساق الأولى، شجرة يابسة مقرزة، اهتزاز
 أعصابي لم يُمكنني من سحبها وإخراجها، كما أن فكرة أن تنقطع
 ويبقى الجسم ميتًا بداخلي قتلتني، شوهتني نفسيًا، ثواني وبرزت قدم
 أخرى قبل أن تخرج الرأس، خنفساء! خنفساء قرمزية بدنية، خرجت
 بصعوبة وما لبثت أن فردت جناحيها المخشين وطارَت بعيدًا، إلى
 السقف، بالكاد أمسكت نفسي من أن أغوص في هبوط حاد، ارتيمت
 على ظهري أنامل إبهامي التي باتت فيها حُفرة بحجمها، حُفرة لم
 تُخرج نقطة دم واحدة، أرخيت ذراعي بجائبي ورمقت السقف،
 السقف القرمزي، لم يكن ذلك لونه، كان لون الخنافس التي سترت
 أخشابه كلها وصبغته بالحُمرة، بلا منفذ للون السقف الأصلي، هنا
 انتهت لصوت الاحتكاك، احتكاك أجسادها المقرزة، كتمت أنفاسي
 وتحاملت حتى قُمت راكمًا رغما عني كأن رأسي سيطول السقف
 العالي، تذكرت الطفل فاقتربت من السرير وأزحت الناموسية فلم
 أجده! كانت هناك فقط كتلة داكنة، انحنيت مدققًا فميزت كومة من
 الخنافس تتحرك فوق بعضها! ركضت مُسرعا، ببطء شديد، أضغط
 إبهامي في راحة يدي تشبثًا للآلم، أنظر للسقف خوفاً وطمعا في
 خروج آمن، ما إن أمسكت مقبض الباب حتى توقف الاحتكاك،
 نظرت خلفي بعد تردد فرأيتهم يساقطون كالمنطقس ويزحفون على
 الأرض، السقف كله ينهار، أدت المقبض وفتحت الباب، ثانيان
 كانتا تفصلاني عنهم، زمن طويل غير كافٍ في عالمي اللزج، بالكاد

أخرجت جسدي وجررت الباب خلفي غلقًا، سحبت بحبله الرهيب
وأغلقتة قبل أن أرتمي على الأرض مُلتقطًا صَوْت جَيْش الخَنَافِس
وهو يتراكم على الباب، رَجَعْتُ زَحْفًا إِلَى الْكَتَبَةِ وَارْتَمَيْتُ السَّقَطَ
أَنفَاسِي، مُرَاقِبًا الْبَابَ مُتَعَيِّرًا مَقْوَطَهُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ وَاحْتِلَالِ الْجَيْشِ
الْأَحْمَرِ جَسَدِي، دَقَاقَتِ مِنَ الرَّعْبِ تَحَرَّكَتْ فِيهَا الشَّمْسُ حَتَّى سَقَطَتْ
عَلَى عَيْنِي مِنْ بَيْنِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ الْعَتِيقَةِ، أَثَارَتْ دُمُوعِي وَأَعْمَتْنِي،
أَغْمَضْتُ عَيْنِي وَتَكَوَّمْتُ عَلَى نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَسْتَلْقِي عَلَى جَانِبِي،
شُعُورٌ بِالْخَلَرِ اجْتَاَحَنِي فَاسْتَسَلَمْتُ لَهُ اسْتِسْلَامَ جُنْدِي يُتْرَى نَصْفَيْنِ
مِنْ تَحْتِ السَّرَّةِ فِي مَعْرَكَةٍ..

كَانَ ذَلِكَ حِينَ سَقَطَ جَفْنَايَ..

بالكاد استيقظت..

كان الوقت ليلاً ولا يزال، أظنتني لبشت ساعة أو يضع ساعات،
هكذا ظنّ فتية الكهف يوماً! التَّقْوِيم في تليفوني المحمول وعدد
المُكالمات الفائتة كان يشير ليوم كامل بُتر من حياتي، أربعة وعشرون
ساعة سقطت سهواً، ساعات كانت كافية لاقتلاع شجرة كافور من
مكانها وفناء سَجادة بشرائها واختفاء زير وأبواب وانطماس
شمس، ونفوق بَغل كبير! لم يبق لي غير نَبض يَلْفِظ أنفاسه الأخيرة،
نَبض أثاث ما زال يتحرك حركة خفيفة تجاه الجِيطان، بالكاد الحظها،
بحثت عن بقايا أقراص الفيل بجانبني على الكنية حين دهمني سيخ
الآلم، ألم سبابتي التي حملت حُفرة..

حُفرة تسع خنفساء حمراء!!

قمت ركضاً لباب غرفتي، فتحت على مصراعيه ورمقت السقف،
لم يكن هناك غير النجفة المحروق نصف لمباتها، وسريري كما
عهدته، قَرْشة ملابس مستعملة على رصيف ومَقْلَب للجوارب!

أمام مِرآة الحمام حاولت تَمْلِك أعصابي، رَعشة يدي كانت
تُصعَّب عليّ رؤية الجرح المتهتك كما سورة مدفع منفجرة، الثُّقب

الأتي من عالم الفيل الأزرق، لففته في شاش وخرجت إلى أقرب
مستوصف صحي، خُفنت بينج موضعي وتم تخييط الجرح وتغطيته
فيل أن يسألني الطبيب عن مسبب الجرح الغريب الممتد من الداخل
للخارج، أجبته بشيء عن مسمار وشاكوش وأشياء أخرى لم تبد
مفنعة، ثم خرجت إلى شوارع ثكنات المعادي أضخ نيكوتيني كقطار
بخاري أعمى، بالكاد أستجمع تفاصيل تطاير كالكحول من رأسي،
جلست على الرصيف وأخرجت أجندتي والقلم، دَوّنت كلمات
متصلة منفصلة قد تساعدني على التذكر، وشم بسمه، في أي زمن
كنت؟ سقف الخنافس، البغل الأزرق وشجرة الكافور، اللعنة، ذلك
فيه يفوق فيه اليهود في سيناء! عليّ أن أرجع للبيت وأستكمل رحلتي
الكيميائية، كان هذا حين صرخت معدتي! نسيتهما جائعة، عليّ أن
أضع لها الطعام في طبق، كما أن ذهابي في رحلة بصحبة الفيل الآن
قد يكون ذهابًا بلا عودة في ظل حُكم بنكرياس متهالك وشبه غيوبة
سُكر لم يمر عليها وقت طويل! أسمى منذ زمن للاشجار بالتقسيط،
لكنها ليست بالليلة المناسبة! عليّ أن أستعيد عافيتي لأخوض رحلة
أخرى، وأن أتابع ما حدث لشريف في اليوم الساقط من حياتي،
لا أظن سامح قد أهدر فرصته في استفزازة والطرق بقضيب ساخن
على أعصابه، لن يفهم ذلك الجاموس أن شريف يملك شخصيتين!
سامح يصنع بيديه فرصة حقيقية لرجمي حيًا، مَجِد القَضَاء على
مُنافس في عالم الذكورة، ولن يتخلى عن حُلْمه! كما أن وجود لُبني
يَضْغَط على غَدَتِي النخامية وَيُصَب في دَمِي كُحُولًا راقمًا من كُوب
طويل مملوء ثلجًا، لم أَكُن لأفكر، سَحَبْتُ هَيْتِي المزرية وجرح
أصبعي المتهتكة واتجهت لمستشفى العباسية..

حين وصلت كان الليل قد حَلَّ، كل شيء هادئ مَبْتَ بِسَلامٍ،
ألقيت نظرة على غرفة العزل فوجدتها غارقة في الظلمة ساكنة،
دخلت غرفتي وأيقظت الكمبيوتر، بحثت عن الملف المخفي وتقرنت،
تتابعت اللقطات في رتابة، تمثل حالة العنبر طوال اليوم، استطعت
حصر حركة النزلاء من التوقيت المكتوب في أسفل الشاشة، بعضهم
كان كالذبابة لا يَمَلُّ من اللف والدوران، والبعض الآخر بدأ صفا
لا يتحرك إلا صدره للتنفس، وغرفة شريف ساكنة لم يفتح بابها
سوى لمُحسن المَرَض، دَخَلَ بصينية الوجبة، وما لبث أن التقطها
بعد ساعة كما هي لم تتغير، اللعين لا يقرب الطعام! سَرَّعت إيقاع
اللقطات حتى ظهر سَامَح قبل نهاية النَّهار، دار دورتين وسط نزلاء
العنبر قبل أن يدخل غرفة العزل، أبطأت السرعة وتابعت، فقط كنت
ألاحظ رأسه يظهر من حين لآخر من فتحة الباب الزجاجية، يتحدث
إلى شريف، ثلث ساعة قضاها بالداخل قبل أن يخرج ووجهه عابس
مُنْدهش! باقى الساعات لم ألحظ فيها تغييرًا، أخفيت الملف في رُكن
آمن وخَرَجَت أَلَمَسْ غُرفة العزل، لَكَزَت عَسْكَرِي الحراسة فَنَحَّ
لي الباب وأمرته بإغلاقه وراني، الظلام كان دَامَسًا ولم أشأ إضافة
النور حتى لا أوقظ شريف أو النزلاء، تسَلَّلت حتى لامست سريره،
مَشَيْت بِأَنَامَلِي تحت حَافَتِهِ حَتَّى عَانَقَت جِهَازَ التَّسْجِيل، هَمَمْتُ بِتَكْ
الشَّرِيْطَ اللّاصِقَ لِأَخْرَجَ كَارَتَ الذَّاكِرَةِ حين سمعت صوته:

.. شُفْتُ «بَحْر»؟

انتفضت من أثر الصوت.. بحثت بيدي عن زَرِّ النور حتى وَجَدْتُهُ
فَانْجَلَّتِ الْغُرْفَةُ.. شَرِيفُ كَانَ جَالِسًا فَوْقَ السَّرِيرِ سَانِدًا ظَهْرَهُ لِلْحَائِطِ
فَارْجًا سَاقِيهِ.. رَافِعًا يَدَهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ..

- اطفئ النور..

قالتا بصراخ فأنزلت المقبص مكتفياً بالضئ الخافت المتسلل من
القنبر عبر النافذة الزجاجية للباب لا تستشعر أبعاد الفُرقة..

- كان اسمه «بحر»..

- مين اللي كان اسمه بحر؟

- البغل..

!!...-

- كان أكبر بغل في المنطقة.. أمه فرسة عربي ماصلة من اليمن..
لونه بني.. بس في ضئ الشمس اللمعة الزرقا بتظهر زي رقبة
الحمامة.. عشان كده سمّيته بحر..

- انا مش فاهم حاجة.. بغل إيه؟ أنت إزاي شفت الـ..

قاطعتني بلامبالاة..

- لقيت القميص؟

- القميص معايا..

لم أره لكنني شعرت بانتباهه وتعديله من جلسته حين عرف أنني
خضلت على القميص..

- القميص ده لازم يرجع.. احرقه..

!!!-

من قال «القميص لازم يرجع»، ليس هو من أمرني الآن بحرقه!!

اختلف الصوت، الأول لم يكن شريف، كان صوتًا عميقًا هادئًا
أجش، آتيا من حنجرة رجولية ثابتة الأحبال، أما الثاني، فلم يكن
أيضًا شريف! بدا لي أقرب لنائل، نفس الحدة والبيحة، لكن من هو
الأول؟ انتابتنى رعدة حين فكّرت في الضيف الذي حلّ في الغرفة،
نحن الآن أربعة إذا صدق حدسي!!

- أفهم الأول.. وصل إزاي شقتك؟ سألت شخصًا من الثلاثة..

- سرقة.. مكانه الأصلي مع صاحبه.. احرقه يا يحيى.

الغرفة أصبحت مزدحمة! تراجعت خطوتين مُحاولًا استبيان مع
من أتكلّم، الإظلام اللعين يفقدني القدرة على قراءة لغة الجسد..

- مُمكن أنور الثور؟

- أنت مش محتاج نور عشان تشوف.

- احكي.

ساد الصمت لحظات.. سمعت خلالها طنين ألف نحلة قبل أن
أسمع إجابة..

- التزم بقواعد اللعبة.. عشان تعرف إجابة لازم أسألك سؤال.

يبدو أن من فاز بالصراع كان نائل..

- كام مرة غمّضت عينيك وشفت لبنى في حضنك؟ من
غير كذب.

....

- عاوزني أصارحك إزاي وأنت مش بتجاوب؟

على مفضل أجبتة:

- مرتين..

- بعد كل وجبة؟ أنا مستغرب [أأي ما انتحرتش لغاية دلوقت؟
- أنا كمان..

- هاتقضي عمرك كله تنفج عليها في القاترينه!

- المفروض أعمل إيه؟

- الست تحب الراجل اللي يشدّها لحُصنه..

- ويضربها ويغتصبها.. مش كده؟

- ساعات المقاومة بتكون فيها لذّة..

- ساعات برضه الساديزم بيكون مرض مستخبي وما يظهرش

غير في ظروف معينة.. أنت مين؟

- أنت عارف اسمي..

- نائل؟ ولا حد ثاني.. تالت؟!

- مافيش حدّ تالت..

- بتكذب! أنا سمعت صوته..

- صاحبك مسكين.. كويس إنه عارف يطلع صوت..

- القميص!!

- احرقه.. القميص ده فيه هلاكك.. لُبني محتاجة لك..

- يا دي لبنى ١١

- ما تنكرش إن فيه متعة إنك ندوقها دلوقتي أكثر من زمان..
المقاومة.. النزاع.. صموبة الوصول بتخلي كل حاجة ليها
طعم ثاني.

- ما تغيرش الموضوع.

- بالعكس.. رغبتك اللي بتحاول تكتمها هي اللي ميوخة الكلام..
إحنا متفقين على الصراحة.

...-

- نفسك فيها؟

- كان.. نفسي فيها.

- هنسيبها تعيش مع حد مش بتحبه؟

لم تكن لكلماته إجابة..

- أنت بتتحرر.. وهي ما لهاش ذنب.

- إزاي بتقدر تدخل أحلامي؟

- أنا ما بدخلش أحلامك.. أنت اللي بتدخل العالم بتاعي.

- يا شريف.. إذا كُنت سامعني ساعدني.. ساعد نفسك.. أنا
ما بقتش فاهم حاجة.

- القميص.. تحرق القميص.. تاخذ كل الإجابات.

- مش هاحرق القميص من غير ما أفهم.

- أنت بتأذي نفسك.

- لو ما فهمتش هاسلم القميص ده.. إضافة تهمة سرقة لجريمة قتل مش هتفرق كتير في نُهمك.

فلتها بنيرة حادة عالية قبل أن يسود الصمت مع آخر كلماتي بوقعه المزعج.. صفارة الشكون في غرفة معزولة تجعل منك أصم.. هدوءه المُباغت أفلقني فرجعت خطوة كافية لضغط مقبس النور.. اضينت الغرفة كسرًا من الثانية قبل أن ترتعش لمبة النيون وتنطفئ.. شريف كان جالسًا على سريره ينظر نحوي.. ثم تحرك.. سمعت صرير السرير قبل وقع مُلامسة خطواته الأرض.. اللعنة على لمبات النيون.. مع الومضة الثانية لمحته بعيدًا عن سريره خطوة.. على بُعد ثلاثة أمتار مني.. شريف لم يبد على ما يرام.. الغضب كان يعلو وجهه أو هكذا خُيل إلي.. لم تسمح لي الظلمة بالتدقيق.. أنزلت المقبس ورفعته ثانية فأنت اللبة بأزيز متقطع وطققة مَوْت الـ «Starter» قبل أن تنبض بضوئها الأزرق لكسر آخر من الثانية.. بات على بُعد مترين مني.. لا أتحدث هنا عن شريف..

أتحدث عن الشخص الآخر الذي يقترب مني..

شخص أطول من شريف وأعرض.. تخمري البشرة عريض الصدغ!! هكذا لمحت قبل أن يندفع الأدرينالين ساختًا من فوق كليتي في جنون أسعر خلاياي وحرقتها جزعًا.. رفعت الزر وأنزلته نالته وانقضضت على مقبض الباب أجذبه بهستيريا.. بالطبع كان يُقنح من الخارج فقط في عنبر العزل! ألصقت ظهري بالحائط جاحظ العينين جوعًا للتفاصيل.. ومضة أخرى لم أره فيها! الغرفة كانت

خالية!! العصب البصري لم يكن ليتحمل ذلك التابع السريع للقلم والنور.. لكن الغرفة كانت خالية!! ومضة إضافية برقت فوجدته على بُعد متر مني.. ذلك كان شريف! أو نائل!! تحركت الكهرياء على جسدي برعشة غير معهودة.. لم يكن خذاع بصر ولا تخاريف نيون يحتضر!! مع الومضة الأخيرة أصبح أمامي.. رجل في الأربعينيات قوي البنية.. شعره منسدل يصل قرب كتفيه.. لحيته مشدبة مُدببة.. وعيناه! عيناه قاسيتان تحملان حزنًا وهمًا لم يكن ليتحملة إنسان.. عضلاته مفتولة وقبضته التي اعتصرت رقبتى أصابعها غليظة قاسية.. ذراعه التي دفعتني للحائط كانت ذراعًا قوية لم تشبه ذراع شريف الهزيلة سوى في الوشم المنقوش فوقها.. الوشم الذي يتحرك بهدوء.. ومضات النيون وطقطقته أصبحت بأهمية دخول وخروج أنفاسي.. وسيلة أرى بها على الأقل من الذي سيقتلني! فيما عدا ذلك كنت أعمى بين يدي وحش يرفعه من على الأرض ستيمرتات قبل أن يسحقه.. القبضة لم تكن هيئة لتصدُر عني حتى استغاثة.. فحنجرتي مهروسة في قصبتي الهوائية.. وعيناه لم أدرك لونهما لكنه كان يرمقني.. بحب!! لم تكن تلك مشاعر بغض أو كراهية.. كانت شيئًا أقرب للعتاب!! دنا مني بعد ومضتين إضافيتين فميزت في قبضته التي تُمسك بي خاتمًا عتيقًا ذا حَجَر أسود مربع.. صعدت إلى وجهه فالتقطت تفاصيل فمه الواسع تحت أنفه المدبب وجبهته العريضة المُستوية فوق حاجبيه الكثيفين البارزين.. وسيم القسماص صتفت رغم ضيق أوعية رقبتى التي أضعفت نور عيني.. بدأت الحياة تتسرب من فمي.. من بين أصابعي.. أسترخي.. استسلم.. أذوب كاللجة فوق نار.. صرخت بفحيح أفعى تحتضر.. لو ألح علي دقيقة

بصافية لأقنني بانتخلي عن الحيلة راضياً.. ضربت يقضي التولعة
صدره.. لوحث بها نحو ما استطعت الوصول إليه من وجهه قبل أن
نهرب ومضات النيون أقل برقاً.. فلاشات كاميرات باهتة أمام نجم
على البساط الأحمر.. فلتهن الدنيا بما فيها.. آخر ما سمعته حين
تمحنى بي لئيسجيني فوق أرض الغرفة:

.. إن لم نأت بالقميص ستمنى أن تلقى حنك.. ولن تنال
ذلك الشرف.

قالها بصوته الأجلش ثم ارتخت قبضته عن عنقي.. غصت في
البلاط البارد أربعة آلاف متر حتى رأيت حُطام السفينة «تينانيك»..
ومضت ومضة نيون ميّزت فيها قدميه العاريتين تبتعدان.. شهقت
سحباً لنفس يَضُخّ الدّم في خلاياي فلم أستطع.. احتجنت ثانية قبل
أن أبصق روحي.. خرج منها ٨٠٪ قبل أن أدركها بالكاد.. أقنعتها
بالعدول عن قرارها.. استرددت همّتي ببقايا الأدرينالين في دمي قبل
أن أجلس.. ومضة إضافية مسحت فيها الغرفة.. لا أثر له!! جَرى الدم
في عروقي معجى السيل فوق الجبل.. مُتَفَضّاً استندت الحائط حين
ومض النيون قرأته جالساً على السرير مُستنداً على الحائط كما كان
حين دخلت..

شريف

بدأت الغرفة تتضح ويبدأ مع توالي ومضات النيون حتى ارتعشت
الللمبة وعشة أخيرة قبل أن تبت نورها المُستمر في هدوء.. شريف
كان ساكناً كما هو.. شاردًا كما هو.. مُلتصقًا بالحائط يرمق الفراغ
بعينه الثابتين.. لحظات وانفتح الباب عن محسن المُمرض..

وَجَدَنِي عَلَى الْأَرْضِ أَرْمَقَ شَرِيفَ فَتَيَّسَ اسْتَفْرَابًا لثَانِيَةً ثُمَّ انْمَضَى
يَلْتَقِطُ ذِرَاعِي..

- دكتور! أنت كَوَيْس..!؟

هَزَزْتُ رَأْسِي إِيْجَابًا وَسَعَلْتُ ثُمَّ أَجَبْتُهُ بِفَحِيحٍ:

- أَنَا كَوَيْس.. كَوَيْس..

قُمْتُ أَسْتَنْدُ عَلَيْهِ أَرْمَقَ شَرِيفَ مُرْتَخِي الْمَلَامِجَ، تُحَاصِرُنِي
الْهَوَاجِسُ وَتَعْبَثُ بِرَأْسِي الظُّنُونُ، تُسْقِنِي نَارًا وَشُكُوكًا لَا خَضِرَ لَهَا،
اقْتَرَبْتُ مِنْ شَرِيفٍ مُسْتَغْلًا خَضِرَةً مُحْسِنٍ حِينَ لَا حِظَّتْ عَيْنُهُ الْمَيْتِينَ!!
خَوْضَ حَدِيثٍ مَعَ الشَّخْصِ الْخَطَأِ لَنْ يُجِدَنِي! طَلَبْتُ مِنْ مُحْسِنٍ كُوبَ
مَاءٍ قَبْلَ أَنْ أَسْتَبْدِلَ كَارْتِ الذَّاكِرَةِ فِي جِهَازِ التَّسْجِيلِ..

- شَرِيف!!

لَمْ يَعْرِفْنِي أَدْنَى انْتِبَاهٍ! أَغْلَقْتُ الْبَابَ وَرَائِي مُحَاوَلًا السَّيْطِرَةَ عَلَى
رِعْشَةِ أَعْصَابٍ أَصَابَتْ يَدَيَّ، طَلَبْتُ مِنْ مُحْسِنٍ إِخْرَاجَ شَرِيفٍ
صَبَاحًا مِنْ غُرْفَةِ الْعِزْلِ، حَتَّى يَتَسَنَّى لِي مُتَابَعَتُهُ أَرِيعًا وَعِشْرِينَ سَاعَةً
بِكَامِيرَا المِرَاقِبَةِ، ثُمَّ جَرَدْتُ سَاقِي حَتَّى غُرْفَتِي، ارْتَعَيْتُ عَلَى الْكُرْسِيِّ
أَتَحَسَّنُ رَقِيَّتِي الَّتِي اتَّبَعَجْتُ كَعْبُودَ بَيْسِي فَارْغَةً، يَغْمُرُنِي الْعَرَقُ
وَيَهْزُنِي نَبْضُ هَلْخَرِ كَطَبُولِ الْحَرْبِ، لَا أَعْتَدُ أَنَّ الْفِيلَ الْأَزْرَقَ قَدِ رَحَلَ
مِنْ عُرُوفِي! ائْتَنِي مُحْسِنٌ بِكُوبِ قَهْوَةٍ تَجَرَّعْتُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً وَطَلَبْتُ
آخَرَ، حَاطِلْتُ لَفَّ مَسْجَلَتِي بِأَصَابِعِ مُرْتَعِشَةٍ فَجَاطَمْتُ مَفْكُوكَةَ مُهْتَرَةً
يُؤَمِّلُ التَّبَعُ مِنْهَا، سَخَبْتُ النِّيكُوتِينَ إِلَى رِثْمِي قَبْلَ أَنْ أَتِمَّاكَ نَفْسِي
نَسِيًّا، أَغْلَقْتُ بَابِي وَطَالَعْتُ نَتِيجَةَ كَامِيرَا المِرَاقِبَةِ شُكًّا فِي الدِّقَاقِ
الْمَاضِيَةِ، رَأَيْتَنِي أَدْخُلُ الْغُرْفَةَ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ الْوَمَضَاتُ فِي الْبُرُقِ

لا شيء أستطيع رصده! أخرجت كارت ذاكرة التسجيل الصوتي
وافرغت ملفه على الكمبيوتر قبل أن أضغ السّاعة وأنصت، الصمت
كان مُسيطرًا لوقت طويل قبل أن أسمع الخبط، صوت رتيب مُكرّر
أشبه بخبط شيء في جدار، دقائق والتقطت صوت شريف، كان خافتًا
مُختلطًا جعلني الصق السّاعة في أذني، يتحدث! يرتل كلمات لم
أبهر منها شيئًا، يكلم نفسه، اللّعة على أجهزة التسجيل، ظلّ صوته
يزنّ قبل أن يتوقف فجأة ويضطرب الميكروفون ويُصدر طقطقة..

بحيى..!!

النداء جاء هادئًا مُباغتًا ملاصقًا للميكروفون، صرخ في طبلّة أذني
فمزّقها، أبعدت السّاعة لا إرادياً قبل أن أخفض الصّوت والصّيقها
بأذني ثانية.. ساد الصمت لحظات ثم بدأ يشدو:

الْحَيّ فِي حِجْرِهِ بَيْتٍ مَا رَقْد..

عَيْنُهُ مِنْ قُصَّتِهَا وَخِيَّ الْعَلَق..

الْحَيّ فِي حِجْرِهِ بَيْتٍ لَمْ يَنْم..

عَيْنُهُ لِسَوْتِهَا وَلَتَحَتَّ الْعِزَام..

الْحَيّ فِي حِجْرِهِ بَيْتٍ وَوَصَلَ..

عَيْنُهُ لِرُسْمِهَا وَلِخُحِّ الْمَسَلِ..

ظلّ يكرر أغنيته الغريبة بصوت تحشّج مع الوقت ونفس تهذّج
واقترّب من الباب ثم سمعت الباب يُفتح، اضطرب الميكروفون بين
بلبه قبل أن أسمع صوت سامع يفتحهم التسجيل:

- صاحب الخير ..

لم يجبه شريف .. أخفى التسجيل في ملابسه أو تحت الوسادة ..
عرفت ذلك من تخطيط الميكروفون والصوت الذي خَفَّت بفتة ..
أردف سامح:

- أنا استلمت القضية من صاحبك .. حيثك تعرف ..

قابل شريف كلمات سامح بالصمت ..

كانت حلوة منك حركة الطرطرة اللي عملتها .. جنان جنان
يعني .. جنان يمشي مع واحد مُبتدئ .. أو واحد ناسي الشغل
زي صاحبك.

....

- مافيش داعي للسكوت أنت ما عندكش سبب عُضوي .. تقرير
الطب الجنائي مخلص ومشاور عليك .. أنت اعتديت عليها قبل
ما ترميها وده مُثبت من العينات .. يعني كنت معاها لآخر لحظة ..
القضية محسومة أنا مش عارف أنت بترقس على إيه؟ المحامين دول
ولاد كلب .. مش عارف بيحللوا اللقمة إزاي !! وبعدين أنت دكتورا
عيب !! من إمتى الكلام الفاضي ده بيخيل علينا في العباسية !!

....

- إحنا لوحدنا هنا .. حتى لو ما قلتش أنا ما قول إنك قلت !! إيه؟
هايكذبوني ويصدقوك !! احكي ويمكن أفكر أساعدك .. إحنا زملا
برضه وأنا ما يخلصنيش يطلع واحد متنا قاتل .. مجنون آه .. بس
مش قاتل .. دي سُمعة وبتلرق .. «Stigma» .. شريف بُص لي هنا ..

إيه! صَاحِبِكَ فَطَنَكَ مَا تَتَكَلَّمُشْ مَعَابَا؟ صَاحِبِكَ دَه غَشِيم.. فَاثِل..
عُمَرَه مَا عَرَفَ يَنْجَحْ فِي حَيَاتِهِ.. خَبِي وَمَغْرُور وَسُكْرَان مَا يَفْهَمُشْ..
وَمَشْ هَايْطَلْعُكَ مِنْ هُنَا غَيْرَ عَلَى الْإِعْدَام.. عِنْدَكَ اسْتَعْدَاد تَفْضِلْ
مَا شِي وِرَاه؟

الصمت ظلَّ مُطَبَقًا مُسَيِّطَرًا..

- رُدِّ عَلَيَّا زِي مَا بَكَلَمَكَ.. أَنْتَ مَشْ مَصْدُوقُ إِنْ صَاحِبِكَ خَلَعَ مِنْ
الْقَضِيَةِ هَه؟ أَنَا كَانَ فِي إِيْدِي أَقُولُ لِلْإِدَارَةِ إِنَّهُ زَمِيلُكَ وَفِيهِ كَلَامٌ مَا
يَبْنِيكُمْ.. بَسْ أَنَا جَدَّع.. عَشَانْ تَعْرِفْ إِنْ مَشْ مَصْلَحَتِي إِنَّكَ تَتَأَذِي..

....

- كَلْهَ! طَيِّب.. مَا شِي.. بَسْ عَارِف.. اللَّعِبَةُ اللَّيْ حَاصِلَةٌ دِي مَشْ
هَاتَعْدِي مِنْ تَحْتِ دَقْنِي.. إِذَا كَانَ إِلَيْهِ يَنْظِبُطْ مَعَاكَ عَشَانْ تَخْرُجْ فَأَنْتَ
تَنْسَى.. أَنْتَ مَشْ خَارِجٌ مِنْ هُنَا غَيْرَ عَلَى الْإِعْدَام.. وَزَحْمَةٌ أَمِي دَه
اللي هَايَحْصَلْ لَوْ مَا اتَكَلَّمْتَشْ.. سَهْلٌ جَدًّا التَّحْرِيرُ يَمْشِي فِي السَّكَّةِ
دِي وَأَنَا أَهْرَفُ أَكْتُبُ تَقَارِيرَ إِزَاي.. عَدْدِي عَلَيَّا هُنَا أَلْفٌ وَاحِدُ زَيْكَ..
وَلَا وَاحِدُ خَيْبٍ ظَنِّي مِنْ أَوَّلِ نَظَرَةٍ.. أَنْتَ «Fake».. حَتَّى مَشْ عَارِفٌ
تَنْظِبُطُ الْأَعْرَاضِ.. وَأَنَا هَاعْرِفُ أَثْبِتْ إِنَّكَ «Fake».. إِنْ شَالَلَهْ تَقْعَدُ
سَنَةً هُنَا.. «Fake»..

- أَنَا قَتَلْتُهَا..

تِلْكَ الْمَرْءَةُ صَمَمَتْ سَامِع.. أَكَادُ اتَّخِيلُ مَفَاجَاتِهِ.. وَمَفَاجَاتِي مِنْ
رُدِّ شَرِيفِ الصَّاعِقِ..

- جَمِيلٌ! بَدَأْنَا نَفْهَمُ بَعْضُ.. أَحْكِي..

- خانتني ! قتلتها .. أي حد مَطَر حي كان ها يعمل كده ..

- تفاصيل ؟

- عذبتُها أسبوعين .. ولو رجع بيا الزمن ها عمل كده ثاني ..

- يعني أنت مش عيان ؟

- مش عيان ..

- يحيى يعرف الكلام ده من إمتى ؟

- يحيى هو اللي قال لي أعمل كده في أول قاعدة في المستشفى .

- عشان تخرج على الخانكة ! مُقابل ؟

- هي دي المشكلة .. يحيى طلب أجوزة أختي .

- تجوزة أختك ؟

- يحيى متيم بيها من زمان .. قصّة قديمة عُمره ما نسيها .

- أنا كنت حاسس إن فيه حاجة غلط !

- هو ما يعرفش .

- يعني إيه ما يعرفش ؟

- يحيى عنده «Schizophrenia» من ساعة حادثة مراته وبتته ..

مش مصدق إنه اتفق معايا على حاجة .. بيكلّم نفسه طول ما هو قاعد
معايا ويدّعي إني أنا اللي باكلّمه ..

- «Schiz» ؟

- أنا دكتور وعارف الأعراض .. يحيى بيكلّم نفسه من تليفونه ويرد

على تليفوني .. بئها له إن حد بي كلمه .. مُتخيل إنه هو اللي اختار
العنبر وحالتي .. حتى ناسي إنه سمع الموضوع بتاعي من الجرايد
قبل ما يرجع .

- وانت ليه بتعترف لي ؟

- لأنه هددني بالقتل لما قلت له إن مش هابتفع أجوزة اخني ..
لأنها متجوزة! يحيى وصل للمجنون .. بعملها .. هابتلني لأن فيه تار
من ساعة ما رفضت أجوزها له .. أنا كده كده مِت ..

هنا أوقفت التسجيل .. كان علي استيعاب ما سمعت قبل أن أفقد
اعصابي فأكسر طرف خرس أو اعطس لسائاً أو ألقأ عينا !!

ما الذي يفعله ذلك المجنون! ما الذي يعرفه عني ؟

قُمت من الكرسي ملدوغاً .. جُبت الغرفة كأسد هرم سقط شعره ..
يتعاشي كُرباج مُروضه .. أسد بلا أسنان ولا براثن يُدخن كقطار
نهم للفحم .. اللعين يلكنزي أمام أعتى أعدائي وأكثرهم تفاهة!
بلا تفسير! لا .. هناك تفسير .. مريضُ جنون الاضطهاد يظن في كل
من حوله سوء .. قد يتهمني باغتصابه جنسياً أو تسميم طعامه .. أو
حتى تهديده بالقتل!

بالكاد جلست ثانية ونقرت زر التشغيل ..

- ما تخافش ..

ذلك كان سامح يُطمئن شريف، يحتضنه تحت إبطه العرقان،
يُشمت في وقيم الأفراح والليالي الملاح على شرف فضيحتي الآتية،
يمني قصراً من الآمال المتعلقة بشفتي حياً على باب المستشفى ..

بالطبع لن يجد فرصة أسنح من تلك!!

.. حافظ على هدوئك.. ما تتكلمش معاه.. لو جالك ارفض التعامل
واطلب مقابلة رئيس القسم.. واطلب منه يسحب ملفك من عند يحيى
وما تذكرش السبب.. يحيى مش هايقدر يحكي اللي بينك وبينه..
وأنا هاتصرف.

انتابني رغبة عارمة لرؤية وجهي الذي لُطم.. قراءة الغضب
في ملامحي حتى أطمئن أنني موجود.. بحثت عن امرأة فلم أجد..
أخرجت تليفوني ونظرت في شاشته.. أنا.. أنا أعرفني كما أعرف
«ولده» أوراق الكوتشينة!
سأقتله..

هكذا خرجت مني.. وهكذا ذكرها شريف في التسجيل عن
لساني.. أنني سأقتله إن لم يزوجني أخته..
ارتعشت يدي واختلجت عيني لما تذكرت جملة د. كيلاني «أنا
مش بقول إن الـ «Psychiatrist» مُستحيل يمرض.. بس ياما شُفنا
الاعيب..».

أعرف عن نفسي الكثير..
أنا الجندي الذي تلقى رصاصة في معدته ويُشاهد احتضاره
«Exclusive» دقيقة بدقيقة بلا إعلانات..

أنا الصدر المُحترق يُصفه بدخان السجائر والنصف الآخر
حريقه لُبنى..

أنا الذي لم يبك زوجته.. ولم يحلم بها مرة..

أنا الذي لا يجرؤ على تذكر ابته..

أنا فئات إنسان يتظاهر أنه على قيد الحياة وهو ليس كذلك..

أنا الذي يتنفس ويأكل وينام بقوة الدفع..

أنا ساعة بدون عقرب..

أنا يونس في بطن حوت كافر لن يلقطني عند جزيرة..

أنا الذي يمارس الجنس قصداً كقصده ماء الخيل حتى لا تنفجر
أوعيته ضغطاً وحرماناً..

أنا الطعام بلا ملح..

أنا الذي ينتظر لحظة الإغلام الأخير في مسرحية مُجلة من
تسعين فصلاً..

لحظة نزول الستارة الحمراء.. بلا تصفيق..

ضغطت زر التشغيل ثانية، خرج سامح من الغرفة وأغلق الباب
فوق الصمت، صمت ثقيل لزج ككرة صمغ حُشرت في حلقي،
أستطيع الآن توقع ما حدث، خرج سامح من العنبر قاصداً مكتب
المديرة، حكى لها ما حدث قبل أن تنهائ عن تلك الأفكار المُربكة، ثم
تسمع حكايته ثانية تحت ضغط إلحاحه، ستنزل نظارتها من فوق أنفها
حين يدب الشك في قلبها، ثم تُداعب القلم بين أصابعها حين يتمكن
اليقين من قلبها، ستصرفه بهدوء وتفكر ساعة ثم تؤجل حركتها إلى
اليوم التالي، ستتصل بي تستدعيني وتُجلسني أمامها ثم تواجهني
بالمعلومات المتوفرة لديها بروح ناظرة مدرسة ثانوي، سأنكر ما قاله

سامح كما أنكّر «بُطرس» معرفته بالمسيح، قبل أن أحكي لها عن
أسطورة حقله الدفين ورغبته القديمة في زوجتي نرمين، رغبته التي
تحولت من منافسة ذكورية إلى ثأر صعيدي وكرامة مُهددة، لن تقتنع
١٠٠٪ بكلماتي لكن الشك سيتسرب إلى قلبها بشأن سامح، مشكفي
بتحذيري من خلف نظارتها قبل أن توصيني بالنوم لما تلاحظ السواد
الكامن تحت عيني.. تمّت..

قاطع تكهناتي صوت دخولي غرفة العزل في التسجيل.. استمعت
لكلماتي وأنا مخاطب شريف.. صوتي ظاهر واضح أتحدث.. وهو
لا يجيب! صوته لم يُسجل على الجهاز!!

فقط كلماتي وارتطامي بالمحائط وحشر جني فوق البلاط!!

أنا أعرف نفسي..!

جيداً..!

خرجت من العنبر إلى براح المستشفى، تمشيت وسط الأشجار
أنزف ما تبقى من التبغ في جيبِي، اتجهت إلى المعادي بعقل خاو،
عقل يُعاني بلّها تدلّت منه ريانة أفكاره، رجوعي البيت أصبح بثقل
سيارة نقل بمقطورتها فوق قلبي، رائحة مايا تُحاصرني كيرب تُحل
شُرس! كان عليّ أن استقر عند شخص لا يسألني من أنا، كما كان
عليّ الحصول على كأس في أسرع وقت..

لم ألحظ من قبل أنني لا أملك أصدقاء بالمعنى الحرفي للكلمة!

حين أسندت رُسُفِيّ على مائدة عوني تَعَطَّلَ عَقْلِي عن العَمَل، كان هناك خمسة أشخاص بينهم شاكر، تفرقت الأرقام والأسرة المالكة بيتنا وانهمكت في الاصطلياد، أوراق الأميرات كانت لُبْنَى، بسمة ومايا، قلب أحمر، يستوني وتريفل! ورقة لُبْنَى كانت تجاور ورقة شايب «كومي»، يلتصق بها شاهراً سيفه في زهو كأنه خالد لن يموت، ورقة بَسْمَة التصقت بأمير قلبه أحمر، وجهه يحمل عنفواناً وجنوناً، ومايا، كانت بلا أمير، حُوصرت بورقتين أرقامهما فردية!!

حين انتهت للجالسين حولي كان أربعة قد انسحبوا، لم يبقَ غيري وشاكر، الجولة الثالثة بيتنا، دَمَقْنِي من رُكْنِهِ بِغِلٍّ وكراهية وحذر مُتَرْقِبٍ، اللعين يبحث عن ثَأْرٍ لن يناله ما حيا، عينا المرتعشتان قالتا ذلك، أصابعه المضطربة أعلنت عن نفسها، حاول إرهابي برفع الرهان فرفعه ضِعْفَيْن، لحظات من الصُّمْتِ الصَّاحِبِ مَرَّتْ قبل أن أُلْقِي أوراقِي على الجُودَةِ الخَضراء، أكملت «Three of a kind»، ثلاث فتيات وورقتان ٧ و٨، دَفَنَ شاكر سيجارته ونظر لي بأسى قبل أن يُرْخِي قبضته بأوراقه، «Straight»! نطقها عوني، تتابع ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨، يد أعلى من يدي!! كيف فعلها؟ انكسر سيفي وأُسِرَتْ

فتياتي فتَهَلِّل وجه شاكر بنصف ابتسامة شامخة، أغمد سيفه في قلبي
فترنحت قبل أن يحوط مالي بذراعيه ويسحبه لركنه..

تذكرت الحضالة التي اشتريتها لنور ابتي يوماً، بيت أحمر صغير
تضع أمامه عملة معدنية فيخرج كلب بلاستيكي «يدلي لسانه»
يسحبها إلى الداخل! الكلب كان يُشبه شاكر.. ووجه نور لقما انتابني
اختنقت فُقمْتُ..

.. أنا ماشي..

.. مالتة بلدي يا دكتور!

غرزها شاكر بين ضلوعي سخرية ولم أجد في نفسي العزم لردّها..
قُمت خالي الجيوب متهذّج النفس وانسحبت.. قبل أن أصل الباب
استوقفتني «نيجوزي» تتلفت حولها خشية عوني..

.. نعم..

.. «Please take that»..

قالتها والتقطت كفي ووضعت فيه لفافة بحجم علبة سجائر..

.. إيه ده؟

.. «Please put it around your neck to protect»..

.. يا ستي أنا ما بعلّش حاجة في رقبتني.. «I don't put something

in my neck».. اتكلي على الله.. الله يبارك لك..

.. «Please».. أنت آبان.. محتاج هي.. أنت دفأت فولوس

«Last time».. فيفتني باوند..

.. عيان إزاي؟

.. «Your eyes.. I can see into it» ..

.. عينيًا؟

.. نيجو ووزي..

ذلك كان عوني ينادي جاريته السمراء.. تركت اللقافة في يدي
وهرعت لتلبي نداء سيدتها وهي تبسم لي ابتسامة ود.. وشفقة..

في المصعد فضضت الورقة الملفوفة، بداخلها كانت هناك سلسلة
مُعلّق فيها كيس صغير رائحته بخور!

نيجوزي تُحلّل لُقماتها بحفنة بخور من خان الخليلي في الحسين،
سأبدو مُطربًا تافهًا بلا معجبات حين أرتديها..

ماذا رأت «نيجوزي» في عيني لتداويني؟ لِم أحب الإجابة التي
صَرَخْتُ في صدري..

لا.. لست مريضًا!

ردّدها بلا صوت..

ردّدها بشك!!

كلمات شريف تضرب أعصابي بمطرقة حديدية.. تشرح قناعاتي..
تهدمها.. لقد قتلها يومًا للبنى.. «مريض الضلالات صعب أن يتزحزح
إيمانه بما يؤمن به...».

في مطبخي تجرّعت زجاجة بيرة وأنا أجتر تلك الحقيقة، ظلمت
متييسًا كتمثال أثري ولم أدر بنفسي إلا وأنا أسدّد بعزم قوتي الزجاجة

نحو هرم الزجاجات الذي تعبت في إنشائه، فرقة عالية أصمت
أذني وطيرت الشظايا في وجهي قبل أن ينهار الهرم بدوي صارخ
فوق البلاط..

لست مريضاً..

لا أعرف كيف نمت ومتى!

حين استيقظت كنت راقداً في الطرقة قرب باب الحمام.. أيقظني
جرس تليفوني.. رقم المديرة كان يتذبذب..
- الو..

- يحيى.. صباح الخير.. أنت فين؟

- في البيت يا دكتورة..

- تقدر تبجي دلوقت؟

- فيه حاجة؟

- عندنا مشكلة.. مستيالك.. بسرعة يا يحيى وحياتك..

قالتها وأغلقت الخط، جلست مستنداً الحائط دقائق قبل أن
أنفض دينا صور الخدر الجاثم على ظهري وأقوم، غسلت وجهي
أمام مرآة الحمام قبل أن أبحث عن شيء حقيقي فيه، شيء يشعرني
أنني أصلي، لم أجدا شممت تحت إبطي فخلعت قميصي لأستحم،
لامست الغرز القديمة أسفل ضلوعي ولم تقنعني! ظللت تحت
الدش نصف ساعة حتى رن الجرس، جرس تليفون شريف! أغلقت
حنفية الدش والتقطته وأنا أتمم على تليفوني الساكن بجانبه، تأملت

شاشتي الصامته مقطوعة الطاقة، ولم أكتب بملك بل فصلت البطارية
قبل أن أستقبل المكالمات الواردة على تليفون شريف..

- ألو..

- أيوة يا يحيى..

ذلك كان صوت أبنى..

- قلفتني عليك بكلمك من إمبراح على تليفونك ما جرفش..
أنت كويس؟

تنفست الصعداء..

- معلىش.. قطع شحن..

- فيه أخبار؟

....

- مالك؟

- ما لبش..

- صوتك مش طيعي..

- مش طيعي! أنت شايفاني طيعي؟

- يعني إيه؟

- باتصرف بشكل طيعي وأنا قاعد معاكمي؟

- أنا مش فاهمة حاجة! إيه اللي حصل؟!

... -

- يحيى ١١ أنا عاوزة أشوفك ضروري.

- أنا رايح المستشفى دلوقت.. هاكلّمك لما أخلص.

- خد بالك من نفسك.

أغلقت الخط وقذفت نفسي في تاكسي، لم تمر ساعة حتى أصبحت في المستشفى، بعد بضعة قباني صادفت عمّ سيد، هالما على وجهه يكحت الأرض ببقاياه الذي بات شمكه ورقة، توقّف في نهر الطريق حين رأي، يتأملني بابتسامة غريبة، سرت قشعريرة في جلدي لما تذكرت وجوده بجانب الشجرة في بيتي..

- إيه اللي موقفك في نص الطريق يا عم سيد! امشي على جنب عشان العربيات.

- مستتيك يا دكتور.

- معلى يا عم سيد.. عندي معاد في الإدارة.

- معادنا كان عند الشجرة.

ارتعدت رغم الحر.. توقفت ورجعت خطوتين..

- شجرة إيه يا عم سيد؟!

- أنا عاوز منك خدمة.. توب قماش وشوية خيط وإبرة كبيرة.

- حاضر يا عم سيد.. بس شجرة إيه اللي معادنا عندها؟

- شجرة الكافور!

- المفلوكة؟ اللي في جنية العباسية؟

- هو فيه شجر بيطلع في البيوت يا دكتور!

نظرت في عينية الفارغتين من الكلمات، أسبره، أنقب عن حلم،
زهارة بلا ميعاد، أو ليل أزرق يتجول بلا قيد، ابتلعت ريفي لقالم
استنهل منه آية إشارة قبل أن أبتعد..

- ما تنسانيش في القماشه يا دكتور.. والخيط والإبرة..

أمام مكتب المديره جلست أنتظر أول طلقة هُجوم حتى لا أتهم
ذوليا بالتعدي.. تهز ساقها بتوتر.. تعنصر فلما.. تنتظر شيئاً..

- خير يا دكتور!؟ سألتها..

- خير يا يحيى.. مستنية بس دكتور كيلاني عشان يحضرنا..

اصطنعت اللامبالاة مُلقياً عينيّ خارج النافذة حين دلف دكتور
كيلاني المكتب، نظر في وجهي قبل أن يُصافحني ويجلس في
مُواجهتي، ثوانٍ من الصمت تبادلها فيها النظرات قبل أن يفتح دكتور
كيلاني المُحاكمة..

- يحيى حصل حاجة إمبراح كنت عاوز أكلمك فيها..

تركته يحكي ما سمعته مُسبقاً في جهاز التسجيل، مُصنّعاً دهشة
مزوجة بلا مبالاة، فمعرفتهم بجهاز التسجيل الذي دسسته والكاميرا
في العنبر وغرفة العزل يمثل:

انتهاكاً صارخاً لقانون الأمانة العامة للصحة النفسية وحقوق
المساجين وهو...

وهو شيء يعني لي «Nothing»!!

لكنه سيؤكد هواجسهما التي تحوم فوق رأسيهما من ناحيتي!

- رأيك إيه في الكلام ده يا يحيى؟

الإنكار دائماً وأبداً كان الاختيار الأفضل! بركة رجعت بظهري
إلى الكرسي وتجنبت حاك أنقي، فخلق الكذب يستوجب تركيزاً
يضطر من أجله الجسد إلى ضخ كميات إضافية من الدماء بين الجبهة
وطرف الأنف!

- رأيي إنه كلام فاضي.. شكوى كيلية من واحد حاقق..

- لكن انت تعرف شريف بالفعل؟

- أعرفه..

- لما سألتك قبل كده قلت ما أعرفوش!! سأل دكتور كيلاني..

- ما اكتش فاكروه.. شكله اتغير عن أيام الكلية..

- ماشي!! طب وموضوع اخته؟

- حضرتك تصدق كلام زي ده! أنا ما هند حد عشان اتجوز اخته

المنجوزة!

- أنا ما حكيتش إنها منجوزة!!

اللكمة جاءت في كيلي مباشرة، تسحب الكرسي من تحتي
فوقعت في بئر لا مياه فيه، عرقني سيكون كافياً ليملاء بعد قليل،
لا يروني أبعد رطبي وسحبت ثقباً لترن به..

- ما هي أكيد متجوزة! إيه المعنى إني أطلب منه حاجة مُمكن
أعملها من غير ما أهده!

ابتلع الرجل حُجَّتِي بكوب ماء ورغيف عيش.. كان عليّ تكثيف
اللكمات على فكه ليتهاوى أمام قصتي المتهرئة كثيرة الثغرات..

- كل ده تأليف.. أنا قُلت لحضرتك قبل كده إن شريف حالة
فصام.. وشكيت في ازدواج وحضرتك ما صلتقتيش..
- ثاني ازدواج يا يحيى!!

- أنا شفت ده بعيني يا دكتورة.. عارف إنها حالة مش مصنعة في
الطب دلوقت.. لكن فيه دايماً استثناء..

- تقسيم سامح عن الحالة يقول إنه اتكلم معاه طبعي ومافيش
فصام...

- سامح قعد معاه مرة واحدة بس.. ده غير إنه مش مُحايِد.. هَمَّه
الأساسي يثبت إن شريف سليم.. وإني نصاب..

- «Conspiracy Theory».. سامح مضطهدك؟

- مش نظرية مؤامرة يا دكتور ولا اضطهاد.. سامح شايل بسبب
مشاكل قديمة أنا في غنى عن الكلام عنها.. بيدخل الحياة الخاصة
في الشغل.. من الآخر ما يقبلنيش..

- خَرَج سامح من الموضوع ورُدَّ عليا بوضوح.. أنت فعلاً مالكنش
علاقة بشريف؟

- زميل دراسة وما يفرقش بالنسبة لي..

تدخلت دكتورة صفاء..

- ولا اخته؟

- أنا قلت لحضرتك إن...

قاطعتني:

- الأمن يقول إن فيه عربة دخلت من كَام يوم الساعة حداثر بالليل.. بطاقة باسم لُبْنى الكردي.. كانت داخلة زيارة ليك.. وكنت سايب لها خبر على البوابة..

تلك كانت ضربة تحت الحزام، تخلل الصمت فراغات الغرفة وضافت الحوائط من حولي فجأة، دكتور كيلاتي جهاز «X-Ray» يمسح عظامي بحثًا عن شرخ، والمديرة، راصد زلازل سيتوثر مؤشره مع أول هزة مني، التزمت الصمت قسرًا حتى بترت المديرة السكون: - يحيى.. الخمس سنين اللي فاتوا كنت فين؟

نظرت للساعة المعلقة على الحائط أنتظر منها أن تكف عن الدوران.. أو أن يتزل عقربها فيلدغهما معًا لأرتاح..

- كنت في البيت..

- خمس سنين اتعزال أنت مدرك ممكن يعملوا إيه في أي حد؟

قاطعتها:

- أنا مش مريض يا دكتور..

- أنا ما قلتش إنك مريض يا يحيى.. بس إيه إنجازك في خمس

سنين فاتوا؟

- إنجازي إني فضلت عايش...

- يمكن رجوعك المستشفى ما كانش مناسب في الوقت ده؟!

- كويس إن حضرتك أخذتي بالك إني رجعت بناء على جواب المستشفى..

- أنا مش باشك فيك يا يحيى.. بس أي حد حصل له تجربة زي تجربتك وارد يكتيب.. تفكيره يبقى مش مقبوط.. يضرب! ممكن.. فيه ناس بتخرج من الحالة تدريجيًا.. وفيه ما بيخرجوش..

- وأنا ما خرجتش؟!

- ده اللي أنا شايفاه.. وده أحسن من إني أفكر في أفكار مش متعجبك..

- أنا ما خالفتش القاتون يا دكتور..

- متخالفه.. ألقاه د. كيلاتي..

- حضرتك صدقت سامح؟

- الشواهد هي اللي تخليني أصدق.. ليه أنكرت زطارة اخته للمستشفى؟

- أنا ما أنكرتش.. جت قطين مني..

- يعني فيه اتصال بينكم؟

- فيه اتصال..

- وهي...؟

- بتظمن على أخوها وبس..

- أنت بتشرب يا يحيى؟ سأل دكتور كيلاني..

- وده إيه علاقته بالموضوع؟

- متهيا لي أنت عارف الشرب بيعمل إيه!

- دي حاجة تخصني..

- سامح حكى لي عن مكالمة التليفون في العنبر.. أنت خلّيت
متهم يعمل مكالمة مش مسموح بيها..

تلقفتني صفاء بعدها بلكمة خطافية أسفل ذقني أنهت حلم بطولة
العالم «وزن ثقيل» في الكذب قبل أن أسقط خارج الحلبة..

- اللي حصل ده يا يحيى كفيّل إنني أرفع الموضوع للأمانة
العامة.. يعني تفصل.. دي نهاية أنا ما أتمناهاش.. بس أنت بتجبرني
على ده..

لماذا يتحدث الشرير في السينما مع البطل «لحظة الذروة» شارحا
له لماذا وكيف سيقتله، ومدى استمتاعه بما يقوم به؟ لم لا يفتنه
ونترك الشر ينتصر يوما؟! نظرت في وجهها مُتَظَرِّرا لحظة تركها
لحبل المقصلة لينزل النصل فوق رقبتني..

- ما حصلش إن حد اترفد في وجودي.. مش عاوزة بتقال غني
إني كنت السبب في تدمير مُستقبل.. بخلاف إن لسه مرجعالك.. أنا
هاكتفي بنقلك من ٨ غرب.. هانزلك في شيخوخة ٢٦.. قسم هاني
ومشاكلة قليلة.. هترتاح فيه..

لم أكن أملك حق التفاوض.. هزرت رأسي مؤمناً على كلماتها
ونمت زحفاً للباب حين استوقفتني د. كيلاني..
.. يحيى.. آخر واحد يعرف إنه عيان هو المريض نفسه..
كأنني كنت احتاج كلماته!

سحب لرتبي نفساً لن أزفره وخرجت، خرجت على جمار
بحوب شوارع المستشفى! حافي القدمين أجلس فوق ظهره مقلوباً،
انظر طور الأحمر فوق رأسي، والبيض النيء والطماطم تتراشق
ضربي، مكتوب على جبينني أحرق بخط واضح، والمرضى يتسابقون
في التكيل بي سباً وتهليلاً، لمحت سامح وسط الزفة يوزع العملات
الذهبية من صرة أخرجها من كرشه، وشريف يرمقني بابتسامته
الساخرة من بين حديد القضبان..

في طريقي للبيت انتابني حالة اللامبالاة التي نهشتني منذ سنين،
حواسي الحيوية اتسابت تدريجياً من بين ضلوعي، كالمياه تنسل من
بين أصابع الكف، استوت عندي نجوم السماء بمصاييح السيارات،
اشتعال سيجارة بحريق القاهرة، الموت بالحياة! لا شيء يُبهرنِي،
لا شيء يُثيرني، حتى الألم الحُزمن الذي اعتدته أصبح لا يؤلم، حتى
لَمَّا ماتت مايا! ماتت! من الذي قد يؤذي جسداً ميتاً؟! من الذي قد
يهين زومبي في فيلم رُعب بصفعة على الوجه! أو يجرح مشاعر ضبع
من ضباع ناشيونال جيوغرافيك!؟

كطائرة تعمل بالطيار الآلي تبضعت تموين الشهر، كرتونتين بيرة
وزجاجة Jack Daniel's وكيلوبُن غامق وبعض المُعلبات الفارقة
في المواد الحافظة لزوم استمرار الحياة، جلست على كنبتي وفردت
ساقِي فوق منضدة وأدريت التلفزيون، المُطاردة كانت حامية، ثلاثة
ضباع تُطارِد جَاموسة، يركضون خلفها وابتسامة السخرية الرائقة
تعلو فكوكهم، المصوِّر يُركِّز على تفاصيل أرجلهم الخلفية القصيرة،
الشعر الأصفر الخشن فوق رؤوسهم، الرُّقَط السوداء على الجلد
وعيونهم المشعة جشعاً فوق الأبواب المتحفرّة، النفاذة حين تتجسّد!
بعد مُطاردة طويلة حلّ النصب بالجاموسة، حاصروها فوقفّت حائرة

حتى تقدّم اثنان وغرزا أنيابهما في قدميها الخلفيتين، لوت الجاموسة رقبتهما ألماً ورفستهما قبل أن يقفز الثالث فوق ظهرها، تكالبوا عليها عَضاً حين جرح أحدهم أسفل بطنها فتدلّى جنين في كيسه!! رفعت الصوت لأسمع خوار الجاموسة الحزين، بحلاوة روح ورفستهم يأساً فانفضوا من حولها فركضت تجر صغيرها بكيسه، يصبغُ بدعائه العشب من ورائها، تأملوها في تحفّز حتى توقفت تعباً، ثم هوت، اقتربت الضباع بلا استئذان، وبدءوا ينهشونها، حيّة! بقروا بطنها وخلصوا كيس جنينها المعلق من مربطه، سحب أحدهم بعيداً وانكب الاثنان عليها كجزارين يسلخون قبل أن يذبحوا، يتلذذون بطعمها الحي، تخور بين أنيابهم يأساً وعيناها لا تفارقان جنينها الذي يُنهش على بعد مترين، لحظات وأرخت رأسها على العشب واستسلمت، تركتهم ينهون وجبتهم ولم تُبالِ، ترفع رأسها كل بضعة ثوانٍ تتأمل جنينها ويطنّها الذي يُفرغ على العشب! ظلت الكاميرا تتابع عينيها حتى خبت وانطفأت، قبل أن تهبط النور..

لم أشعر كم ساعة مرّت وأنا ملقى على الكنية أنهم الشعير وأتابع الحيوانات، الزجاجاة فارغة نائمة بجائني، سبع ساعات سقطت من ساعة الحائط، وخمسة وعشرون فلتر سيجارة دُفِنوا في مقبرة جماعية، ثم وقعت عيناى على القرص الأزرق فوق المتصلة، تأملت القيل للحظات أحسست فيها أن صوت نهيمة يناديني، أيعاها!! سمعت، نعم سمعته!! بل قلّدتّه ونجحت في الإتيان بطريقة صوته، من السهل التظاهر بأنني قيل!!

أغمضت عينيّ متعاً لتذكيري من الماضي في طريق المتخلف العقلي حين نبض التليفون برقم لهنّ، لم أجد في نفسي عزماً لسماع

صوتها، دقيقة وأنهت المكالمة لأجد عشرة اتصالات فائتة من رَقمها!
تريد أن تطمئن!!

ماذا أحكي؟ روايتي أم رواية أخيها، الفيلم الذي مارست فيه دور
البطولة، أم الفيلم الذي ألعب فيه دور المجنون! إذا كان أخوها مريضاً
بالفعل فمن قتل مايا؟ إذا كنت صادقاً فلماذا لم أسمع غير صوتي في
التسجيل!! ولماذا اتصل بنفسي على تليفون شريف!! ولماذا سقطت
مني مُحادثات كاملة لم أدر عنها شيئاً!!

أخشى الإجابة كخشيتي رؤية وجهي في المرأة من بعد الحادث،
تشخيصي كطبيب مُعالج لحالتي يقول:

«المريض يُعاني من حالة انسحاب اجتماعي مصحوب بتبلد
في المشاعر يفقده الاهتمام بكل ما حوله «باسثناء الكحول»، تلك
مؤشرات واضحة لتضرر مَمرات المُخ العصبية؛ وهو الذي قد يؤدي
لسماع أصوات واختلاق مواقف لم تحدث، وبالتالي، فالأرجح حدوث
حالة فصام مصحوبة بهلوسة، تمت إثارتها بحبوب «DMT» تحل
رسم فيل أزرق، أثرت بدورها على مُستقبلات السيروتونين (هرمون
تنظيم المزاج) التي تلهورت تدريجياً من تأثير الكحول...».

قرأت التقرير قبل أن أرفع سماعة التليفون وأطلب صيدلية قريبة:
- دياكين كروم ٥٠٠ مللي لو سمحت..

دواء لشيء المزاج، يُستخدم في حالات الصرع والفصام
والاكتئاب والاضطراب ثنائي القطب، سيخفف التدهور في السلوك
والفكر مؤقتاً لا أصدق أن نبوءتي بالعودة للمستشفى أصبحت

واقعا، مسألة وقت قبل أن تُحشَر صورتِي بين قاطني العباسية، ملفي
يكون مميزًا حين أصبح في عُمر عم سيد!

قاطع كابوس يقظتي جرس الباب، لما فتحت وجدت أن الليل
قد نزل ولم أدر، استلمت علبة أقراص «الدياكين» من قِطِي الصيدلية
واغلت الباب، ابتلعت قرصًا مع جرعة ماء ولم أصل للكتابة حين
فزع الجرس ثانية، فتحت فوجدت لبني واقفة فوق الدواسة التي
كنت تحمل كلمة «Welcome» ولم تعد...

- أنا صحتك؟

- إيه اللي جابك؟

- إيه اللي جابني!!

- أقصد فيه حاجة حصلت؟

- لا.. قلت عليك لما ما ردّتش.. أنت كويس؟

«أنت كويس؟»: السؤال الذي حير أينشتاين وإسحق نيوتن وابن
الحسّيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى!

من أنا لأجد الإجابة، هزّزت رأسي مُواقفة ولم تقنع..

- معاك حدّ؟

- نظرت خلفي أناكد من رحيل مليا؟

- لا..

- عندك وقت ناخذ قهوة في أي كافيه؟

قاومت رغبة مُلحة في دعوتها للدخول.. لا أريدُها أن تتعرف
بمايا في عالم آخر لن أظاه..

خمس دقائق اليس..

لم أدعها للدخول ولم أغلق الباب في وجهها، فقط أشعرتها بعدم
الارتياح لدخولها، تركتها ودخلت غرفتي ألتقط سريعًا ما أرتديه ثم
دخلت الحمام، شطفت وجهي وغسلت أسناني ليخمد عبق الكحول
المنبعث من معدني قبل أن أخرج إليها، كانت واقفة في قلب الصلاة
تأمل الشقة بفضول، تابعتها وهي تمسح المكان حولها، تتفقد حمام
مركبتي التي غرقت منذ سنين وأسكن البحر فوقها أعشابه المرجانية،
استوقفها خوض السمك المتخم بالأوراق، زُجاجات البيرة التي
لم أخفها، والمستطيلات الفاتحة على الحوائط، المستطيلات التي
كانت تحمل براويز صور زوجتي وابنتي..

- معلى المكان...

قاطعتني:

- فين الصور اللي كانت هنا؟

- شايلهم.. في الدولاب..

نظرتي إليها كانت تحمل رسالة كافية؛ لا تستر سلي.. وفهمت..

- العيشة لوحده صعبة

- صعبة.. بس مريحة..

- مش باين!

- أخذت على كده..

- عندك قهوة هنا؟

- أنا ما عنديش غير القهوة..

زحفت عيناها لزجاجات البيرة فأردفتُ:

- والبيرة..

- اعمل لي قهوة..

نظرت للباب المفتوح أحملها على الرحيل..

- ما نروح كافيه أحسن..

- بلاش..

- ليه؟

تردّدت لحظات ثم..

- خالدهنا النهاردة في المعادي عنده «Meeting»..

- هو..؟

- خالده ما يعرفش حاجة.. عازف! حصل حاجة غريبة.. لقي

اسمك على الموبايل وهو بيطلع رقم.. لقيت نفسي ياقول له إنك

عميل من البنك.. مش عارفة ليه حسيت إنني عاملة عملة زي

أيام المدرسة!

- وهو أنتِ بتعملي عملة؟

- لأ.. يعني.. يمكن أنا اللي حاسة كده.. اللي على راسه بطحة..

بس أنا مش كده.. «Anyway».. لو تحب نروح كافيه أنا...

- قهوتك إيه؟

ابتسمت لضمي:

- مطبوخة..

اطمأنت على باب الشقة المفتوح ضمناً لمخرج طوارئ من
أجلها قبل أن أدخل المطبخ، أعددت لنا قهوة وأنا أستشعر الخدر
الذي يثقه قرص «الدياكين» في دمي، هدوء واسترخاء وشبه لامبالاة
لما خرجت كانت جالسة على الكتبة بعدما أزاحت زجاجات البيرة،
تدخن سيجارة وتتأمل قرص الفيل الأزرق الملقى على المنضدة..

- ده إيه ده؟

سحبت القرص من بين أناملها ودسسته في جيبى مُبتسماً:

- بالكيش دعوة..

نظرت لي بشك فناولتها القهوة وجلست على كرسي بعيداً عنها،
دوت صفارة الصمت في آذاننا فتكلمت ردعاً لنفسي من مسح مَسام
وجهها..

- أنا بيت قضية شريف؟

- إيه؟؟

- مش بمزاجي.. سامح ابن الـ..

- اللي ضربته؟

- هو.. بوظ الدنيا..

- ده معناه إيه؟

- صدقيني أنا آخر واحد ممكن تسأليه..

نسيت قمها مفتوحاً قبل أن تهز رأسها يمينا وشمالاً تطرد كابوساً
فأكملت:

- شريف اتكلم مع سامح.. في جلسة خاصة.. اعترف إنه قتل
بسمة.. بإرادته..

- «No way»..

- ده اللي حصل.. وكمان قال إني ابتزيتة..

!!!.....

كان عليّ أن أشرح لها ما حكاه شريف عن تهديدي إياه ليزوجني
منها..

لم يرمش لها جفن.. توترت جبهتها ونسيت السيجارة بين
أناملها.. بدت الفكرة مُخرجة!!

- شريف اتجنن!! قالتها بيأس شديد..

- مش شرط!

- يعني إيه؟

- مش يمكن أنا عملت كده فعلاً؟

نظرت لي بلا فهم..

- إيه اللي انت بتقوله ده!!

سحبت نفسي لرتي ..

- ليني .. أنا مش مطبوط .. أنا .. أنا عارف ده .. حاسس .. متأكد ..
ما ترعلش لو قلت لك إني مش هانفع في القضية دي بالذات .. أنا
مش عارف أنا باعمل إيه !! مش قادر أفرق بين الحقيقة والخيال ..
هيل .. فيه هيل .. ما يقتش قادر .. أنت فاهمة حاجة ؟

قاطعتني :

- أنت شارب !

- أنا لقا بشارب يبقى فايق .. أنا بطلت أسكر من زمان .. الموضوع
مش كده .. صعب أشرح لك !!

- طول عمري كنت بافهمك .. قول ..

- أنا باسمع حاجات ما حصلتش !

لن أصف القلق الذي علا وجهها ولا النظرة التي حدجتني بها ..

.. وباشوف .. باشوف حاجات ما حصلتش .. أنا مش مطبوط

يا ليني ..

- يعني إيه الكلام ده ؟

- يعني أخوكي ممكن يكون بيتكلم صح !

- إيه ! هددته لو ما خلانيش أتجوزك مش هاتخرجه .. أنت

بتخرب !!

- مش عارف .. المصيبة إني مش عارف .. ولو عملت كده فأنا

مش فاكرا !

اعتصرت جبهتي بكفي حلياً للكلمات..

- أنا تعبان.. تعبان.. عشان خاطري قومي رّوحى.. وجودي
جنيتك أو جنب أخوكي خطر.. أخوكي سليم.. قتل.. بس سليم..
مراته خاتنه زي ما قلت لك.. لعبت بيه غلط.. وهو لعب بيها صح..
ده اللي أقدر أقوله لك وده اللي قدرت أوصله.. المحامي لو شاطر
هاطلعاه على الخانكة.. كام سنة ويخرج..

التوتر احتل جسدها كله فقامت، دفنت سيجارتها التي توقفت
عن سحب أنفاسها منذ دقائق واقتربت مني.. لم أدر بنفسى إلا وأنا
أبتعد عنها..

- أنا مش مصدقة الكلام ده! مش مصدقة إنك تقول كده
على نفسك..

دأبت شريحة تسجيل جلسة سامح وشريف في جيبي، هممت
بإخراجها لتسمعها لكنني تراجعمت، سماعها اتهام شريف لن يزيد
موقفي معها إلا اضطراباً ونفوراً..

- كلام أخوكي كان صح لما رفض نتجوز.. أنا ما أنفعكيش..
ما أنفعش أي حد..

- يهى أنت تعبان.. بس مش هيان..

- كل الأعراض اللي كنت شايفها على أخوكي.. عندي أنا..
وباحكيها لك على إنها عنده..

- إسمعنى أنا ما شفتهاش!!

تذكرت مايا على الأرض مسجية والدماء تدفق من تحتها..

- الحمد لله إنك ما شفيتهاش..

- أنت لازم تبطل شرب.. أنت هتجنن..

- لسه هتجنن؟؟

- يحى أنت الحد الوحيد اللي فاضل لي..

برق في مخيلتي وجه «مايا» ثانية، راودتني رعشة فتقهقرت للحائط كالملسوع أبتعد عنها، أحميتها مني، كان ذلك حين غادرتني حرارة جسدي وحلّ البرد، سرى الخدر واهتزت الأطراف، وهنت كورقة خريف، الكحول الذي جرى في عروقي أتخم الكبد فتجاهل تنظيم السكر، ألم بي دوار ففجزت عن تطلق كلمة، خفق قلبي بنبض عالٍ وبالكاد تحاملت على كرسي بجانبني قبل أن أهوي، اقتربت مني بسرعة وأحاطتني بيديها، انعمدت في حضنها كسيف بات في جرابه الذي صُنع من أجله، تحملت وزني رغم كعبها العالي وأنزلتني برفق على الأرض قبل أن تهرع للمطبخ وتأتيني بكوب ماء، بيد مرتعشة شربت، غمرني العرق فمسحته بكفها ولم تعرف، ثم أحاطت رأسي بأناملها لتنظر في عيني..

- لو الدنيا كلها قالت إنك عيان.. أنا باقول لك أنت مش عيان..

انتظمت أنفاسي بعد دقائق فجلست بجانبني بعدما خلعت حذاءها واستندت للحائط الذي أستاذ إليه.. لا صوت يعلو على صوت زجاجة البيرة الفارغة التي يدفعها تيار الهواء القادم من الباب المفتوح.. تدهرج ذهبًا وإيلًا لتكسر حاجز الصمت بيتا..

- أنت لازم تبطل شرب.. والقُرص اللي أنت خيته ده..؟؟

- ده حاجة تانية.. قصة طويلة..

- أنت عاوز تموت!

- ومش عارف!

- لو قلت لك عشان خاطري تبطل شرب!

- الموضوع مش في الشرب.. الموضوع أكبر من كله..

- عشان خاطري يا يحيى.. أنا عمري ما طلبت منك حاجة..

المشقة: مرض تخيل أننا نُشفى منه.. فقط لأن لا أحد يموت
ببيه.. نظرياً..

غصت في عينيها كثيراً قبل أن أسألها:

- وبعدين؟ لو بطلت اشرب؟

- أنت لازم تقف على رجلك.. لازم تفوق..

- وبعدين!!

- الدنيا ما وقتش..

- الدنيا وقتت من عشر سنين..

نظرت إلى عيني قبل أن تتبادل حديثاً طويلاً من عشر صفحات

A4 مسافة ٥, ٠ ستي بين السطور بخط بخطه ٤..

حديثاً لم نسمع منه كلمة.. ابتلعت ريقها قبل أن تخلق عيناها

وتهرب بعيداً لتكلم..

.. نخيل .. أنا مُمكن أعمل أي حاجة مهما كانت صعبة وكارثية ..
دلوقت .. أنا حتى مش عارفة أبص في عينيك .. مش عارفة أسيطر
على أفكارى .. خناقة جوايا بسبك أنت مش هتخيلها .. أنا مش
قادرة أستحمل ..

احتجنت شفتاها وترقرقت عيناها ثم تحررت .. طالما كانت تخفي
دموعها عني .. لكنها لم تفعل .. فقط خدشت أوردتها وانسال الكلام
منها نزيفاً ..

.. كنت متخيلة إن دايمًا عندي إجابة لكل سؤال! بس فيه حاجات
بيكون لطيف فيها إني أسيب نفسي وما أسألش .. بعدين أبقى أعرف
ليه .. أو حتى ما أعرفش .. مش مشكلة .. رغم إنها كانت دايمًا مشكلة ..
لكن المرة دي .. مش مهم .. عارفة نهاية الفيلم ومش مهمة .. أنا بس
مش قادرة أتخيل خسارتك تاني .. مش هاستحمل .. خليك في
الضلمة .. أنا راضية .. تخيل .. راضية تفضل في الضلمة وأفضل أنا
أنهمك زور إنك مش موجود .. على الأقل هافضل متشعبطة في ديل
حلم .. إنما لو عدت كده مزور الكرام .. واختفيت زي ما في يوم
اختفيت .. أنا مش هاسامحك .. هاموت .. أنا باخرف ..

لا إرادياً مَدَدت ذراعي ببطء، لامست كتفها وأحطته قبل أن
أحتضنها، لم تُقاوم، فقط اقتربت، استقرت في المكان الذي خُلِق
خصيصاً من أجلها؛ في صدري، أغمضت عيني واستنشقت عبقها
الذي يجذبني من مسافة شهر! فَتَحْتُ كَفِّي فأرست فيه كَفَّها، استوت
أنا ملها في التجويفات التي حُفِرَتْ لتتأيسب مُنحنياتها، لامست شعرها
بشفتي وطبعت قبلة شرف في مفرقه كما يطبع مراهق اسمه على

أحجار الهرم ليسجل لحظة تاريخية، أنا كنت هنا! التفت لي ونظرت في عيني، تَخْتَلِج، تَنْهَج أنفاسًا حارة، يا إلهي أنا أعشق حتى أنفاسها! أسمع قلبها يَهْز أركان البيت، وسخونة وجتها تلفح وجهي كنسيم أغسطس، لا إرادياً سقطت عيناى من فوق رموشها وتدحرجت على خدّها حتّى استقرّت على شفّتها، شفّتها التي نسفت الجسر من قبل بين عقلي وجنوني، رمقتني لثوانٍ ثم ابتلعت ريقها قبل أن تقوم، لَمَت شعرها دائرة وسوّت ملبسها دون أن تنظر في عيني، ثم اتّجهت لحقيبتها ودست فيها عُلبَة السجائر وعلّقتها على كُفّها..

.. خُذْ بِالك مِنْ نَفْسِكَ..

لم أقل شيئاً، لم أمسك يدها لأستبقّيها أو أغلق الباب قبل أن تصل، كان عليها أن ترحل، كان على النار التي اشتعلت في صدري أن تُخمد وإلا صارت حريقاً هائلاً، مَشِيت في أثرها أتأمل هروبها البطيء، رقبته المنكسرة، أكتافها الصغيرة، خطوات كعبها العالي المرتعشة، وشذى التفاح المُحرّم الذي تركه وراءها، خرجت للحديقة وكان الهواء صاخباً يعبث بالأشجار ويرفع أغطية السيارات المركونة، فجأة برقت مايا في عيني، رأيته تمشي عارية على خطوات لبني فتوقفت مُنقبِضاً في اللحظة التي توقفت فيها لبني! أمام سيارتي التي أزال الهواء غطاءها وعَرَى هيكلها الذي تعجّن كعبوة صُوداً يوم الحادثة، الهيكل الذي لم أرد تصليحه أو بيعه، الهيكل الذي أجلد نفسي به يوماً كراهب يُكفّر عن سيئاته!

وقفت لبني أمام الحطام متيسّسة، عيناها تتأملان شخصية (Sponge Bob) الصفراء المتدلّية من بقايا المرأة، مَشْنُوقاً لافظاً أنفاسه، اقتربت منها.

انقلبنا تسع مرّات.. مش هارف إزاي قدرت أعنهم.. بس هنا
تسع مرات.. مش هشرة.. ودي كانت لعبة نور..

قلتها وأخرجت من محفظتي صورة اصفرّت ألوانها لابتتي..
ناولتها الصورة فنظرت فيها ملياً قبل أن تتقلص شفتاها وتغمض
عينها حبساً لدموع تراكمت..

- الله يرحمهم..

قالتها وناولتني الصورة:

- أنا لازم أمشي..

ركبت سيارتها وأنزلت الزجاج، نظرت لي لحظات بشفتين
ترتعثان قبل أن تضغط دواسة البنزين وتبتعد في هدوء تاركة مُدْبِتَها
في قلبي، تابعت سيارتها حتّى صارت في حَجْم علبة كبريت قبل أن
أرجع البيت، قُرْص الديباكين كان قد توغّل في صَحْرَائِي المَفْتُوحَة
بلا قيد، فالجِسم وَاهِن، والمَعْدَة خاوية والعقل خارج عن نطاق
الخدمة، ارتخيت على الكنبَة وأغمضت عينيّ، وحَلَمْتُ، لبني كانت
تجري في مَرَج أخضر، قُرب شجرة هائلة يَصل جذعها للسُحَاب،
ترنّدي قميصاً قصيراً كشف عن ساقين نُحْتًا في الجَنَّة، جريت وراءها
ولمّا بلغتْها ابتسمت بعذوبة ثم توارت خلف الشجرة، التفتت أبحث
عنها لكنها تلاشت كدخان، وقفت لحظات أتأمل المكان حولي،
نظرت إلى أعلى فداعبت الشمس حَدَقَتِي من بين أغصان الشجرة
الوارفة، أغمضت قسراً ولمّا فَتَّخْتُ رأيتني في مَظْبِخِي والشمس
مَعكُوسَة في وجهي من زجاج سيارتي في الفناء الخلفي، سيارتي
السليمة! أنا أحلم، ولا أريد الاستيقاظ! لبني كانت بجانبني تصنع

مطيرة جبن، وضعت يدي على خصرها، قبلت كتفها فلتوت رقبتها
ونلاحقت أنفاسها حين لمحت كوتر جارتي الشمطاء في شباك
المطبخ، تقف في حديقتي ناظرة لي بغل شديد، أغلقت ستائر الشباك
وحين رجعت لم أجد لبي..

استيقظت!

رغمًا عني، ولم أرد أن أستيقظ، لكن وضعتي على الكنية كانت
أكثر إيلا من أن أحتمل، الشمس تتجول في الشقة وأنا أترنح،
حتى القهوة فارت مني على البوتاجاز، وشردت وأنا أتبول فسقيت
أرض الحمام وقدمي! اللعنة! أشعلت سيجارة وطالعت أربع عشرة
مكالمة فائتة من تليفون محسن الممرض! كم الساعة؟ الثانية بعد
الظهر! المتخلف لم يعرف أنني سأستيقظ..

سأعمل مع العجائز؟

لا.. لن أعمل مع العجائز!

الألزهايمر والتبول اللاإرادي لا ينقصونني، سيلاحقونني عما
قريب ولم العجلة؟!

النتيجة حتمية والقصة محروقة..!

- ألو.. صباح الخير يا محسن..!

- يا دكتور بكلمك من بدري ما بتردش..

- خير يا محسن.. مش عارف أنت عارف ولا لا بس أنا سبت
القسم و...

قاطعني:

- عرفت يا دكتور.. بس فيه مُصيبة سودا..

- فيه إيه يا مُحسن؟

- شريف الكردي زائق دكتور سامح في عنبر العزل..

عاوز يقتله!!

حين وصلت « ٨ غرب » كان الاضطراب يمج في الوجوه،
مرضون وأطباء وعاملون متجمعون أمام القسم يسدّون طريق
باب العنبر، سيارة أمن مركزي ويوكس شرطة متأهّبان والجنود
من حولهما متحفزون يمضغهم الفضول، سيارة إسعاف رابضة في
المكان فاغرة فاها تنتظر ضحية، وسيارات الأطباء متثورة بلا نظام
كطفل بعثر ألعابه ورحل!

حُشرت بين الجمع حتى دخلت، بالكاد عبّرت الطريقة المؤدية
إلى العنبر، دفعت الأكتاف متخللاً الواقفين والتصقت بضابط يرفع
نفرته في لاسلكي فأبطلت حتى أشرق السمع..

... من عَدَمه يا فندم.. رافض يتجاوب.. حَصَل سيادتكَ بَس
الشباك من برّه مقفول بأسيّاخ حديد.. بنحاول سعادتك.. صَح
معاليك المديرّة موجودة وبِتكلّم معاه.. هنتعامل طبعًا سيادتكَ..
إحنا مستنيين يمكن يحصل تجاوب بدل ما يكسر رقبتّه سيادتكَ..
من عَدَمه يا فندم.. أوامر سعادتك.. مع الشُّكر..

اقتربت من عُرفة التمريض فلمحت العنبر خاليًا من المَرْضَى،
نقلوهم لقسم آخر حتى لا يتهزّ أحدهم الفرصة ويهرب وسط
الفوضى، أفراد الشرطة متكثّون قرب جَوَانِب بَاب عُرفة العَزَل

شاهرين أسلحتهم في تحفز، المدير متوترة تقف على أطراف حذائها
لتابع فتحة الباب الزجاجية العالية، تتحدث بكلام لم ألتقطه. ودكتور
كيلاتي ورامها يتابع الموقف، لقا اقتربت من باب العنبر ورفع ضابط
برتبة مقدم يله إلى صدري منعاً..

- ممنوع.

- أنا دكتور في القسم!

- ممنوع..

- ده المريض بتاعي.

- لو احتجنا لك هاندهك.

ثم أشار لعسكريين أحاطاني ليعدانني عن الباب الحديدي حين
تدخل محسن:

- شيل إيدك يا عم أنت هو إيه أصله ده! ده الدكتور يحيى!!

أجابه الضابط بالتجاهل فتاديت المدير من بين قضبان الحديد...

- يا دكتورة.. دكتورة صفاء..

التفتت ورمقتني بحيرة تحولت لعناد قبل أن تشيع بوجهها عني
وترجع لناقذة غرفة العزل حين أردف المقدم:

- اتفضل.. لو احتجناك هانده لك.

تابعت الموقف من بين الأكتاف والأدمغة خلف الباب الحديدي
حتى تذكرت كاميرا المراقبة، أسرعت إلى غرفتي وفتحت الكمبيوتر
بعدما أغلقت الباب، رجعت بالملف للساعات الماضية أتابع حركة

العنبر، أبطأت تدافع اللفظات حين تخلل ضوء الشمس الغرفة وبدأت
موجة الاستيقاظ، كل شيء بدأ طبيعياً حتى خرج شريف بضجة
محسن المُعرض من غرفة العزل إلى العنبر كما أمرت، يتحرك
بصعوبة بسبب الضمادة التي أحاطت فخذيه، وضعه محسن قرب
الحائط كلقمة عيش مُلقاة في الطريق وابتعد. تحرك شريف خطوتين
ثم نيس في مكانه، أكثر من ساعة!! هكذا قال شريط الزمن أسفل
الشاشة، واقفاً شارقاً في الحائط كقطعة أثاث لا تتحرك، فقط يهزه
شهيق وزفير صدره، اقترب منه بعض التزلاء يرمقونه بفضول لما طال
أمد سكونه، كالجَنِّ يتأملون سليمان عليه السلام ولا يعرفون أنه قد
مات، لحظات واقترب محسن فقرقهم وقدم لشريف وجبة إقطار،
وَضَعَهَا بجانبه لكنه لم يلمسها، حتى اقترب أحد التزلاء مُحاولاً
تبادل حديث من جانب واحد، لما لَمَسَ غياب شريف عن الزمن
سرق الوجبة وابتعد..

انقضت ربع ساعة أخرى قبل أن يظهر سامح في الصُور، اقترب
من شريف وبدأ الحديث معه، حركات يد سامح قرأت فيها عَصِيَّة
تزداد بسبب لامبالاة شريف، توقّف بعدها سامح عن الكلام ثم
نطق شيئاً وضع من أجله يديه في وسطه هَيْمَةً وتأكيداً، لغة التهديد
نجحت في تحويل رأس شريف ناحيته! حَذَّجَهُ الأخير بنظرة ترقب
ثم ابتسم لثوانٍ قبل أن يدفع قبضته في سُرعة ناحية رقبة سامح ويطبق
على حنجرتِه، انتفض سامح متألماً من المفاجأة، قَبَضَ على يَدَيْ
شريف مُحاولاً التملّص أو تخفيف الضغط على رقبته، اضطرب
كرشه ورفس بقدميه كجاموس «ناشيونال جيوغرافيك» الحامل
قبل أن يخرّ على رُكبتيه ويضرب جرح شريف بكلوة يده يأساً،

التوتر اجتاح النزلاء فاقتربوا في حذر قبل أن ينشجع أحدهم ويُمسك
بعضد شريف من الخلف، التفت الأخير ودرس سبأته في حين التزيل
فتكوم على الأرض صَارخًا والدم يندفع منها لتُسبغ دائرة الهلّج،
أحكم شريف قبضته على رقبة سامح ولقعه فأصبح ظهره يواجه صدر
شريف والحنجرة لم تهرب من بين الأصابع! بعد ثانيتين برز مُمرضان
وعسكري، قبل أن يظهر ضابط رفّع فوهة سلاحه في وجه شريف
الذي احتفى لإرادياً وراء هيكل سامح مترامي الأطراف، رجع بظهره
حتى باب غرفة العزل ساحباً سامح من عنقه قبل أن يغلق الباب
وراءهما، تراكّم النزلاء على الباب ففرقهم العساكر ليفتح الضابط
الباب ويوجه كلماته لشريف، ثوانٍ وبدا أن الأخير قابلها بتهديد جعل
الضابط يتقهقر ويُغلق الباب، ليبدأ الأطباء والممرضون والعساكر
في التوالد متابعين الحدث..

كم تسعدنا المصائب.. متعة تضاهي متابعة كأس العالم أو اقتناء
أفلام البورنوا

قاطع مُشاهدتي التسجيل دخول محسن المُمرض يَنْهَج..
- دكتور.. المديرّة هاوْزالك في العنبر..

خرجت وراءه إلى العنبر وَكُضًا، على مَضَضٍ أفسح لي الضابط
الذي منعني من قبل، اقتربت من غرفة العزل وكانت المديرّة تُنهي
مكالمة متوترة مع أحد المسؤولين ثم التفت لي:

- شريف طلبك بالاسم!

نظرت من النافذة الضيقة، شريف كان جالسًا على طرف السرير

المنعني، مُمسكًا برأس ساميع كئاشة بين فخذه الذي تساب الدم
من جرح أحدهما ليُلطخ وجه ساميع المُختق، مُحيطًا ذقه وجانب
رأسه بكفيه في استعداد لا يستهان به لكسر الرقبة..

- شريف هُدد لو فتحنا الباب هايكسر رقبة ساميع.. مش هاتلحق
نعمل حاجة لو ده حصل.

- ولو استينا برضه شوية هيموت مخنوق.

- هو مش عاوز حد يدخل عليه غيرك.. اعمل أي حاجة يا يحيى.
- أنا داخِل..

تركها واقتربت من الباب حين لمحت صاعقًا كهربيًا مُعلقًا في
حزام أحد الضباط..

- هاحتاج البتاع ده!

خلعه من حزامه وناولنيه فوضعت خلف حزامي قبل أن أفتح الباب
بطء، مددت رأسي أنظر فلمحت الابتسامة على وجه شريف..

- أقفل الباب يا يحيى.. الولد هياخد هوا..

دخلت وأغلقت الباب ورالي فأمسك بملاءة السرير من تحته،
سحبها وزمها بين قدمي..

- شوية خصوصية..

- خُفّ إيدك هيموت منك يا شريف.. وهتكلم زي ما
أنت عاوز..

نظر لكوة الباب والوجوه المتابعة منها..

- مَش عاوز أشوف الأغية اللي برّه..

نطقها بحدّة فالتقطت الملاءة وسدّدت الكوّة وسط دهشة المديرية
ومن حولها ثم التفت لشريف الذي أشار لكُرسي مُلقى في رُكن..
- ازتق الباب..

- سييه يا شريف.. هيموت منك يا جدع!

- ازتق الباب!

سحبت الكرسي وحشرته بين مقبض الباب والأرض.. لما التفت
كان شريف ينظر للرأس المُحصّرة بين فخذه..

- غريبة إته صعبان عليك!

- مالهاش علاقة يا شريف.. خرج سامح برّه الموضوع.. أنا مش
فاهم إيه اللي بتعمله ده!!

- تعرف إن المختبر ما بيتبحش..

- ...!!

- عشان الدهن حوالين رقبة كبير.. المفروض يتغذ في قلبه..

بَس مافيش سينخ!

- مش هاتستفيد حاجة من موته يا شريف..

نظر لي ثم ابتسم قبل أن يضرب مؤخرة رأس سامح بقبضته، ثلاث
مرّات، ارتج الأخير ثم حلّقت عيناه إلى السقف وبنان بياضها..

- صوته مُزعج أوي..

قالها وتركه ينساب تحت قدميه فاقدًا الوعي، تابعت صدره، كان
بشفس، سيحتاج دقائق يتدفق فيها الدم إلى رأسه قبل أن يفيق، لكزه
شريف بقدميه بعيدًا عنه واعتدل في جلسته قبل أن يقوم والدم ينزف
يُطء من جرحه..

- شريف.. جرحك...!! ممكن أنه حد يربطه ويشوف سامع.

- سيه.. مش هيموت..

تأملت وجهه محاولًا تحديد مع من أتحدث.. اللعين عطل لدي
قراءة لغة الجسد..

هل من الممكن أن أكون مختلفًا تلك المحادثة الآن؟!

سؤال لا يستهان به!

وكوني طيبًا لا يساعطني في التفرقة بين الحقيقة والوهم، وهم لن
يسمعوني من الخارج لعزلة الغرفة الصوتية! أحتاج إلى شيء مادي
يثبت لي أنني أتكلّم مع أحد، أنني أرى ما أراه يقينًا، هربت عيّناتي
إلى جهاز التسجيل أسفل السرير فابتسم شريف بخُبث، هَمَمْتُ أَنْ
أقرب خطوة فنظر إلى سامع تحذيرًا فتراجعت، مَدَّ يده لَمَكَمَن
التسجيل وسحبه برفق..

- تفكر ليه رينا بيخلق حاجات زي دي؟

كان ينظر لسامع المترنخي على الأرض..

- الحياة فيها الحلو والوحش.. شريف.. أنا محتاج الجهاز ده..

نظر لجهاز التسجيل بين أصابعه ثم وضعه على الأرض..

- ليه؟ شاكك في نفسك..

- شريف.. عشان خاطر ي أنا محتاج...

ثم اكمل جملتي.. رفع قدمه وهوى بها على الجهاز ليحطمه..
هرسه بلذّة..

- ليه كده..؟

- أنت مش محتاج جهاز يا دكتور.. أنت سليم..

ثم أعدد أعرف إن كان ذلك شيئًا جيدًا أم سيئًا، لكن على كل حال
لو كنت استمعت لجهاز التسجيل ولم أجد صوتي لازددت غرقًا في
قاع لا أعرف عمقه..

- ليه عملت كده في سامع؟

- المفروض تشكرني..

- أشكرك!!

- أنا باحميه من صاحبك..

- يإنتك تقتله؟

- لسه مش قادر تفرق بيني وبين شريف.. صاحبك طبعا عاوز

يقتله.. كويس إني جيت في الوقت المناسب..

-...!!

- شريف مريض.. مريض صعب.. مرض ما حدّش اتشفى منه

قبل كده..

اقتربت منه ببطء حين بدأ الطنين في أذني يسأل: من الذي يتكلم؟
عيناه تنظران لي بصدق..

- أنا لو كنت سبته دلوقت كان قتل سامح..

!!...-

- مش مصدقني؟

- أنا مايقش قادر أصدق حد..

- صدق نفسك.. صاحبك قتل وأنت عارف..

الطنين في أذني رج مخي كقربة حليب.. الصُّدَاع يسكن طويل
في يد قاتل هستيري لا يكف عن طعن طيلة أذني بها.. من أنا؟
نسبت..

- أنت بتخرف..

قلتها وأنا غير مقتنع..

- أنت بتسمع القصة من ناحية واحدة بس..

اقتربت حتى أصبحت بجانبه..

اضمر شراً.. أو خيراً.. لم يعد ذلك يشكّل فرقاً فالأمر ينسبي..

العقل والجنون.. أمر نسبي..

الحب والكراهة.. أمر نسبي..

الرب والشيطان.. أمر نسبي..

- لو ميت صاحبك على سامح هيقتله..

- كُلُّ شَيْءٍ مَكْتُوبٌ ..

قُلْتُهَا وَسَحَبْتُ الصَّاعِقَ الْكَهْرِبِيَّ مِنْ حِزَامِي قَبْلَ أَنْ أَغْمِدَهُ فِي
عُنُقِ شَرِيفٍ .. أَوْ أَيْمَا كَانَ! ضَغَطْتُ الزَّرَّ فَرَقَصَتْ الشَّرَارَةُ الزُّرْقَاءَ ..
انْتَفَضَ شَرِيفٌ .. ارْتَجَّ وَتَرَجَّعَ لَا إِرَادِيًّا .. عَوَى بِصَرْخَةٍ مِنْ يُسْلَخُ
جِلْدَهُ حَيًّا قَبْلَ أَنْ يَهْوِيَ أَرْضًا .. خَمَدَ وَهَمَدَ وَارْتَخَى .. سَحَبْتُ نَفْسًا
قَبْلَ أَنْ أُنْحِنِي عَلَى سَامِيعَ أَتَفَحَّصُهُ .. الْوَاقِفُونَ بِالْخَارِجِ يَحَاوِلُونَ
فَتْحَ الْبَابِ أَوْ كَسْرَهُ .. سَامِيعٌ يَحْتَاجُ إِسْعَاقًا .. اقْتَرَبْتُ وَمَدَدْتُ يَدِي
لِمَقْبِضِ الْبَابِ أَزِيحُ عَنْهُ الْكَرْسِيَّ حِينَ شَعَرْتُ بِحَرَكَةٍ .. التَفْتُ وَكَانَ
وَاقِفًا وَرَائِي .. لَمْ أَكُذِّدْ رَدًّا فَعَلْتُ حِينَ دَفَعْتُ قَبْضَتَهُ فِي صَدْرِي
فَارْتَطَمْتُ بِالْحَائِطِ .. ارْتَجَّتْ أَعْضَائِي الدَّاخِلِيَّةُ وَضَرَبَتْ الضُّلُوعُ قَبْلَ
أَنْ أَسْقُطَ وَيَطِيرَ الصَّاعِقُ مِنْ يَدِي .. تَرَكَنِي وَذَهَبَ لِالْتِقَاطِهِ فَقَمْتُ
أَتَرَنِّحُ وَهَاجِمَتُهُ مِنَ الظَّهْرِ .. كَانَ ذَلِكَ حِينَ التَّفْتُ وَتَدَدْتُ إِلَى ذِقْنِي
ضَرْبَةً بِكَوْعِهِ .. مَاجَتْ الْغُرْفَةُ وَارْتَعَشَتْ حَوَائِطُهَا قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الطَّبِيقُ
فِي أُذُنِي صَفَارَةً قَطَارًا .. هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَلَوْنِ الْحَيَاةِ يَمِيلُ لِلزُّرْقَةِ ..
سَخُونَةُ سَيْخٍ مَحْمِي لَسَعَتْ مُؤَخَّرَةَ رَأْسِي وَالْمُصَاعِقُ أَحْرَقَ عَيْنِي ..
بِهَدْوٍ اقْتَرَبَ شَرِيفٌ مِنْ سَامِيعَ .. انْحَنَيْتُ فَوْقَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ نَظْرَةً
طَوِيلَةً لَمْ أَفْهَمْ مَعْنَاهَا .. أَوْ لَعَلِّي وَقَّتْهَا لَمْ أَرِدْ أَنْ أَفْهَمْ .. بَيَقِينَ مَعْرُوجَ
بَغَضِبٍ جَزْءٍ مِنْ أَجَلِهِ أَسْنَانُهُ أَمْسَكَ بِكَفِّهِ ذَقْنُ سَامِيعَ وَمُقَدِّمَةُ رَأْسِهِ ..
وَبِعِزْمِ قُوَّتِهِ طَوَّحَ كُلَّ مَنِمَاهُ فِي اتِّجَاهِ مُعَاكِسٍ .. رَغْمَ صَفَارَةِ الْقَطَارِ
سَمِعْتُ .. سَمِعْتُ فَقَرَاتِ عُنُقَ تَنَفُّكِ وَقَصْبَةَ هَوَائِيَّةٍ تَضِلُّ طَرِيقَهَا ..
قُمْتُ أَحْيَلُ ثِقَلًا مَضَاعِفًا وَارْتَمَيْتُ عَلَى سَامِيعَ .. كَانَ ذَلِكَ حِينَ انْفَتْحَ
الْبَابُ تَحْتَ وَطْأَةِ أَكْتَافِ الْعَسَاكِرِ .. انْهَمَرُوا فِي الْغُرْفَةِ كَسِيلِ اجْتِنَاحِ
سَدَا .. دَفَعُونِي جَانِبًا وَأَطَاحُوا بِشَرِيفٍ إِلَى الْأَرْضِ .. أَسْقَطُوهُ عَلَى

بطنه فاحتضن وجهه البلاط .. بجانب وجهي .. النظرة بيننا اتخذت
ثانيتين .. ثانيتين قرأت فيهما معنى واحدا .. الارتياح !

حملة الضباط بعيدًا ولم يقاوم، أغمض عينيهِ واسترخى في
قبضتهم كأنه ملك مُدَلَّل بين أيدي مُدَلِّكي مَسَاجٍ، انحني د. كيلاني
على سامح الراقِد بلا حِرَاكٍ يَفْحَصُه حين اقتربت المديرَة مِنِّي،
بصوت آتٍ من بعيد سمعتها تسألني إن كنت عملي ما يرام فهزّزت
رأسي إيجابًا لتبتعد، سأعيش يا مُعِيلة فلا تقلقي، اعتدلت وأسندت
ظهري للحائِط أتابع ما يحدث حين أمر دكتور كيلاني الممرضين
بَحْمَل سَامِح برفق وخرجوا به ركضًا لإسعافه، بصعوبة التقطت
بقايا جهاز التسجيل المَهْشَم وأخفيتُها في مَلابسي دَفْعًا لتهمة لن
بنحملها ظهري ..

في الحمام غَسَلْتُ رأسي المُرْتَج وأنفي الذي نَزَف دَمًا وأسناني،
عَيني اليُمنى علا بياضها نُقْطة دَمَوِيَة ستبقى شهرًا وازرقَّ خَدَي
من أثر اللكمة، بأرجل مُرتعشة من أثر المَجْهُود المُفاجِئ خرجت
إلى فناء ٨ غرب، ارتيمت إلى دُكَّة وأشعلت سيجارة متابعًا سيارة
الترحيلات التي أودعوا فيها شريف، بقية التُّلَاء رَجَعُوا لِلْعَبِير، وتبع
بعض التُّلَاء سَامِح، ثواني وخرجت المديرَة من العَبر وعلى أذنها
التليفون، أنهت مكالمة وهي ترمقني قبل أن تقترب وتقعِد بجانبِي،
بصمت مَدَّت يَدَها إلى علبتي وسَحَبَت سيجارة دَسْتها بين شفتيها،
نظرت لها في استغراب قبل أن أشعلها لها، نفثت الدخان ثم تحدّثت
دون أن تنظر في وجهي :

-إيه اللي حَصَل جَوّة؟

حكيت لهما ما حدث حسب ما حدث.. أو حسب ما أتخيل
أنه حدث!

لَمَّا انتهيت سكنت ونظرت لي نظرة قرأت مغزاها.. ولم يعجبني..

- إحننا ما شفنناش حاجة لأنك سدّيت الشباك وزنقت الباب!!

- هو اللي طلب مني ده.

سكنت ثانية.. تتوغلني بعينها.. ستعثر في غابتي المُحترقة إن

مشت مترين إضافيين..

يا سيدني أنت لا تدريين من الذي تنظرين إليه! أنا نفسي لا أدري.

- إيه تفسيرك؟ سألتني.

- أنا قلت قبل كده وما حدش صدّقني.. ازدواج.

- إيه اللي بخلي شريف يحكي اللي قاله عليك يا يحيى؟

- أدبكي قلتي حضرتك.. في مصلحة مين الكذب ده!

- أنت كمان كذبت..

- خيّت.. فيه فرق.. مين فينا ما يحبش يساعد صديق؟

لكن مؤامرة لأ.. أنا ما رجعتش غير لَمَّا جالي الجواب.. مش

الجواب جالي؟

نظرت لي باستغراب فلطمت على جوانب مخي وعفرت عليه

التراب كالنساء في الجنائز..

- الجواب؟؟ مش فيه جواب.. سألتها بغضب أزعجها..

- طبقاً فيه جواب.. أنا بس مستغربة أنك بتسأل أكتك ما تعرفش!!

زفرت نفساً وارتخيت بظهري إلى ظهر الدكة.. رمقتي بنظرة
أعرفها.. نظرة تنظر بها للمريض لتزن عقله.. نسبر غوره.. قرأت ما
تنوي قوله ولم يعجبني أيضاً فعاجلتها..

- حضرتك شايفة إن ده تصرف واحد عاوز يتهد من تهمة! يكسر
رقبة سامح!!

- كل الناس اللي عندنا هنا بتدعي الجنون.. ممكن تكون دي
وسيلة تأكيد..

- بأنه يقتل تاني!!

- وده يأكد إنه مجنون بجد..

- أنا مش طابق سامح.. بس ما أرضالوش الأذى وده اتهام أنا
ما أقبلوش..

- أنا ما اتهمتكش..

- الكلام واضح يا دكتور..

- دي بارانونيا اضطهاد يا يحيى..

- أيا كان.. القضية دي خلاص ما بقتش بتاعتي.. من فضلك
اعفيني من المسئولية.. أنا مستعد أقدم استقالتي بكرة..

كان ذلك حين أتاها اتصال:

- ألو.. إمتي!؟ ok..

أنزلت السماء من فوق أذنيها:

- سامع مات..

انهارت فوقنا شجرة صمت غرزني جذعها في الأرض امتارًا،
واعتمر رشتي أخطبوط له ثمانون ذراعًا..

لا أكاد أصدق أنني قد أحزن على مثله يومًا!!

رغم كونه خسيًا، لثيمًا، مُملًا، خرتيتًا، مقرزًا، سمينجًا، مُسَلَقًا،
حَاقِدًا، ناقصًا، شهوانيًّا، يُمارس العادة السرية حتى هذه السن على
ما اعتد، أحمر، مُسَلَقًا، مُنافقًا، جبانًا، أرعن، وقلبه أسود..

إلا أنني لم أتمن له مثل تلك النهاية..

سادت المستشفى كآبة ووجوم تعكّرت به نفوس المرضى قبل
الزملاء لفقد سامح، ما هي إلا دقائق وأحاط بي الضباط يحملون
شكوكًا وتكهنات وأسئلة مُكررة، استسلمت بين أيديهم كمرضى
في عملية قلب مفتوح، أفرغت في آذانهم ما رأيت، وشقّ عليّ كثيرًا
أن أسرد ما اتخرفته شريف، شعور الوشاية أسوأ من كُحول مَغشوش،
كُتب الضباط شهادتي في صفحات طويلة ولم يكونوا يستوعبوا
الأعراض، الأعراض التي تراود شريف..

. أو تراودني!!

انتهوا مني «نظرية» ثم تركوني، خرقه بالية لا حياة فيها ولا رمق
على دكة أمام العنبر، مُتيسرًا شاردًا ظللت راقنًا حتى رأيت شريف
مَجْرودًا جَرًا، خرج من السيارة مُكبلاً يمشي بينهم مَحْمولًا فوق
أيديهم لا يكاد يلامس الأرض، أودعوه سريره في حنبر العزل مُكبلاً
(قدم في ذراع)..

أنا في أشد الحاجة لكأس

خرجت من المستشفى إلى تاكسي.. عَفَرَت الكون وثقبت
الأوزون ثَقْبًا إضافيًا بدخاني حتى اكتمل بداخلي قرار طلبت من
أجله لهنى..

- عندك كاميرا فيديو؟

- عندي!!

- تقدري تيجي لي دلوقت؟

- ممكن.. هو حصل حاجة؟

- أنا هاكون في البيت بعد تلت ساعة..

- حاضر.. اديني ساعة!

أنهيت نصف تبغي أمام البيت انتظارًا قبل أن تظهر ميارتها في
نهاية الشارع، اقتربت والتوتر في خطواتها، يمشي بجانبها على حُشْب
حديثي، مَا تَفْعَله للقاتلي أكبر من قدرتها، أخبرني بذلك تؤثر حاجيها
وشفتاها المتغلصتان، تَجِد صعوبة في التصالح مع رغباتها، ما تشعر به
من عَدم منطقية الحياة التي نعيشها يعينين عن بعضنا + النَّب الذي
نَحْسَه من مشاعرنا تجاهي + أن سُلوكي وطريقة معادشتي في التليفون
بالطبع تُعطي إِيحَاءَ بالاستراج والتحرُّش!!

- أنت كويس؟

- مش عارف!!

أقلقتها إجابتي ولم أجد غيرها لأطمئنتها، كما أن الكائن

المُحِلُّ المُسَمَّى «كوثر» تَتَقَبَّأُ فِي قُضُولٍ مِنْ خَلْفِ سِتَائِرٍ تَأْفَلُنَهَا،
لَا إِرَادِيًّا مَسَحَتْ يَدَ ابْنِي وَدَخَلْنَا شَقَّتِي، بَدَتْ مَاخُوذَةٌ قَلَقَةٌ، سَعِيدَةٌ
وَمُضْطَرِبَةٌ، جَرِيئَةٌ وَالْجُبْنَ فِيهَا كَامِنٌ يَفْلَتُ مِنْ عَيْنَيْهَا! أَغْلَقْتُ الْبَابَ
وَأَجْلَسْتُهَا عَلَى كَتَبَتِي قَبْلَ أَنْ أَمُرَّ عَلَى التَّوَاقُذِ لِأَكْسُوها بِالسِّتَائِرِ
وَأَرْجِعَ إِلَيْهَا..

- فِيهِ إِيه؟

- لَبْنِي.. بَشْفِي فَيَا؟

- طَبْعًا!!

- عِنْدِي خَبْرٌ مَشْ كَوَيْسَ.

هَزَّتْ رَأْسَهَا رَفْضًا وَاضْطَرَبَ وَجْهَهَا قَبْلَ أَنْ تَسْمَعَ..

- النَّهَارُ دَةُ الصُّبْحِ أَخُو كِي قَتَلَ سَامِيحَ!

- إِيهِ اللَّيِّ بِتَقُولُهُ دَه!!

- زِي مَا سَمَعْتِي.

- لَا.. لَا.. مَشْ مِمَكْن.

- أَهْدِي وَاسْمَعِينِي.

- أَسْمَعُ إِيهِ؟ أَنَا مَشْ مُصَدِّقَةٌ.. يَعْنِي إِيهِ قَتَلَهُ!! إِرَاي؟

- اسْمَعِينِي عِشَانِ الْوَقْتُ ضَيِّقٌ.

- هُوَ فِينِ دِلْوَقْتُ؟

- فِي عَنَبِرِ الْعِزْلِ فِي الْمُسْتَشْفَى.

قامت منخبطة لا تدري أي اتجاه تذهب، ارتعشت يدها ونفرت
 نسامها، نظرت لي والانهيال والتيه يتجولان في ملامحها، أحطت
 وجهها بيدي تثبيتاً فسكنت والدموع لم تفعل، انسلت ساخنة على
 وجتها ساحبة المكياج الذي وضعت من أجلي معها، مسحت خديها
 بكفي وزفعت الخصلة التي انسدلت مخفية عينيها، ثم لم أملك
 إلا احتضانها تهدئة قبل أن أسجيتها على الكنبه جثة حية وأجلس
 بجانبها، بهمس ونيد حكيت بعض ما حدث لتستوعب ما أنا مُقدم
 عليه، حكيت عن القميص العتيق، حكيت عن تفاصيل في جلساتي
 مع أخيها، وحكيت عن التليفونات التي استقبلها، عن قرص البرزخ
 الذي ابتلعتة والفيل الأزرق المرسوم فوقه، كدت أحكي عن «مايا»
 ولم تطاوعني روعي في البوح، شعرتها خيانة لها رغم فوات الأوان،
 ثم شرحت هواجسي في نفسي بالدلائل والقرائن قبل أن أشرح لها
 ما أريد تنفيذه، ما أريد التأكد منه، اعتدلت في جلستها وانتهت،
 وكلما توغلت حكياً توثرت ملامحها، ساقاها لم تعدا مستريحتان،
 يداها تمشتا أمام قمها تمنعان الكلمات من أن تخرج، وشفقة مُلتاعة
 ضيقت المسافة بين حاجبيها، وأخيراً تقهقرت إلى ظهر الكنبه مُنكمشة
 مُحاوله التظاهر أمامي بغير ذلك قطعاً أنتها بابتسامة:

- أنا عارف إن اللي بقوله ده جنان.. بس ده اللي ما كتش عاوز
 أقولهولك لأنني مش متأكد من حاجة.

- أنا مش مصدقة إن مُمكن تكون...!!

- خلينا نفذ اللي أنا عاوزه عشان نتأكد.

- ما أقدرش أعمل اللي أنت طالبيه ده!

- لُبْنِي أَنَا مَا بَقْتَش قَادِر الْهَم أَنَا بِاعْمَل إِيه أَوْ مَا بِاعْمَلش إِيه؟
أَنَا مَحْتَاج لِكَ.. عَارِفَة.. الْيَام دِي بَس اِكْتَشَفْت إِنِّي مَا لِبَش حَد..
بِقَالِي خَمْس سَنِينَ مَا شِي بِقَوَّة الدَّفْع وَمَش وَاخِد بَالِي.. يَمَكْن مِسْتَنِي
أَشُوفَك.. يَمَكْن رَبَّنَا سَايِينِي لِأَن لِيَا دُور.. مَش عَارِف.. أَنَا مَحْتَاج
أَعْمَل دِه لِأَن دِي آخِر حَاجَة فَاضِلَة لِي.. آخِر تُمْن فِي دِمَاغِي...
سَاعِدِينِي..

- افْرَضْ إِنْ ظَنَّاكَ طَلِّعْ صَح!

- هَادْخَل الْمُسْتَشْفَى.. مَش هَتَفَرَق.. مَا عِنْدِي ش حَدْ يَهْتَم...

قَاطَعْتِي:

- أَنَا مَهْتَمَة!

- لُبْنِي...! خَلِينَا تَتَكَلَّم بِالْعَقْل.

- مَش بَعْد مَا لَقَيْتَكَ هَاتُروح مَنِّي.

- أَنَا رَابِيع رَابِيع وَمَش هَاسَمَح لِنَفْسِي أَبْوَظ حَيَاتِكَ.

- حَيَاتِي مَا لَهَا ش طَعْم.. حَاسَة إِنِّي وَاقِفَة عَلَى رَصِيف مَحْطَة

مَهْجُور؛ الْقَطَر بَتَاغِه بَطَّل يَجِي مِنْ عَشْر سَنِينَ.

- مَش كُل الْي بَتَمْنَاه بِيَحْصَل.

- أَنَا خَائِفَة.. أَوَّل مَرَّة أَحْس إِنِّي خَائِفَة.. أَنَا مَحْتَاجَة لِكَ.

- بَتَقِي فَيَا؟

- بَتَسَال؟

- ما تخافيش.. كل حاجة هنبقى كويسة.

صدقتني! ولم أصدق أنا الوعد حين خرج مني! أخت رأسها
إذعاناً لرغبتني فقمنا إلى الغرفة، وقفت تتأملني قرب الباب مسحوبة
مدهوشة بما حكيت، مأخوذة بما طلبت منها أن تفعله، حتى صدمة
انحبائها تضاءلت رغم قسوتها فتاهت عن رأسها مؤقتاً..

فقتلة واحدة لا تختلف كثيراً عن قتلتين!

سحبت مفتاح الغرفة من ثقبه ووضعت مع مفتاح الشقة في
يديها حين ومضت في رأسي مايا كصاعقة أصابت حدقة عيني
فأغمضت هرباً..

- عاوز أتأكد إنني مش هاتحرك.. مهما حصل ما تفتحيش الباب
ده غير بكرة.

- مش هاقدر أستنى لبكرة.

- العوّ مش هياكلني يا لبنى.

- أنا مش مقتنعة باللي أنت بتعمله ده!

- ولا أنا.. بس اسمعي كلامي.. ده آمن ليا وليكي.. رّوحي وأنا
معايا تليفوني.. هاكلملك.

- ولو ما اتصلتش؟

- هاتصل.

- مش مسامحة نفسي إنني أعمل ده!

- هنضحك على الكلام ده بكرة.. أو عديني تنفذي اللي طلبته

زي ما قلت لك.. ما تجيش لوحدهك.. لو لسه ليا عندك خاطر
ما تجيش لوحدهك..

- مش هاسامحك لو حصل لك حاجة..

- مش هيحصل حاجة..

هزت رأسها ولم أمهلها وقتًا للتفاوض، ابتسمت صناعيًا
واعترضت يدها توديعًا، أغلقت الباب على نفسي وانتظرت حتى
سمعت خطواتها البطيئة وباب الشقة ينغلق من ورائها، خلعت
قميصي فلمحت علامتي التجارية ولم أجد لي مَصْنَعًا يتجني، فقط
ورقة سعري كانت مُتدلّية، مكتوب فيها آني مجانًا بخصم ١٠٠٪،
ومعي هدية زُجاجة بيّرة مثلجة ولقافة تبغ!

فتحت الدولاب وأخرجت الثوب الأثري، أزلت الغلاف البلاستيكي
من فوقه بحذر ووضعتَه على سريري، أمام مرآة التسريحة أمسكت
الميكروفون وأعلنت عن الفقرة التالية:

سيداتي آنساتي سادتي..

أدعوكم لقضاء وقت مُمتع مع الغُمُوض والإثارة.. السّحر والمُتعة
وثالث فقراتنا مع قُرص الـ (DMT) ..

الفيل الأزرق..

بُقعة إضاءة ناصعة أضاءت حلبة السيرك، قبل أن ينزل قَفَص
حديدي مهيب من سقف الخيمة مع قرع طبول سريع ما لبث أن
توقّف بغتة حين استقر القفص على الأرض، وقفت في منتصف
الدائرة الحمراء أنا قُبل وجوه الجمهور المنبهر حين هدرت الأبواق

النحاسية مُعلنة بدأ الفقرة، أخرجت الجسد المهيّب من جيبي، فيل
أزرق يُحيطه أربعة عبيد مفتولي العضلات يكبلون أقدامه بجنازير
غليظة خشية هياجه، صَفَقَ الجمهور انبهارًا وانقطعت أنفاسهم
تصفيرًا من سحر اللون الأزرق في العيون فضربت كُرباجي على
ظهري ترهيبًا ليسود الخيمة صمت له وقع، لَمَّا وَصَلَ القبل إلى
وسط الحلبة رَفَعَ خرطومه عاليًا وأصدر نهيًا عميقًا بثَّ الرعب في
نُفُوس الأطفال فاخبتوا في صُدر أمهاتهم، وشَدَّ العبيد جنازيرهم
حذرًا أن يفلت، لحظة صمت مَرَّت حين خَرَج قَزَم من وراء الدخان
الهائم قُرب الأرض، مُهَرِّج مقوَّس الساقين بأنف حُمْراء وضحكة
عريضة قبيحة، يَحْمِل في يده كوب ماء كبيرًا، ناولنيه فرفست مؤخرته
بقدمي ليتشقلب فيضحك الأطفال تخفيفًا للتوتر قبل أن ينسحب،
رَفَعَت الكوب في وجه المتفرجين أستعرض كونه ماءً عاديًا قبل أن
أمر العبيد بفك قيود الفيل، توترت الأجواء وُقِرَّت الطبول في إيقاع
سريع وسَاد الترقب النفوس، فَكَّ الحُرَّاس جنازيرهم وسحبوها
وراءهم إلى خارج القفص الحديدي وأغلقوا الأبواب، اقتربت من
الفيل بحذر، رَمَقَني بعين سوداء رأيت فيها نفسي، دُرت حوله مرّتين
قبل أن التقط ذيله الصغير المُشْعِر، لَفَفَتْه حول سبَابتي حتَّى تمكّنت
منه فهَاج ووقف على قائمته الخلفيتين ينهم بصوت مُرعب قبل أن
أرفعه عاليًا وسط دُهور الجمهور وأفتح فمي لأسقطه على لساني
ثم ابتلعه بكوب الماء الكبير

سَاد الخيمة صمت الجنائز وعَلَّت الوجوه دهشة كدهشة
السحرة لَمَّا رَأَوْا عَصَا مُوسَى تُعبأنا، ثوانٍ بطيئة مَرَّت قبل أن التقط
الميكروفون..

أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بفقرة الفيل الأزرق..

انهمر التصفيق والصفير بلا توقف.. نظرت في الوجوه المنبهرة
لحظات وابتسمت قبل أن أمر بفتح أقفاص الأسود عليهم!

برفق التقطت القميص من فوق سريري واقتربت من المرأة، مع
أدنى حركة يُصدر صوتًا يشبه رفرقة جناح طائر بسبب جفاف أنسجته،
وقفت أتأمل نقوشه، بدت مُنمقة أرهقت كثيرًا من خطها، لا أصدق
مثابرة القلم الذي كتب الأرقام والآيات، الدوائر والمربعات وأوراق
الشجر! شعرت أنه سيتفسخ بين لحظة وأخرى أو ينحل خيوطًا، لكنه
تماسك، اللعنة، يا ليتة يصير ترابًا بين قدمي أو يتبخّر! يا ليت شريف
يتجر ليريح نفسه.. ويُرِحنِي..

جمود قلبي بلغ صلابة الألماس..

نظرت لنفسي في المرأة ورأيت الأحقق ينظر لي، أرفع ذراعي
فيرفعها، أحرك أصابعي فيحركها، لم أتمالك نفسي من الغيظ،
اندفع الدّم إلى وجهي فأخرجت ولاعتي ورفعت القميص قبل أن
أصكّ الحجر وأشعل تحته نارا، التقطت فتلة مُتدلية أطراف اللهب
فانكشيت، تكوّرت على نفسها واسودت قبل أن تتبعها أخرى فأخرى
حين تمالكت نفسي بصعوبة وأطفأت ناري!

إذا كنت سأحرقه.. على الأقل يجب أن أرتديه مرّة!

نظّرت للقميص جيدًا وتذكّرت ما سيفعله الفيل الأزرق بعد
لحظات، سيفتح بجسده العملاق طريقًا في غابة مُعقدة مُشابكة،

سَيَسْوَى الْأَشْجَارَ بِالْأَرْضِ وَيَلْبَسَ السَّكَّانُ وَيَشْرَبُ كُلُّ مَيَّاهِ
الْبُحَيْرَاتِ فَتَمُوتَ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ!

لَا بِأَمْسٍ.. وَلَا سَبِيلَ لِلتَّرَاجُعِ فَقَدْ بَدَأَتْ أَسْمَعُ نَهِيمَهُ بِالْفِعْلِ
وَأَشْمُ رَائِحَتَهُ..

شَغَلْتُ الْكَامِيرَا وَوَضَعْتُهَا عَلَى التَّسْرِيعَةِ فِي مُوَاجَهَتِي، سَحَبْتُ
نَفْسًا عَمِيقًا وَأَدْخَلْتُ رَأْسِي فِي الْقَمِيصِ وَحِينَ اسْتَقَرَّ عَلَى كَتِفِي..
لَمْ أَجِدْ نَفْسِي فِي الْغُرْفَةِ..

الوقت كان ظهرًا..

الشمس حارقة حارقة أجبرتني على رفع كفي أمام عيني اعتراضًا،
الصُّدَاع فشخ رأسي نصفين ووَشَع حدقتي كَيًّا وأدمعهما، تعرُّجات
الأرض غير المُستوية أَلَمَت قدمي، ونعل البلغة التي أُنعلها رقيق
لا يعزِّلني! والجلباب!! بُني داكن خَشِن الملمس طَبَعَ عِرْقِي على
نسيجه دَوَائِر من الملح تَفُوح صدأ.. اللعنة!! أين أنا؟

الليل الليل يا قِرْد الليل.. وأنا كان مالي يا قِرْد الليل..

نظرت بجانبني فرأيت رجلًا متكئًا بظهره إلى حائط قُرب باب
عَتِيق، مُمَسِّكًا بِرِقِّ صغير بين يديه الخَشِيتين، جِلْبَابُهُ مَشِخ وَقَدَمَاهُ
جِذَع شجرة تعيسة لم تَرْتَو من قبل، أمامه قِرْد ضَنِيل الحَجَم في
عُنْقِهِ سِلْسِلَةٌ مَشْدُودَةٌ إلى رُسْغ سِيدِهِ، يَرْتَدِي ثوب طِفْلة وَيُمَسِّكُ
بين أصابعه القبيحة المُشْعِرَةِ بِسِجَارَةٍ! يَسْحَبُ مِنْهَا نَفْسًا ثُمَّ يُخْرِجُ
الدُّخَان من أنفه بِحِرْفَةٍ حَشَّاشٍ عَتِيدٍ، الرَّجُل يَدُقُّ عَلَى الرِّقِّ إيقاعًا
رَتِيكَارَ خِيصًا والقِرْد يَقْفِزُ فِي الهَوَاء..

بالملك رزقي ومال الناس.. بأَعْمَلِ عَجِينِ الفَلاحَةِ..

وعشائِ تَمَامِكَ يا سِيدَ النَّاسِ.. نَفَرْتُكَ صِرَ وَرَاحَةٍ..

نظر لي الرجل في ودّ وابتسم بأسنان مُتهذمة سوداء، مُمادياً
 في غِنائه بِصوت أخفّ رَتِيب هَبِيج الصُّداع في عَيْنِي لعنه الله!!
 ابتعدت عنه أتعثر في خطوات الجلباب الضيقة، لم ألبس جلباباً من
 قبل! بالكاد تفاديت الاصطدام بوجه ناقة مازة بجاني، ناقة أولى في
 موكب من عشر نُوق تَحْمِل قَرَب ماء مُثلثة تَتَدَلَّى لتحيط جوائبها،
 يَجْرّها بحبال غليظة مُراهقون خمريو الوجوه حفاة الأقدام! التصقت
 بحائط لأتفاداهم حتّى مرّوا والماء المُتسرّب من ورائهم يصنع نهراً
 صَغِيراً تنهله الكلاب الضالة والقِطط!

مشيت خُطوات في وَجْه الشَّمس الزاجرة لا أعرف إلى أي اتجاه
 أسير حين لاحظت أنّ أغلب الوجوه التَّعيسة تَنظُرُ لي بوَدّ وهي مازة
 بِجَانِبي، يعرفونني! يَهْزَوْنَ رءوسهم وَيُحَرِّكون شِفاههم بِكلمات
 لم تُدركها أذناي، وأنشئ! ابتسمت بدلال من تحت بُرْقَعها المزيّن
 بحلية ذهبية بين العينين، أعرف تلك العينين! تخطّنتني وأحكمت
 لَفّ ملاءة سوداء تخفي تحتها فواكه الجنّة، قبل أن تبتعد أنزلت
 عيني كعادتي في تأمل كل أنشئ إلى قدميها، أصابعها دقيقة مطلية
 بلون فاقع، لَبَنِيّ فاقع!

مايا! مايا!!

ناديت ولم أسمع صوتي قبل أن تتوه مني بين الزحام ولا أدركها،
 ابتعدت أمتاراً إضافية حتّى ظهرت البوابة العظيمة، بوابة تَسع فيلاً
 أزرق! بوابة قديمة يُحيطها بُرجان حجريان مُصمَّتان فوقهما منفتان
 هائلتان، رأيت ذلك المشهد في صورة أو ربما كتاب تاريخ! شيء
 ما دفعني للعبور أسفل منها، شيء حتمي مفروغ منه كفيلم انتهى

عَرَضَهُ فِي السِّينَمَات وَمَات أَبْطَالَهُ! اقْتَرَبَتْ مِنَ الْبُوابَةِ فَرَاغَتْني جُثَّةُ
 امْرَأَةٍ مَشْنُوقَةٍ، مَكْتُوفَةِ الْيَدَيْنِ مُعَلِّقَةٌ بِحَبْلِ غَلِيظٍ يُحِيطُ رَقَبَتَهَا، لِسَانُهَا
 مُتَدَلٍّ وَعَيْنَاهَا يَبْضَاوَانِ مَائِعَتَانِ مِنَ التَّعَفُّنِ، قَدَمَاهَا بِنَفْسَجِيَّتَانِ مِنْ أَثَرِ
 الدَّمَاءِ الْمَتَجَلِّطَةِ الْمَتَرَسِّبَةِ فِيهِمَا وَنِصْفُ رَأْسِهَا حَلِيقٌ، الْغَرِيبُ أَنْ
 أَحَدًا لَا يُولِيهَا اهْتِمَامَهُ! كَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ دِيكُورِ الْبُوابَةِ! مَرَرْتُ أَسْفَلَ
 مِنْهَا وَعَيْنَاي لَا تَطَاوَعَانِي فِي تَرْكِهَا وَشَأْنِهَا، انْخَرَطْتُ وَسَطَ زِحَامٍ
 بِاعَةِ جَائِلِينَ يَجْرُونَ عَرَبَاتٍ عَلَيْهَا خَضِرَاوَاتٌ وَفَوَاكِهُ وَمَوَازِينُ،
 سَقَائِنُ مُتَرَجِّلِينَ مُسْرِعِي الْخُطَى يَحْمِلُونَ قَرَبَ مِيَاهٍ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ
 شَحَافِيزٍ ذَوِي عَاهَاتٍ رَثِي الثِّيَابِ مَتَسَخِينِ، وَأَطْفَالٌ قَذَرِينَ حَلِيقِي
 الرِّءُوسِ يَرْتَاحُ الذِّيَابُ فِي أَعْيُنِهِمْ، يَلْعَبُونَ بِصُخْبٍ لَا أَسْمَعُهُ! اللَّعْنَةُ!
 أَذْنَاي مَسْدُودَتَانِ بِشَمْعٍ يَكْفِي نَحْلَ الْأَرْضِ! حِينَ أَصْبَحْتُ بِحِذَاءِ
 الْبَابِ الْعَتِيقِ لَاحِظْتُ مَسَامِيرَ غَلِيظَةً وَخُرُوسًا آدَمِيَّةً تُغْطِي وَجْهَ
 الْبَابِ بِشَكْلِ مَقَرَّزٍ! مَقَرُّوسَةٌ بِجَذُورِهَا الرِّبَاعِيَّةِ فِي مَتْنِ الْبُوابَةِ،
 كَأَنَّهَا مَسْتَبَتٌ شَجَرًا! وَيَقِفُ أَمَامَ الْمِزْلَاجِ الْخَشِيِّ الْهَائِلِ رِجَالٌ بِسَطَاءِ
 وَنِسَاءٍ، يَدَسُّونَ أَوْرَاقًا صَغِيرَةً فِي الشَّقُوقِ وَالْفَوَاصِلِ، خَاشِعُونَ
 مُتَكَسِرُ الرِّءُوسِ مُتَمَسِّحُونَ بِبِرَكَاتِ الْبَابِ كَأَنَّهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ،
 مُبْتَهَلُونَ يَتَرَنَّمُونَ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ:

يَا مَتُولِي.. يَا مَتُولِي.. اشْفِي ضَرْسِي وَرَيْحَ عَقْلِي..

تَرَكْتُ الْبُوابَةَ وَاتَّجِهْتُ إِلَى الْيَسَارِ، إِجْبَالِيًّا، أَزْدَادَاتِ التَّحِيَّاتِ
 وَرَفَعَ الْأَيْدِي بِالْإِسْلَامِ وَهَزَّ الرِّءُوسَ لِحْتَرَامًا، لَمْ أَسْتَطِعْ إِلَّا الْإِيْمَاءَ
 وَالزَّيْعَ بَعِيْنِي هَرَبًا مِنَ السُّؤَالِ! أَنَا فِي مَنَاطِقَةٍ حَمِيمِيَّةٍ! أَوْ رُبَّمَا الْغَيْلِ
 الْأَزْرَقِ يَسِيرُ مِنْ خَلْفِي فَيَضْفِي عَلَيَّ رَهْبَةَ الْمُلُوكِ؟ التَّصْتُ بَغْتَةً وَلَمْ
 أَجِدْهُ! قَطَعَ الشَّمْسُ ثَقَبَتْ عَيْنِي كَسُومٍ فِي عَصَبِ ضَرْسٍ مَحْفُورٍ،

شعور القبيء بدأ يراودني، استحوذ عليّ ببطء حية عاصرة، وحلّقي
 بجفّ بجنون، كأنني ابتلعت ترابًا، لَمْخُت سَيْلًا كَبِيرًا قرأت على
 خشبة منحوتة بجانبه «سبيل الست نفيسة البيضاء رحمها الله»،
 سمعت خرير المياه فهممت بالاقتراب حين وجدت ضيفي الأسود
 الكتيب واقفًا بين عمودين، يلهث بشحّز وذيله بين قائمتيه الخلفيتين
 في وضع هُجوم، زمجر الكلب بشراسة وزام فرجعت خطوتين قبل أن
 ابتعدا ظللت ألتفت خلفي أتخبّط الناس وأتعرّش في الجلباب اللعين
 أرفع طرفه يدي والتراب يغزو رتي، حتى مررت من أمام باب بيت
 مفتوح سمعت منه شدةً:

النّحيّ في حِجره بيت ما رقد..

عينه من نُصْتها وضيّ الحَلَق..

النّحيّ في حِجره بيت لم ينم..

عينه لِسَوْتها ولتحت الحزام..

النّحيّ في حِجره بيت ووصل..

عينه لرسمتها ولحقّ العسل..

رجعت خطوتين فلمحت في الساحة بغلاً، بغلاً أزرق! بغلاً
 اسمه بحر!

إنه بيت الطفل الذي وخزني.. بيت الخنافس وشجرة الكافور!!
 وتلك الأغنية غناها شريف في المسجّل من قبل..

مرّت بي قشعريرة لم تكن لتوقّني، عبّرت بوابة مُعلقاً فوقها

تَمْسَحُ مُحْتَطَّةً، اقتربت من السَّاحَةِ التي رأيتها قَبْلًا من المَشْرِيبَةِ؛ شَجَرُ
الليحون مُتَشَرٌّ عَلَى الجَوَانِبِ، وَفِي المَتَصِفِ حَوْضُ المَاءِ تَعْلُوهُ
نَبَاتَاتُ الزَّنْبَقِ الدَّائِرِيَّةِ، تَغْرِيدُ العَصَافِيرُ يُضْفِي عَلَى المَكَانِ هُدُوءًا
وَسَكِينَةً ارْتَاحَتْ لَهَا نَفْسِي، حَتَّى الصُّدَاعُ وَالغَثَيَانِ خَفَتَا وَخَشَعَا
وَاسْتَسْلَمَا، اقتربت من البَغْلِ بِحَذَرٍ، كَانَ أَكْبَرَ مِنْ حَصَانٍ! لَوْنُهُ البَنِّي
العَجِيبُ يَتَغَيَّرُ مَعَ انْفَاسِهِ صُعُودًا وَهُبُوطًا، تَلْمَعُ فِيهِ مَوْجَةُ زُرْقَاءِ
تَتَحَرَّكُ كَرَقَابِ الحَمَامَاتِ الزَاجِلَةِ، لَمْ أَقَاوِمِ رَغْبَةً فِي مَدِّ يَدِي إِلَيْهِ،
لَمْ يَتَغَرَّ أَوْ يُعْرِضْ، بَلْ لَحَسَ قِطْعَةَ السُّكَّرِ المُتَحَجِّرَةِ الَّتِي أَخْرَجَتْهَا
مِنْ جَيْبِ جِلْبَابِي لَا إِرَادِيًّا!! كَانَ ذَلِكَ حِينَ لَاحِظْتُ سُمْرَةَ يَدِي،
وَالخَاتَمَ الْأَسْوَدَ الَّذِي أَلْبَسَهُ فِي خَنْصَرِي!! مَسَحْتُ عَلَى ظَهْرِهِ اللَّامِعِ
حِينَ سَمِعْتُ خَفِيفَ الْأَقْدَامِ، تَغَلَّرْتُ لِلسَّلَامِ الخَشِيِّ فَوَجَدْتُهَا نَازِلَةً،
تَرْتَدِي جِلْبَابًا أَسْوَدَ مِنَ القَطِيفَةِ وَتَضَعُ بُرْقَعًا مُدَلِّكًا لَمْ يُخَفْ مَلَامِحُهَا
المُسْنَةُ وَشَعْرُهَا الْأَبْيَضُ الخَشَنُ الشَّارِدُ خَارِجَ نَقَائِبِهَا، سَيِّدَةُ الوُشْمِ!!
هَمَمْتُ بِالِاقْتِرَابِ مِنْهَا فَتَجَنَّبَتْنِي وَأَسْرَعَتْ إِلَى بَوَابَةِ الخُرُوجِ، كَانَ
ذَلِكَ حِينَ وَجَدْتُ «نِيجُوزِي» أَمَامِي!! خَادِمَةٌ عَوْنِي، تَرْتَدِي جِلْبَابًا
فَلَّاحِيًّا صَاحِبَ الْأَلْوَانِ، وَيُحِيطُ رَأْسُهَا بِشَارِبِ أَسْوَدَ وَفِي أذُنَيْهَا
وَمِطْرَفُ أَنْفِهَا أَقْرَاطُ نُحَاسِيَّةٍ مُسْتَدِيرَةٌ..

- نِيجُوزِي!!

نَظَرْتُ لِي بِاسْتَفْرَابٍ وَاقْتَرَبْتُ مُحَاوَلَةَ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْإِوْزَةِ الَّتِي
تَقْبِضُ عَلَى جَنَاحَيْهَا بَيْنَ أَصَابِعِهَا السَّمَرَاءِ..

- نَجِيَّةُ يَا سَيِّدِي!! مَحْصُورَتُكَ نَجِيَّةُ..

- أَنْتِ بَتَكَلَّمِي عَرَبِيًّا!! إِيَّاهُ الَّذِي جَابَكَ هُنَا؟

رَمَقْتَنِي بِقَلْقٍ مَمْزُوجٍ بِشَفَقَةٍ قَرَأْتَهَا فِي عَيْنِهَا مَرَّةً فِي

بَيْتٍ عَوْنِي..

- مَتْنِي جَوَّةَ مُسْتَظْرَاكَ..

- مَتْنِكَ مِين؟

!!!...-

- مِين السِّتِ اللَّيِّ عَدَّتْ هِنَا دَلُوقَتْ؟

- دِي بوز الإخص..

قَالَتَهَا بِخَجَلٍ قَبْلَ أَنْ تَسْتَكْرِ قَوْلَتَهَا وَتَبْتَعدَ إِلَى رُكْنٍ فِيهِ بَابٌ صَغِيرٌ، دَلَّغَتْهُ وَاخْتَصَّتْ، صَعَدَتْ الدَّرَجَاتِ الْخَشْيَةِ حَيْثُ أَشَارَتْ وَدَفَعَتْ الْبَابَ بِرَفْقٍ، الشَّمْسُ كَانَتْ تَعْبُرُ الْمَشْرِيقَ رَاسِمَةً عَلَى الْأَرْضِ خُطُوطًا مِنَ الضَّوءِ وَمُرَبَّعَاتٍ صَغِيرَةً، شَجَرَةُ الْكَافُورِ الْوَارِقَةُ تَتَوَسَّطُ صَحْنِ الدَّارِ ثَابِتَةً السَّقْفِ، تَصْنَعِي بِوُجُودِهَا حُرْمَةً وَقُدْسِيَّةً، لَمَحَتْ الْقُلُلُ بِجَانِبِ الْمَشْرِيقِ تَشِعُّ بِرُودَةٍ، لَوْ كَانَ رَيْقِي جِيرًا حَيًّا لَشَرِبْتُ، يَبْطَأُ شَدِيدٌ لَمْ أَمْلِكْ تَسْرِيْعَهُ اقْتَرَبْتُ، رَفَعْتُ عُتْقَ الْقَلَّةِ إِلَى فَمِي وَرَغَمَ الْبُرُودَةِ وَالنَّدَاوَةِ لَمْ يَنْزِلْ مِنْهَا شَيْءٌ، لِسَانِي تَحْتِيطٌ جَفَافًا كَحُصْفُورٍ مَيَّتٍ، وَضَعْتُهَا فِي الصَّبِيْنَةِ وَالتَّخْتُ لَصَحْنِ الدَّارِ أَتَأَمَّلُ، الْبَابَ الَّذِي دَخَلْتُهُ مِنْ قَبْلِ كَانَ مُوَارِبًا، صَوْتُ الدَّنْدَنَةِ يَسْبَحُ فِي الْهَوَاءِ بِلِسَانٍ انْتَوِي نَاعِمٌ، اقْتَرَبْتُ مِنَ الْبَابِ وَدَفَعْتُهُ، لَا إِرَادِيًّا طَارَتْ عَيْنَايَ لِلسَّقْفِ أَتَفْقِدُ الْخَنَافَسَ وَلَمْ أَجِدْهَا، النَّامُوسِيَّةُ كَانَتْ مُنْسَدَلَةً عَلَى عَوَامِدِ السَّرِيرِ الْعَتِيقِ، وَالرَّائِحَةُ ذَكِيَّةٌ قَوِيَّةٌ مَسْكِرَةٌ، عَبَقَ مَسَامُ اثْنِي..

قُومِي اِرْكَبِي.. قُومِي اِرْكَبِي..

سَعْدُكَ بِلَا قَبِيكَ..

جِيبي ولد.. جِيبي ولد..

أول بَكَارِيكَ..

سيدة الدار كانت تدندن فوق سريرها! تنمِيلاً كثيفاً تخنل كَنَفِي
وَرَقَبَتِي قَبْلَ أَنْ يَتَرَكَّزَ فِي فِرَاعِي الْيَسْرَى، امْتَلَأَتْ خَدْرًا لَا يَأْتِي
إِلَّا بِصَحْبَةِ ثَلَاثِ كُنُوسٍ «Absinthe» متآلية! على يساري لمحت
مرآة طويلة إطارها من النحاس، مُعلقة بِجِسمارين بين عمودين من
الأبنوس ومُوجَّهة للأرض، أَكَلَنِي الْفَضُولُ لِرُؤْيَا نَفْسِي فِي عَالَمِ الْفِيلِ
فَاقْتَرَبْتُ، مَدَدْتُ يَدِي وَقَوَّمتُ الْمِرْآةَ عَمُودِيًّا، مَا كَانَ لِكَلِمَاتٍ أَنْ تُعْبِرَ
عَمَّا اعْتَرَانِي حِينَ شَاهَدْتُ مَا عَكَّسَهُ سَطْحُهَا، تَبَاطَأَتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِي
فِي لَحْظَةٍ، سَكَنَتْ قَلْبِيَّةٌ تَتَلَكَّأُ، تَرَاوَعْتُ مُتَخَبِّطًا فَتَعَثَّرْتُ فِي سَجَادَةٍ،
سَقَطْتُ بِيْطَاءٍ شَدِيدٍ وَلَمْ يُفَارِقِ الْإِنْعِكَاسُ عَيْنِي، أَعْرَفَهُ! هُوَ!! تَقَابَلْنَا
مِنْ قَبْلِ فِي غُرْفَةِ الْعِزْلِ، اعْتَصَرَ رَقَبَتِي وَهَدَّنِي بِحَبِّ شَدِيدٍ إِنْ لَمْ آتِ
بِالْقَمِيصِ سَأَتَمَنَّى أَنْ أَلْقَى حَتْفِي.. وَلَنْ أَنَالَ ذَلِكَ الشَّرَفَ!! انْقَبَضْتُ
وَرَفَعْتُ كَفِّي السَّمَرَاءَ أَتَأَمَّلُ الْخَاتَمَ الْفَضِّي ذَا الْفَصِّ الْأَسْوَدِ الْمُرْتَبِعِ
وَنُقُوشِهِ الَّتِي تُشَبِّهُ الْأَغْصَانِ، لَامَسْتُ وَجْهِي الْعَرِيضَ، تَحَسَّسْتُ فَمِي
الْوَاسِعَ تَحْتَ أَنْفِي الْمُدْبَّبِ، مَسَحْتُ عَلَى جَبْهَتِي الْعَرِيضَةِ الْمُسْتَوِيَةِ
فَوْقَ حَاجَتِي الْكَثِيفَيْنِ الْبَارِزَيْنِ وَشَعْرِي الْمُنْسَدِلِ بِجَانِبِ كَفِّي!

ضَرْبَاتُ خِرَطُومِ الْفِيلِ الْأَزْرَقِ فَوْقَ رَأْسِي أَصَابَتْنِي بِعَطْبٍ.. نَفَثَ
الْجُنُونُ فِي أَنْفِي وَصَبَّ لُعَابُهُ فِي لَبِّ عَقْلِي..

يُقَالُ إِنْ كُلَّ مَنْ تَنَاوَلُوا الـ«DMT» مَشَوْا فِي جَنَازَاتِ أَنْفُسِهِمْ

قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا!!

لحظات لم أحصها ظللت مُلقًى على الأرض أحاول استيعاب
قَبْتي، مُهملاً كجثة متعَفِّنة تعافها حتى المنسور قبل أن أسمع الصوت
من خلف الناموسية ينادي بغنج قاتن:

- مامون.. مامون!!

كيف يكون حرفا الميم والثون بذلك السحر؟!

دَققت بين أعمدة السرير فرأيت جسمًا مُتلاكَ يتلوى في الفراش،
أدركت وَجْه المرأة للأرض هربًا مِنِّي واقتربت منها، الخِدر ينهشني
والدم رمال ثائرة تندفع في شراييني فتخربشها من الداخل، لعا
أصبحت خلف الناموسية قَرأت حُدود جَسدها من الفتحات الضيقة..
هي! سيدة الدار، الحورية التي نَقشت العجوز وركها، غارية تُرْقَد على
قَرش أبيض لا يُمَيِّزها عن نُصوعه سوى بهجة لحمها الوردِي البَض،
وضفيرة شعر سوداء فاحمة قد تسحب فحل ثور من قرنيه، تتلوى
بجانِبها كحِية وتتدلى حتَّى الأرض حول ساقي تعتصرها بنعومة،
لَمَحْتُ ابتسامتها ثم رأيت يدها تمتد نحوي فأزحت الناموسية وتلقَّيت
الطُعنة من رموش كالسيوف فوق عَينين هما الحياة لا جدال..

- تعال..

نادتني ولم تنتظِر، سَحَبت يَدِي فاضطجعت بِجَانِبها بِحتمية
الاستسلام لملك الموت، كَشَفْتُ عن فخذها وابتَسَمَت ابتسامة
ساحرة وهي تستعرض الوشم الذي دَقته المرأة العجوز، رسم أقرب
لخطَّين متقاطعين كحرف «X» لاتيني أطرافه الأربعة تنتهي بحرف
«ض» يصنع في المجمل شكل وردة مُبسَّطة!

نَفس شكل الوشم الذي رأيته في صورة بسمة وشريف على الشاطئ،
الوشم الذي تم سلخه من فخذها قبل أن تحلّق من الدور الثلاثين!!
ظللت أتأمل الرسم على فخذها المذهل قبل أن تباعد ما بين
ساقيهَا..

- حبيبي شايفني؟ لسه مسدودة؟؟

هنا توقفت آخر مداركي عن التحليل والتفكير، أردت أن أفق
ولم أعد أملك تلك الرفاهية، انسحبت روحي من صدري وضربني
السحر، قرأت في عيني العنبرتين رغبتى العمياء فاقتربت ولثمت
رقبتي، أنفاسها الساخنة مرت من رأسي حتى أصبع قدمي الصغيرة،
ابتسمت فذبت على شفتيها، نهشت جلدّها الأملس كجلد الأطفال
وامتنشقت رائحة أنفاسها، كأس «Blue Label» إصدار «الملك
جيمس الخامس»!

لم أعد مهتمًا بسؤال نفسي عن مكاني.. زَماني.. عن الغريب
الذي قابلته في المرأة!!

أو عن نية الفيل الأزرق وهل سيعيدني من حيث أتيت؟!

«I don't give a shit»..

فقط هي اللؤلؤة اللينة بين أناملِي أقلبها ولا أكرّث..

أستنشق مسكها وعنبرها وياسمينها..

أمنح على مقدساتها وأقبل أفعالها..

أزور كهوفها وجبالها ووديانها..

أنهل أنهار عسلها..

أبلغ بئر خلودها..

أشبع منها حتى أجوع..

هل تابعت حلقات «National Geographic» عن «الحريم العثماني»؟

أسطورة السلطان الذي مرّ على أجمل مائة جارية من كل أجناس

الأرض.. في ليلة!!

أعرف شعوره الآن تمامًا ولا فخر..

وشم الوردة ينبض على فخذها ويتلوّى! وذراعي اليسرى بدأت
ترتعش، الألم فيها والخدر تلازما، اللعنة على السُّكري!! لا بد
أنّي نهلت من نهر العسل بدون وعي! بدون أنسولين! ثواني ولم
أعد أستطيع تحريك ذراعي، نفسي تهْدَج وضربات قلبي أبطأت،
الغثيان والهبوط يلوحان في الأفق والعرق مُقدّمة منطقية لغيوبة
سُكر، اللعنة، سأموت شهيداً على ذلك الصدر! ياللعار!! نظرت إلى
وجهها أستغيث، كانت ترمقني بقلق تحوّل إلى خوف، خوف منّي
وليس خوفاً عليّ! سُخونة ذراعي تكاد تُشعل السرير من تحتنا، الهلع
استبدل الخوف في ملامحها من عُنْف حركاتي، عرقي انهمر على
صدرها وبدأت أرتج بلا إرادة، أتزلزل حتى بدأت تصرُخ من تحتي،
صوتها مزّق طبلة أذني فكتمت فمها لا إرادياً بيدي، قبضت على
رسمي مقاومة حين لاحظت ذراعها، ذراعها المرصعة بالحسنات!
أربع عشرة حسنة!! نظرت في الوجه غير مُصدّق ما أفعل!!

لماذا لم أمت في الحادثة؟

لماذا لم تفرّ الأيال الزرق مثل الديناصورات !
أنا أكنم أنفاس لبني بيدي كما كتمت أنفاس مايا من قبل !!
سيدة الدار العتيق كانت لبني !
صاحبة الوشم كانت لبني !!

شفاء الـ «Blue Label» كيف نسيت؟ كانت دائماً وأبداً شفاء
لبني !!

ألم أمرها بالذهاب وأعطيت لها المفاتيح؟

لبني كانت تختنق تحت وطأة أصابعي المتشنجة، جاهدت
لأزيع يدي عن قمها ولم أستطع، فقدت التحكم في ذراعي، فقط
الألم أحسّه يسليح رسغي سَلْحًا، وجسدي صخرة فوقها لا أستطيع
تحريكها، مُحَافِظًا على رايتي بداخلها لا أتوقف عن ذلك حصنها،
أغتنبها لا إرادياً والغيوبة تسحبني لقاع لا هواء فيه، ثوانٍ وبدأت
عيناى تنطفئان، الأصوات تخبوا، الغرفة تختفي ووجهها المُلْتَاع
يتلاشى، حتى ذراعي فقدت الإحساس بها، بحثت عنها تحت كتفي
فوجدتها بجلف قابضة على صدر لبني تعصره عَصْرًا، والوشم يخرج
من تحت إبطي ليتلوى بهدوء صانعاً رسماً أعرفه، وشم داكن يمتد
من الكف ليشتهي في الكف، تقطعه بالعرض خطوط تلف حول
الذراع كدرجات سلم، نهاية كل منها مشبوكة بما يشبه حرفي «ص»
مُعَاكسين، لم يكن ذلك سوى وشم شريف !

كان ذلك قبل أن يتلاشى كل شيء وأستلقي بظهري في قاع
بئر.. مزدومة..

انتظرت الملكين أن يأتيا ولم يفعلوا تأخرا..
سيالاني عن إلهي ورسولي وذيني ولن أجيب.. عمدا..
الجحيم يجب أن يحظى بكواير وقادة يثون اليأس في نفوس
الأجيال الجديدة..

الضوء كان قاسيا مُبالغا في شدته.. فتحت عيني على ثاني أكثر
المخلوقات شرا من بعدي.. الشمس..

لم يكن ما رأيت شمسا واحدة.. كانتا شمسين إحداهما في الشرق
والأخرى في الغرب يمحوان الظلال من حول أقدام المارة!!

كنت واقفا في نفس المكان.. أمام القرداتي المسنود على الحائط
وقرده القبيح يتقافز أمامه..

الليل الليل يا قرد الليل.. وأنا كان مالي يا قرد الليل..

قمت أستند الحائط، أتأمل القرداتي الذي ينظر لي بأستانه
الكريهة، يريدني أن أنفحه نقودا جزاء التعذيب الذي يمارسه على
طبله أذني!! لو بيدي لخرقت له الرق وخنقت قرده! ابتعدت، المارة
كانوا يتأملوني بدهشة فرفعت يدي أمام وجهي وأسرعت أتسند
سورا ضحخما لا يتهي والدوار والغثيان ينهشاني، ظللت أبتعد عن

اغنية الفرد المُميتة حتّى وَصَلت إلى بوابة في الشّور بداخلها سلّم
صّاعِد يتهي بِباب، شيءٍ خَتمِي دَفَعَنِي فَصَعَدت، سلّم طَوِيل لا نِهائِي
اعتمدت للحفظات أن نِهائِيته متّصل للسحاب، وَصَلت أمام البَاب
الخَشِيبي المُغلَق بعد عِناء، لهثت وأنا أدقّ عليه بأمل لا أفهمه، ثوانٍ
وانفتح الباب !!

- عمّ سيّد!! بتعمِل إيه هنا؟!!

- أنا مكاني هنا..

تأمّلت ذقنه التي تصل لنِصف صدره، جِلِبَابُه الأبيض والسّتره
الداكنة فوقه، الطربوش الأحمر القصير والقبّاب الجديد في قدميه!!
أخرسني وجوده فأسندني وأجلسني على كرسي من القش وتحدّث
بكلام لم أقدّر مِنه شيئاً، أذناي مغمُورتان في بحر قصّصها الأصوات
مُبهمة مُشوّشة، فقط التقطت أنه يناديني بالمأمون!! ويحدّثني باحترام
يشتي من أجله ظهره، لحظّات وتركّني ليدلف باباً جانبيّاً يقضي إلى
غرفة أخرى فتأمّلت المكان من حولي، رأيت نول حياكة، أقمشة
ملفوفة فوق بعضها ودُرَجاً للإبر والخيوط وعدداً لا نهائياً من الكتب
فوق رُغوف على الجُدُر، بصعوبة قاومت غثياني وقُمت، تمشّيت
للغرفة الجانيّة التي دلفها عمّ سيّد، كان مكفّياً على رداء يحبك فيه
تفصيلة بإبرة طويلة، اقتربت فأيقنت أنه القميص الأثري، كان جديداً
كانه صُنِع بالأمس، شعر بوجودي فابتسم قبل أن يقوم ويقرب مني
طبّقاً نحاسياً كبيراً وضعه بين قدمي، التقط ذراعِي اليسرى ثم كشف
كُم جِلِبَابِي، الوشم لم يَكُن مَوجوداً، كان هناك حرق، حرق تمشّى
على حُطوط الوشم الذي رأيته يتشكّل وأنا بين يديّ لَبَنِي، نَظَر في

الحروق قبل أن ينحني ويرفع الجلباب ويُجر دني منه، الحرق كان
ممثلاً من ذراعي اليسرى حتى أعضائي التناسلية، انسحبت روحي
إلى قدمي لما تأملت الحروق قبل أن أترنح وأسقط، أدركني الرجل
فأجلسني قبل أن يأتيني بطبق فيه دهان أحمر رائحته نفاذة، فردّه بيدين
مُرّعتين على حروق الوشم ثم مسح به بگرم قبل أن يغمس سبابته
في الدهان وهو يُردّد:

- يا هادي الهدية.. يا شافي الشفية.. يا حافظ السر في محبته..
يا مفجر الأرض ينابيع ورحمة..

ردّها ثم مدّ أصابعه وفشخ فكّي عنوة ثم دسّ أصبعه في حلقي
فلم أتمالك نفسي.. تقيأت سائلاً أصفر مخلوطاً بسواد ورائحة كريهة
يعافها كلب..

- استفرغ.. استفرغ.. كل يوم تمدّ صابعك في خشمك وتستفرغ..
فضي بطنك وأملاها مية وملح.. تتوضّى بالملح وتستنجي بالملح
وتغتسل بالملح.. الملح طاهر يطهرك.. الملح يجتّه.. يبعده عنك
سبع أيام..

ظللت أقذف ما في جوفي لدقيقة متواصلة في الطبق النحاسي
الذي وضعه بين قدمي قبل أن أحمّد.. ألبسني القميص ووضع كفّه
على صدري وبدأ يُرثّل كلمات بالكاد استوعبتها..

- يا حي يا دايم يا فتاح.. على عبدك قبة من حديد لا يفتحها
سلاح.. ولا إيليس بمفتاح.. ولا نايل النكاح.. بحق الكاف والنون..
تسحي الجنون.. وتبعد الكلب الأسود عنه ألف ألف يوم..

هدأت نسيئاً والتقطت أنفاسي قبل أن يجلس أمامي:

- أنت مَمْسُوسٌ..

!!!...-

- القَمِيصُ تَلْبَسُهُ ما يَفَارِقُكَ.. إلا على باب الكَنِيفِ تَسِيهِه في
مكان طَاهر.. ولا تَعَاشرُ الحُرْمَةَ لَيْلَةً وَاحِدَةً.. ولا يَمْسُهُ دَمٌ.. الدَّمُ
نَجَاسَةٌ.. لَغَايَةُ ما يَغَادِرُ..

- مِينِ اللّٰهِ يَغَادِرُ؟

- مِنْهَا لِلّٰهِ الْجَاهِلَةُ اللّٰهِ دَقَّتِ الطَّلَسَمُ على حَرِيمِكَ.. جَلَبْتَ لَهَا
«نَاطِلٌ» لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَيْهِ..

- نَاطِلُ !!!

- نَتَّحَاحُ سُفْلِي وَالْعِيَاذُ بِاللّٰهِ.. نَاطِلُ اسْمُهُ.. يَشُمُّ الطَّلَسَمُ وَلَوْ على
بَعْدِ أَلْفِ مِيلٍ.. يَحْضُرُ وَهَيْتِكَ كَمَا النَّائِمُ فِي مَنَاجِعِ نَوْمَةٍ.. يَتَكَلَّمُ
بَصَوْتِكَ.. وَلَوْ أَرَادَ صَوْتُهُ ما يَتَسَمَعُ.. تَرُوحُ أَنْتِ وَيَحُلُّ هُوَ..
يَلْفَ نَفْسُهُ عَلَيْكَ وعلى إِحْلِيلِكَ وَيَرْكَبُ بَيْتَ حَرِيمِكَ اللّٰهِ عَلَيْهَا
الرَّسْمُ.. وَتَضَعُهَا فِي يَوْمٍ تَلَاقِي كُلَّ شَيْءٍ اتَبَدَّلَ وَرَاحَ.. وَيَحْلُلُ لَهَا
بِيَايِكَ يَزْهَقُ الْأَرْوَاحَ..

- مَا يَا !!!

- الْقَمِيصُ هِيَ رَفَعُ هُنَاكَ.. مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ بِالْمِسْكِ وَالزَّعْفَرَانِ
يُدْرِكُ وَحِمَايَتِكَ فِي تِسْعَةِ أَرْقَامٍ.. مَا بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ.. قَوْلُهُ
الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ..

كان ذلك أكثر من طاقتي.. خَفَّتْ عيناى وشَقَّتْ رأسى صفارة
حادّة قبل أن تُميد الأرض من حولي..

ـ عطشاناً

نطقتها استغاثة فقام تاركاً القميص في حجري حين أظلمت الدنيا
من حولي وانطفأت الشُّموس..

فتحت عينيّ تلك المرّة فرأيتني سائرًا قُرب الغروب، مُرتديًا
القميص والناس نرمقني بدهشة وأسى لم أخفله، كل الأحداث
كانت تُعاد كأسطوانة مُستهلكة، مَررت بالقرديات، موكب الجمال
حاملة قُرب المياه العِملاقة، البوابة، المرأة المشنوقة، الأطفال
القذرين والذباب حول أعينهم، الشحاذين والياعين، صامير البوابة
والضروس المغروسة فيها، ابتهالات الواقفين لها متولّي.. سبيل
نفسه البيضاء، الكلب الأسود السائر خلفي، وصلت البيت ولم يزل
يتبعني، عبرت الباب فسمعت الصرير، مرّت أمامي فيجوزي، ملتأهة
ووراءها عبد أسود يركضان تجاه السلم المؤدي لباب الدار، يخطه
شديد ركضت، أهدو في بحر من حُجّين بلا طوق نجاة، الصرير شقّ
أذنيّ آتياً من خلفتها، حُرفة لُبنى! أزعجت أكتاف الخادِمت فرأيت العبد
الأسود يضرب الباب الخشبي القليظ بقدمه، شاركته الضرب بكفي
حتى اتخلع وانفسخ المزلاج فدخلت، فرحت للناموسية وأزلتها، لم
تكن لُبنى في السرير! مَسحت الحُرفة بعينيّ للحظة قبل أن تنفضني
صرخة، صرخة آتية من السُّقف! نظرت فرأيتها في رُكن فوق رأسي،
مقلوبة عارِية، بطنها مُتفخخ مُلتصق بالجدار وساقاها مُتفرجتان تجاه
السُّقف الخشبي، تُرْتجان كأنهما قربة يُفصل فيها الدُهن عن اللبّن،

وَجْهَهَا يَحْتَكُ بِأَحْجَارِ الْحَائِطِ وَشَعْرُهَا الطَّوِيلُ يَتَمَاجُ كَبَنْدُولِ سَاعَةِ
نَاحِيَةِ الْأَرْضِ بِمَسْحِ الْحَائِطِ، غَائِبَةٌ عَنِ الْوَعْيِ مُرْتَخِيَةٌ كَخَرْقَةٍ، تُفَيِّقُ
فِي يَقْظَاتٍ مَنَقَطَعَةٍ لِتَصْرُخَ، قَبْلَ أَنْ تَغِيْبَ ثَانِيَةً..

مِنْ هَوْلِ الْمَشْهَدِ رَسَمَتْ «نِيجُوزِي» بِأَصْبَعِيهَا ضَلِيلًا فِي الْهَوَاءِ
وَحَزَّ الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ رَاكِعًا عَلَى الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَفِرَّ الْخَادِمَاتُ الْبَاقِيَاتُ
فَزَعًا، صَرْخَةٌ أَخِيرَةٌ صَدَرَتْ مِنْ لُبْنَى قَبْلَ أَنْ تَهْوِي إِلَى أَرْضِ الْغُرْفَةِ
مِنْ ارْتِفَاعِ أَرْبَعَةِ أَمْتَارٍ، سَمِعَتْ عِظَامَهَا تَطْقُطُ قَبْلَ أَنْ يَكْسِيَهَا شَعْرُهَا
سِتْرًا، سَاعَدَتْنِي «نِيجُوزِي» عَلَى حَمْلِهَا إِلَى السَّرِيرِ وَسَجَّيْنَاهَا،
وَضَعْتُ أُذُنِي عَلَى صَدْرِهَا أَسْتَرْقِ السَّمْعَ فَالْتَقَطْتُ نَبْضَاتٍ تُسْتَحْيِ،
سَتَرْتُهَا بِغِطَاءٍ مَا لَبِثَ أَنْ تَسَلَّلَتْ إِلَيْهِ الدَّمَاءُ النَّابِعَةُ مِنْ بَيْنِ فَخْذَيْهَا
فِي بُقْعَةٍ تَسْبَعُ، فَقَدْتُ النُّطْقَ وَاحْتَضَتْهَا حِينَ سَطَعَتْ الشَّمْسُ فِي
عَيْنِي فَجَاءَ وَاحْتَرَقَ الْقَمَرُ..

لِسَانِي تَبَخَّرَ وَشَفَتَايَ صَارَتَا قُرَابًا..

الْأَيْشْرِبْ هَؤُلَاءِ الْكَفْرَةَ مَاءً!!

لَمَّا فَتَحْتُ عَيْنِي كَانَ اللَّيْلُ حَالِكًا سَاكِنًا، رَأَيْتُنِي أَحْمِلُ مِسْكِينًا حَادًّا
نُصْلَهُ مُحْتَدِمٌ أَمَامَ فَحْمٍ وَثَارٍ، وَنِيجُوزِي تَرْشُ الْمَلْحَ حَوْلَ سَرِيرِ تَرْقُدُ
فَوْقَهُ لُبْنَى، مَرْبُوطَةٌ فِي أَعْمَدَتِهِ تَنْظُرُ نَحْوِي بِأَسَى لَا يَوْصَفُ، وَسِلْسَلَةُ
الْفَرَّاشَةِ لَا زَالَتْ عَلَى صَدْرِهَا، فَوْقَ بَطْنِهَا الْمُنْتَفَخِ حَمَلًا!! اقْتَرَبْتُ
«نِيجُوزِي» وَنَظَرْتُ فِي عَيْنِي قَبْلَ أَنْ تَدْسَ يَدَهَا فِي مَنَبَتِ صَدْرِهَا
الْأَبْنُوسِي وَتُخْرِجَ قِمَاشَةً مَطْوِيَةً مَرْبُوطَةً فِي حَبْلِ، تَحْوِي شَيْئًا لَهُ
رَائِحَةٌ نَفَازَةٌ قَوِيَّةٌ، أَحَاطَتْ بِهَا رَقَبَتِي قَبْلَ أَنْ تَتَمَنَّمَ:

- يَا عَدْرَاءُ، يَا أَمْنَا الطَّاهِرَةَ، يَا مَلِكَةَ السَّمَاءِ، أَصْغِي إِلَى صَرَخَاتِ

أولادك المعذبين في المطهر واشفعي لهم أمام عرش القدير.. ده حنوط
 أبونا اثناسيوس وتراب من تحت شجرة مريم.. يحفظك من كل شر..
 أنهت دعواتها واتجهت للبنى قبل أن أعقب بكلمة، تُرثِّل بلُغتها
 الحبشية مهمات مبهمة! دَنوت شَاهراً سَكِينِي الملتهب، مَادت عينا
 لبنى وزاغتا هلعاً قبل أن تشيح بنظرها عني، وَضَعْتُ «نيجوزي» خِرقة
 مُبْتَلَّة على رَأْس لُبنِي وأُخْرَى جَافَةً جَدَلْتُهَا ووضعتها بين أسنانها، نَظَرْتُ
 لِي لُبنِي باستسلام فامسكت «نيجوزي» بيديها واعتصرت أصابعها ثم
 كَشَفْتُ عَنْ فَخْذَهَا، الوشم كان رابضاً ينظر لي، مليّاً بخربشات من آثار
 إزالة لم تنجح، يَتَحَرَّك تحت جِلْدِهَا كزئبق تحت زجاج، «نيجوزي»
 لم تتوقف عن ابتهالاتها، مرّت لحظات قبل أن أغرز سَكِينِي في الفخذ
 التي طالما تمنيتها، غرزت بلا إرادة وحفرت، قَشَرْتُ، أَشْوَهَ جِلْدَهَا
 وأذبح روحي، صَوْتُ سَلَخِ الْجِلْدِ مِنَ اللّٰحْمِ لم يكن لتصفه كلمات،
 صَرَخَةُ لُبنِي فُلَّتْ عَالِيَةً رَغْمَ الْخِرْقَةِ التي وَضَعْتُهَا «نيجوزي» بين
 فكيها، أَمْنَعُ نَفْسِي مِنَ النَّظَرِ فِي وَجْهِهَا الذي ارْتَسَمَتْ عَلَيْهِ علامات
 العذاب، حَفَرْتُ حَوْلَ الْوَشْمِ دَائِرَةً، أزلت طبقات من الجِلْدِ قبل أن
 تسقط الْخِرْقَةُ من فَمِ الْمُسْكِينَةِ بعد أن فقدت الوعي، دَمَهَا صَبَغَ كُلَّ
 شَيْءٍ حَوْلَنَا، كَتَمْتُ انْدِفَاعَهُ بِقِمَاشَةٍ قَبْلَ أَنْ أَخْلَعَ قَمِيصِي الذي اتَّسَخَ
 واقترب منها لأَضْمَتَهَا وأَدْفَنَ رَأْسَهَا فِي صَدْرِي، ظَلَلْتُ أَرَاقِبُ تَبَضُّاتَ
 قَلْبِهَا تَتَنَّنُ فِي وَرِيدِ بَرَقِبَتِهَا، أَشْجَعَهُ عَلَى الْإِسْتِمْرَارِ، مَسَحْتُ الْعَرَقَ
 الْغَزِيرَ الذي انساب على جبهتها واعتصرت كفها الرقيقة أَقْبَلَ أَنَامِلَهَا
 فِي اعْتِدَارٍ غَيْرِ مَقْبُولٍ، ضَمَدْتُ «نيجوزي» جَرْحَ فَخْذِهَا وَأَغْلَقْتُ
 الْبَابَ عَلَيْنَا فَأَطْفَأْتُ بِأَنَامِلِي السَّمَرَاءَ الشَّمْعَةَ الْوَحِيدَةَ التي لم تنطفئ
 وانزَلْتُ بِجَانِبِهَا تَارِكاً زَفِيرَهَا الدافئ يَكْوِي صَدْرِي..

قبل الشروق استيقظت من غفوتي ..

لم تكن بُنى بجاني ! ولا أنا في الغرفة ! كُنت واقفاً بجانب
المُشرية الكبيرة في صحن الدار الخالي والسكون طاعاً ، «نيجوزي»
بين قدمي مُسجاة على الأرض ، عيناها منقلبَتان بياضاً ، فمها محشور
فيه الحجاب الذي وهبته لي حماية ، قبضتها مُغلقة على خُصلة شعر
طويلة وعُنفها زيتة قطع حادة من الأذن للأذن !!

لم أتمالك نفسي ، رَاودني القبيء فرجعت خطوتين أخوض بجانبين
حاريتين في دُمائها ، مادت بي الأرض قبل أن أسمع ضحكة خافتة
قادمة من الفناء الخارجي ، اقتربت من المُشرية أنظر من خلال فتحاتها
فرايت البغل بجانب الحوض واقفاً وحبله مُنحل ! نزلت السلم الصغير
ووقفت أسمع المكان بحثاً ، لم تلتقط أذناي سوى وسوسة الريح
الرطبة في أوراق شجر الليمون وصوت ساق البغل اليسرى تتشجج
كل بضع ثوانٍ وتضرب الأرض بجذوتها في فرقة مكتومة ! اقتربت
منه يبطء فلاحظت عينيه المُلتهيتين وسمعت شحجه المكتوم ، في
البداية لم أتيناها بسبب الظلمة ، ثم ألمحت شعرها الطويل على الأرض
مفروشا بين أقدامه ، استجمعت أنفاسي وانحنيت بحرص أنظر أسفل
منه فوجدتها جالسة القرفصاء مُسوكة بقضيب البغل المُتشبي يد
وفي اليد الأخرى إبرة خياطة طويلة حادة ! رمقتني بابتسامة ملأها
السخرية وهي تُصهر أعصاب البغل بكفها ، الدم يرسم دائرة في
ضحاكة فخلها المُقشرة والوشم إلى الفخذ الأخرى انتقل ! يتلوى
يُبطء نُعيان يترنص ، لم أكد أستوعب المشهد حين ابتسمت لي قبل
أن تغرز الإبرة في قُضيب البغل ، شحج الأخير بصوت رهيب يملكه
الأكم قبل أن يجري بانفداع نُحوي ! ! رفع قائميه الأماميتين في هياج

شديد فأنحيت لا إرادياً مُتغادياً حدوديه والتقطت اللجام، شددت عليه بقبضتي حتى لا يتفلت، الغبار ملاً فمي الذي تلخلخت أسنانه جفافاً والبغل بعُنفوانه يذكّ الأَرْض بقدميه ويطيح بي يمنة ويسرة، آخر ما لمحت كانت لبني، تتحرك بهدوء ناحية باب الدار، فتحت وخرجت بدون أن تنظر إليّ والإبرة الطويلة بين أصابعها، كان ذلك حين تلقّيت الرُفّة في فمي فأشرقت الشمس دفعة واحدة..

الفرداني.. السور اللانهائي.. قافلة الجمال.. البوابة.. الضروس المغموسة في شقوقها.. الابتهاالات.. يا متولي يا متولي.. اشفع لي وخفف ألمي.. الشمس تحرق عيني والفرق يُطفئها قبل أن يحرقها مُجدداً بيلحه! أسراب الذباب تُحاصر وجهي وتلتصق.. وجهي المختوم يخاف بغل! ثعبان كبيرة للبغل الأزرق والفيل الأزرق والذباب الأزرق..

عطشان..

لساني: خمسة أميال مُرتبة في الصحراء الغربية شهر يولية ١١

الرجال يُحيطونني في دائرة.. ينظرون لي والأسى في أعينهم ويربتون على أكتافي.. الأطفال حليقو الرؤوس يتقدمونا مدارين ممساتهم بكفوفهم القدرة والنساء من خلفنا مُتَشجعات بالسواد ينحبن نحيباً كثيباً..

يا ورد في الإبريق..

يا نصر عالي ما كملوش تزويق..

حزني عليك يا اللي انطردت بعيد..

سيرت بينهم بلا إرادة.. المسافة لم تكن طويلة حتى ضفاف
النيل.. نهر يكر بلا كورنيس ولا سور ولا كباري تعبر من فوقه.. فقط
المنحدر الترابي فالطمي ثم المياه النائرة.. المشهد كان مهيباً.. جموع
من البشر يقفون في خشوع على الضفاف كتمثيل شمع مُستظلة
من الشمس بفروع الشجر.. النساء من خلف البراقع منكلمات
حول بعضهن كالخنافس.. وصبية من مُختلف الأعمار يجلسون
كالقُرود فوق جذوع الأشجار حاملين بين أيديهم قطعاً وكِلاياً
صغيرة.. مينة!

قرب النهر كان هناك فصيل مُختلف.. رجال ذوو هبة يرتدون
سراويل فخمة في وسطها أحزمة عريضة تحتضن سيوفاً لامعة..
يحيطهم عيّد أشداء أنوفهم مثقوبة بحلقات نحاسية.. بجانبهم شيوخ
مُسنون يقفون بخشوع في قفاطين الأزهر الزرقاء..

لما اقتربت زفتي توقف نقيب الحريم.. وقف من كان جالساً
والثقت من كان واقفاً.. ساعدني المحيطون في نزول المنحدر
الترابي.. اخترق جموع بشر بناملونتي كنجم فوق البساط الأحمر
نودي اسمه لينسلم جائزة أفضل سيكر.. يحملون في وجهي بمشاعر
اختلط فيها الفضول بالشفقة..

حين انغرزت قدمي في الطمي انحنى عليّ رجل والتقط بُلغتي..
أمنلني آخر ودمس ثالث مُصحفاً في يدي وربت على كتفي تشجيعاً
قبل أن أصل لعجوز مهيب الطلعة يرتدي عمامة عظيمة فوق رأس
سمين ولغد متفخ متهدل.. يحمل بين يديه ورقاً أصفر ملفوفاً وعصاة
فيها شعار لم أتيّنه.. نظرت للنهر فلمحت المركب الخشبية الصغيرة

تتهادى فوق مَوْجِه.. مربوطة بحبل إلى صخرة.. تُحوّل على ظهرها
انثى مُغطّاة الرأس تجلس على رُكبتيها مُكبّلة اليدين خافية القدمين..
بجانبيها عبد مُلثم عاري الصدر.. أدهشني المنظر قبل أن يتزعمني
العجوز السمين من سُرودي حين صاح بصوت عالٍ:

- كُل حُرمة في حجرها عيل تروح.. والرّجال يمتنعوا
عن الكلام..

قالها قساذ صمت بليغ قبل أن تتعد النساء الحاضنات لمسافة
نسمع بالمتابعة من بعيد ففتح الرجل أوراقه وبدأ يقرأ ما فيها:

- بِسْمِ اللّهِ الَّذِي لَا يُضَارُّهُ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ.. بِسْمِ وَلِيِّ النُّعْمِ عَزِيزِ مِصْرَ وَالسُّودَانِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ
مُحَمَّدُ عَلِيٌّ بِأَسْمَاءِ الْحَمْدِ لِلّهِ عَلَى مَا جَدَّدَ لَنَا مِنَ النُّعْمَةِ التَّامَّةِ، وَنَسْمَعُ
بِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ الْعَامَّةِ، فَاسْتَأْنَسْتُ النُّفُوسَ إِلَى اسْتِمْرَارِ عَوَائِدِهَا، إِذْ
كَانَتْ غُلُظَةً مِنَ الدَّهْرِ فَاسْتَدْرَكَهَا، وَإِنْ كَانَتْ سَقُطَةً بَدَتْ عَنْهُ فَمَا
تَرَكَهَا، فَفَرَّتْ بِذَلِكَ الْعَيُونُ، وَتَحَقَّقَتْ فِي بُلُوغِ الْأَمَالِ الظُّنُونُ وَالْحَمْدُ
لِلّهِ، وَبَعْدُ؛ قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.. فليعلم الجمع أننا اجتمعنا اليوم لتوقيع القصاص
على ظالمة لنفسها ومُفسدة للحياة باعثة روحها وجسدها للشيطان..
قُتِلَتْ مِنْذُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لَيْلَةً ثَلَاثَ ضُحَايَا أَبْرِيَاءِ أَسْمَاءُ هُمْ:

سَيِّدُ رِضَا عِبَادِهِ «خياط»، نَجِيَّةُ مِيكَالِ «خادمة حبشية»، وَبَجْنِينُ
عَجِيبِ الْخِلْقَةِ كَانَ فِي رَحْمِهَا..

عَلَا الصُّرَاخُ وَالنَّوَاحُ بَيْنَ أَهَالِي الضُّحَايَا وَارْتَفَعَتِ الْهِمَمَاتُ فِي
الْمُحِيطِينَ فَجَحِظَتِ عَيْنَا الرَّجُلِ غَضَبًا وَصَرَخَ:

.. الصمت وإلا تُستبعدوا..

انكتمت الأفواه وانلغنت أسر الضحايا أحياء فساد الصمت ليكمل
الرجل:

.. تم توقيفها بجانب سبيل السيدة نفيسة البيضاء معدومة الحياء كما
ولدتها أمها، وتم حبسها في ثمن الجمالية، وبمعرفة زوجها أقربائها
مُذنبه وخملت في أحشائها سيفاح الشيطان، وبتعذيبها اعترفت بذنبها
فصدر الحُكم بالقصاص منها خنقاً ثم تغريقاً في مياه النيل بمفاوضة
مختومة من ناظر ديوان ضبط الأمن، والله غافر.. والسلام..

مع الكلمات الأخيرة لروح الرجل بعصاته التي ميزت فيها هلاًلاً
يحتضن ثلاثة نُجوم، أشار بها للعبد الواقف في المركب فأنحنى
ليمزق ملابس الساجدة بين قدميه، عرى ظهرها لتظهر ضربات
سياط حَفَرَت جِلدها بخطوط سِكَك حديد مُتداخلة، تحرّكت بوهن
فأدار وجهها للجموع ولم تكن سوى لُبنى! العَيْنان أُغْلِقتا بورم
بنفسجي كبير والشفاه التي قبلتها من عشر سنين تمزقت، لَمَّا نويت
الصُراخ وجدت أعصابي قد انفصلت عنوة عن جسدي، عَقَلِي
قُبُطَان يَأْمُرُ وَجِسْمِي بِخَارٍ مُتَمَرِّدٍ يَأْبَى الْخُضُوعَ، مَحْبُوسٌ أَنَا فِيهِ
كسجين عروسة تعذيب حديدية من القرون الوسطى، أشاهد الدنيا
من فتحتين ضيّقتين تغميهما الشمس، صَرَخْتُ ولم يسمعني أحد
حين فَلَكَ العبد حبل المركب وبدأ يبتعد عن الضفّة، مَسَافَةً كَافِيَةً
عن الناس الذين اقتربوا وبللت المياه جلايبهم، حينها تبحتان عني
بهستيرها بين الوجوه ولا أقوى على رفع يديّ ملوحتا لها، ضربت
قضبان زنزاني بهستيرها مُحاوِلاً فتحها حين توقفت المركب على

نساقة عشرين مِثْرًا، تَكَثَّرَتْ عِظَامُ ذِرَاعِي أَلْفَ قِطْعَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنْحَنِي
 الْعَبْدُ عَلَى جَسَدِ ابْنِي الرَّاكِعِ وَيُنْهَضُهَا، اسْتَقَامَتْ بُوْهْنٌ وَيَأْسٌ تَرْتَجِعُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ الْجَبَارَتَيْنِ، الْمِسْكِينَةُ لَدَيْهَا طِفْلَةٌ يَا لَعَيْنَ!! صَرَخْتُ، لَمْ
 تَخْرُجِ الْكَلِمَاتُ مِنْ فَمِي! أَعْيُنُ الْجُمُوعِ تَلْهَجُ بِالْإِنْتِقَامِ وَالْأَطْفَالُ
 يَخَاحِظُونَ فِي جَشَعٍ يُسَجِّلُونَ حَدَسًا لَنْ يَنْسُوهُ! لَفْظْتُ خَنْجَرَتِي
 مِنْ طَوْلِ صَرَاخَةٍ يَشْسُ أَطْلَقْتُهَا حِينَ لَفَّ الْعَبْدُ جِلْدَهُ دَاكِنَةً حَوْلَ رَقَبَةِ
 ابْنِي، وَبَدَأَ يَعْتَصِرُ، جَحَظْتُ عَيْنَاهَا وَاحْتَقَنَ وَجْهَهَا فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي
 مِيزَتْنِي فِيهَا مِنْ بَيْنِ الْوَاقِفِينَ، فَتَحَتْ فَمَهَا تَسْتَجِدِّي هَوَاءً وَتَنَادِينِي
 بِلَا صَوْتٍ، يَدَاهَا الْمَرْبُوطَتَانِ تَتَحَرَّكَانِ فِي صَخَبٍ وَالْخَبِيلُ غَلِيظٌ
 يَحْبِسُهَا، اللَّعْنَةُ!! الْعَجْزُ وَالْقَهْرُ اغْتَصَبَانِي فَرَكَلْتُ حَوَائِطَ زَنْزَارَتِي
 حَتَّى أَدْمَيْتُ قَدَمِي وَسَقَطَتْ عَلَى رِكْبَتِي فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي سَقَطَتْ فِيهَا
 ابْنِي بَيْنَ يَدَيِ الْعَبْدِ، تَشَنَّجَتْ حَرَكَتُهَا مَرَّتَيْنِ وَانْقَبَضَتْ عَضَلَاتُهَا قَبْلَ
 أَنْ تَنْقَلِبَ حَدَقَتَاهَا ثُمَّ تَخْمَدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ!

انْقَضَتْ لَحْظَاتٌ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الْجِلْدَةُ مِنْ حَوْلِ رَقَبَتِهَا وَيَضَعَ كَفَّهُ
 أَمَامَ أَنْفِهَا لِيَطْمِئِنَّ عَلَى إِتْقَانِ عَمَلِهِ، ثَوَانٍ لَمْ يَشْعُرْ فِيهَا بِحَرَارَةِ أَنْفَاسِهَا
 الَّتِي أَقْدَسَهَا فَتَرَكَهَا لَتَسْقُطَ بَيْنَ قَدَمَيْهِ!

عَلَتْ الزَّغَارِيدُ وَهَتَافُ الرِّجَالِ وَرَمَى الصُّبْيَةُ بِالْقِطْعِ وَالْكَلَابُ
 الْمَيْتَةُ فِي الْمِيَاهِ حِينَ صَرَخَ رَجُلٌ دِينَ: «انْظُرُوا عَاقِبَةَ الْمُفْسِدِينَ...»،
 وَصَاحَ آخَرُ: «إِلَى جَهَنَّمَ وَيَشْسُ الْمَصِيرُ»، كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْحَنِي
 الْعَبْدُ لِيُرْبِطَ سَاقِي صُحْبَتِهِ فِي حَجَرٍ وَيَحْمِلَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ بَعْدَ أَنْ
 وَضَعَهُ فِي حَجَرِهَا، نَاطِلًا لِلنَّاطِقِ بِالْحُكْمِ الَّذِي أَشَارَ بِإِبْهَامِهِ إِلَى
 أَسْفَلٍ فَهَاجَتِ الْجُمُوعُ تَشْفِيًا وَتَعَالَى عَوِيلُ النِّسَاءِ قِيلَ أَنْ يُلْقِيَهَا
 الْعَبْدُ فِي النَّهْرِ!

غرفت لبنى!

سحبها الحجر للقاع، شعرها الطويل صنع دَوامة صغيرة ما لبثت
أن تلاشت ليعود المَوج لا يضطرابه! غاصت حتى عانقت طمي القاع
في اللحظة التي ارتطم فيها جسدي بأرض الزلزلة وحل السكون! امتلأت
رثائي بالمياه وغمرني الطمي، ولم أقاوم، أخيراً، فقدت
الرغبة في الحياة، لم أكن أعرف أن الموت قد يكون بتلك السهولة!
لم أكن أعرف أنني أفتقد ابنتي بذلك الشكل!! ولم أتخيل يوماً أنني
قد أنسى وجه زوجتي!! نرمين..

احتجت ثانيتين لاستوعب ملامحها! كانت جالسة بجانبني
تحتضن نوراً، تنظر لي بشفقة تحولت تدريجياً لابتسامة خائفة
شجعتني أن ألامس كف ابنتي، يا الله!! لا أصدق أنني احتضنت
تلك الأنامل الصغيرة!! ابتسمت كلبتي الصغيرة بأسنانها اللؤلؤية
ونُغزتين، الدنيا مقارنة بهما جذاء بال غير مأسوف على ضياعه،
جُفوني تستبقي الزمن، تحجزه خشية أن يمر، تأبى حتى أن ترمش
فأخسر لحظة بجانبهن، لَمَحْتُ شفتي زوجتي تتمتم بكلمة تردد
صداها في عقلي:

.. اهدا يا يحيى.. اهدا..

قالتها وابتسمت فهزرت رأسي غير مُصدِّق رَحمة لم أظنها
آتية، تزايد الألم في صدري ولم أبال، أبطأت نبضات قلبي حتى
بدأت ملامحهن في التلاشي تدريجياً قبل أن تُظلم عيناى، فالعين
تموت قبل الأذن دائماً، وآخر ما سمعته كان نحيباً مُختلطاً بهدير
مياه النهر:

يا وَرد في الفَنجان..

يا قَصْر عَالِي ما كَمَلوْش بُنيان..

والموت صَحِيح..

بس الفُراق صَعْبان..

•

درجة الحرارة، 102°C ..

حين فتحت عيني تلك المرة لم أر قرداتي ولا بوابة، لم أر أطفالا
ولا شحاذين، لم أسمع ابتهالات ولا تبعني كلب أسود..

مُلقي على جانبي مكثوف اليدين خلف ظهري على أرض حَجَرِيَّة
صلبة في حُجْرَةٍ عَرْضُهَا متر وارتفاعها متر وطولها متر ونصف
الرُّطوبَةُ تُحَاصِرُنِي بِسَادِيَّة، وَالظَّلَام ليل قاسٍ لا يَشْقَهُ سِوَى نُصْلِ
ضوء تسلل من فَتْحَةٍ في باب حديدي ليضرب الأرض في نقطة
ساطعة، الأكم في ظهري سِيفٌ غُرَزٌ بِجَانِبِ عَمُودِي الْفَقْرِي وَالتَّمِيلِ
خَلْرُ الْأَطْرَافِ، الْعَرَقُ يَنْهَمِرُ مِنْ كُلِّ خَلَايَا جَسَدِي لِيَسْتَهِيَ فِي عَيْنِي
حَرَقًا وَاتِّقَامًا، وَالْعَطَشُ مُخْتَثٌ كَافِرٌ مِنْ نَسْلِ زِنَى مُحَارَمٍ، مَزَقٌ شَفَتِي
وانتهك حُرْمَةُ لِسَانِي!

تَطْلُبُ الْأَمْرَ مِنِّي لِحِظَاتٍ لِأَسْتَوْعِبَ الْفَقِيرَ الَّذِي دُفِنْتُ فِيهِ، أَتَشْرُ
أَنْفَاسِي الْمُسْتَهْلَكَةَ وَأَحَاوِلُ الْإِعْتِدَالَ فَلَا أَسْتَطِيعُ، يَبْدُو أَنَّ الْفِيلَ
قَدْ جَلَسَ فَوْقِي، سَحَقَنِي وَتَبَرَّزَ عَلَيَّ، ثُمَّ دَفَنَنِي عَلَى عُمُقٍ لَنْ تُجِدَهُ
الْبَحْثَاتُ الْأَثَرِيَّةُ! اتَّابَتَنِي رَعِشَةٌ لَمَّا شَعُرْتُ بِحَشَرَاتٍ تَتَحَرَّكُ مِنْ تَحْتِي،
وَصَرَ صَارَ لَا مَسَّ شَوَارِبِهِ أَذْنِي، انْتَفَضْتُ وَتَحَامَلْتُ ثُمَّ ضَرَبْتُ الْبَابَ
بِقَدَمِي، صَوْتُ الْحَدِيدِ جَاءَ مَكْتُومًا وَالْمَنِي كَعْبِي، ضَرَبْتُ مَرَّةً أُخْرَى

ومزات حتى صرّخت، صرّخت كمالم أصرّخ من قبل، صرّخت حتى
ضاع صوتي، وهنت ودبّ اليأس في أوصالي قبل أن التقط بأذني
وقع خطوات تقترب، نمشي بصخب على رمال، صوت مفتاح يولج
في الباب، ضوء شمس طاع شوى خلقتي فأغمضت قسراً، ثم يدا
غليظة التخطت السلسلة الغليظة المربوطة فيها رقبتي، جلبتني بعنف
تحت شمس لا ملة لها، استقرّ وجهي فوق رمال ملتهبة، شهقت نفساً
عميقاً ابتلعت معه الرمال قبل أن تقلّبي اليدين الغليظة كسمكة في
الزيت، ظهري فوق ذراعي جاثم بثقله يمنعني من الحركة وحيناي
في مواجهة الشمس، فتحتها بصعوبة فسالت منها دموع وزيد أبيض
وصديد، لحظات وبدأت أميز معالم رّجل عملاق يقف فوق، يرتدي
سروالاً بنياً يصل لركبتيه، قابضاً بكفه على عصاة غليظة ويحيط
برأسه قفص حديدي صدى!!

رأيت صورهم من قبل في كُتب تاريخ الطب، كانوا يحتمون
بالأقفاس كخوذ تقيهم بطش المجانين.. أمثالي..

أنا في مستشفى!

مستشفى أمراض عقلية! في وقت ما!

- له يلدب على الباب؟ سألني..

- أنا فين؟

- مارستان قلاوون..

- قلاوون!! مية.. عطشان..

- السقا لسه ما جاش..

- الخَمَام.. دورة المِية!

قَبَضَ عَلَى السِّلْسِلَةِ الْمُتَدَلِّيةِ مِنْ عُنُقِي وَأَنْهَضَنِي، سَحَبَنِي
كَالْخُرُوفِ وَقَدَمَايَ تَجَرَّجِرَانِ خَلْفِي مُجَاهِدًا لِمَلَا حَقْنَتِهِ، قَطَعْنَا عَرْضَ
الْفِنَاءِ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ وَصَلْنَا لِبَابِ تَسْرِبَتٍ مِنْ تَحْتِهِ رَائِحَةُ خُطَايَا
الْبَشَرِ، قَرَعَ الْبَابَ بِيَدِهِ الْجَبَّارَةِ فَخَرَجَ نَزِيلٌ يَرْتَجِفُ، أَعْطَى ظَهْرَهُ
لِلْحَارِسِ فَكَبَّلَ أَكْمَامَهُ الطَّوِيلَةَ خَلْفَ ظَهْرِهِ ثُمَّ أَطْلَقَهُ فِي الْفِنَاءِ قَبْلَ
أَنْ يُدِيرَنِي لِيَفْكَ أَكْمَامِي، حَرَّرَ ذِرَاعِي وَلَمْ أَشْعُرْ بِالْيَسْرِ، كَانَتْ فِي
أَفْوَاهِ قَبِيلَةٍ مِنَ النَّمْلِ تَنْهَشُهُ، دَخَلْتُ مُقْلَصًا أَنْفِي مَانِعًا رَائِحَةَ الْجَحِيمِ
مِنْ اقْتِحَامِهَا، الذُّبَابُ الْهَائِمُ جَعَلَنِي أَتْسَاءِلُ لِمَ اصْطَلَحَهُ «نُوحٌ» فِي
سَفِينَتِهِ؟! بِصَعُوبَةٍ حَاوَلْتُ نَزْعَ الْقَمِيصِ مِنْ حَوْلِ جَسَدِي، لَمَّا انْزَلَقَ
مِنْ فَوْقِ كَتْفِي نَظَرْتُ لِلْوَنِيِّ، السُّمْرَةُ كَانَتْ طَاغِيَةً!

لَا زِلْتُ مَسْجُوتًا فِي جَسَدِ الْمَأْمُونِ!! جَسَدِ الْمَلْعُونِ..

رَفَعْتُ ذِرَاعِي الْيَسْرَى وَلَمْ تَسْتَجِبْ، نَظَرْتُ إِلَيْهَا فَلَمْ أَجِدْهَا!!
الْعَصْدُ كَانَ مَبْتُورًا مِنْ قَبْلِ الْكُوعِ، فِيهِ اخْتَلَطَ اللَّحْمُ وَالْعِظَامُ أَنْحَسَتْ
بِأَنَامِلٍ مُرْنَعِشَةٍ قَبْلَ أَنْ تَنْسَحِبَ رُوحِي إِلَى قَدَمِي وَتَزُرُقَ الْجِدْرَانِ مِنْ
حَوْلِي، سَحَبْتُ نَفْسًا عَطْنًا فَتَحَفَزَ الْقَيْءُ، أَفْرَغْتُ عَلَى الْأَرْضِ صَفَارًا
وَسَوَادًا وَدَوَا يَتَلَوَّى! قَرَعْتُ الْبَابَ الْخَشَبِيَّ بِمَا تَبَقِيَ لِي مِنْ قُوَّةٍ فَفَتَحَ
الْحَارِسُ، ارْتَمَيْتُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ عَاجِزًا عَنِ النَّطْقِ، قَلْبِي يَنْقَبِضُ فِي
سُرْعَةٍ مُعْتَصِرًا حُجْرَاتِهِ، خَلْفِي يَتَشَقَّقُ مُبْعَثِرًا التُّرَابَ وَكَتْفِي الْيَسْرَى
يَخْتَرِقُهَا يَطْءُ خَشَجَرٌ مَسْنُونٌ!

أَنَا أَعَاتِي أَرْمَةِ قَلْبِيَّةِ!!

أَهْتَزُّ..

اتشّج..

اتبعر..

أبوللو ١ هل تسمعني؟

أبوللو ١ أجِب..

هناك رائحة دُخان..

النار اشتعلت في الكابينة..

أكرّر: هناك حريق في الكابينة.. هناك حريق في الكابينة..

اللعنة.. نحن نحترق.. نحترق..

تشوّشت الأصوات في رأسي وارتجت الدنيا قبل أن تنطفئ
الشمس وتُخمد أنفاسي بغتة..

لحظات وهوت القبضة على صدري..

فوق قلبي مُباشرة..

تبعثها ضربة أخرى.. ثم ضربة إضافية رأيت بعدها السقف..

سقف غرفتي!!

لُبني كانت جاثبة على ركبتيها تحتضن رأسي بكفيها في فزع،
نادتني مرّتين فأبى صوّتها من مسافة كيلومتر، فتحت فمي لأتكلم
فسعلت شهقاً قبل أن تُساعدني على الجلوس وتناولتي زجاجة ماء
باردة، بوهن تجرّعت الزجاجة كلّها وأغرقت شفّتي ثم رأسي، لكن
الماء بالنسبة لي كالماء للزهور الصناعية، غير مُقنع ومبتذل!

- أنت كويسة؟

- ...!! أنا اللي كويسة؟

- فيه إزازة بيرة في التلاجة.. عطشان..

رمقتني باستغراب قبل أن تعود بالزجاجة المثلجة، رَفَعَتْهَا وَتَرَكْتُ
الشعير يتولَّى رَابِ الصدوع في حلقي وشفتي، اتَّخَذْتُ لحظات
لألتقط أنفاسي قبل أن أنتفض لا إرادياً وأتحس ذراعي، كانت في
مكانها تحت كفتي، نظرت لساعة رُسْغِي فوجدت العقرب الكبير
قد تَمْشَى قُطْر الساعة!!

- أنا بقي لي قد إيه!!

- بقي لك ساعة..

- مش ممكن!

- هو ده اللي حصل..

- أنت ماروحتيش؟

- ما قدرتش.. فضلت برّء.. مسكت نفسي بالعافية ساعة ويعدين

سَمِعْتَ هبدة.. فتحت الباب.. لقيتك على الأرض..

- أنا مش قلت لك مهما حصل...

قاطعتني:

- ما قدرتش..

تعاملت لأقوم ومساعدتني.. انتصبت أمام المرأة أتأمل وجهي

والقميص الذي تخضب نصفه السفلي بلون أحمر باهت

.. مساعديني ..

رفعت القميص المتهري من فوق كتفي وتشممت البقعة الشاحبة
ولم أجد لها رائحة!!

- أنت اتعورت؟

- مش عارف! مش حاسس بحاجة..

دارت حولي تتأمل جسدي ثم أردفت..

- مافيش جرح!! إيه اللي حصل؟

- مش هاتصدقني..

التقطت الكاميرا من فوق التسريحة وضغطت زر الإعادة ثم
جلست على السرير وجلست بجانبني، في الفيديو مشيت حتى المرأة
بيطء قبل أن أقف، بلا حركة، لساعة كاملة!! مفتوح العينين مُتهدل
القم أحرق في فراغ المرأة، لقطة فوتوغرافية ثابتة! فقط أنفاسي
البطيئة تهز صدري، في الدقيقة السابعة فتح الهواء الشباك وطار
بعض أوراق الشجر إلى الداخل، التفت للشباك فوجدته مغلقا وإن
كانت هناك أوراق شجر على الأرض! ثوانٍ ودخل صرصار عظيم!
زحف على زجاج الشباك صاعدا ثم قرد أجنحته الجافة وطار في
الغرفة دورتين ليستقر فوق عذسة الكاميرا، تمشى فوق زجاجها
ومسح رجليه المشعرتين ببعضهما قبل أن يطير ليقف على كتفي،
اقشعر بدني لما زحف على رقبتني وداعب شحمة أذني بشواربه
الطويلة، استقر لحظات ثم تسلل إلى كم القميص واختفى بداخله،
لحظات من التيس مَرَّت بي قبل أن يُداعب الهواء الشباك فيُغلقه
حين سقطت في الدقيقة الأخيرة على الأرض كالمكواة!

ثواني ودخلت أبنى في الكادر..

قُمتُ تَفَرُّزًا أَتَفَحَصُ الْقَمِيصَ ثُمَّ مَلَابِسِي بَحْثًا عَنِ الْبَنِي ذِي الْأَرْجُلِ
الْمَشْعُورَةِ وَلَمْ أَجِدْهُ، الْأَفْكَارُ مُحْتَشِدَةٌ مُزْدَحِمَةٌ فِي رَأْسِي أَذْهَبُ وَأَتِي
بَيْنَهَا كَطِفْلٍ نَائِمٍ، مَرَعْتُ لِحَوْضِ سَمَكِي الْعَزِيزِ وَلُبْنِي وَرَائِي فَاقْدَةُ
النُّطْقِ، أَيْمَنْتُ عَنْ قُصَاصَاتِ كِتَابِ «الْجَبْرِتِي» الْمُهَيَّرَةِ الَّتِي وَجَدْتُهَا
وَرَاءَ الْمَكْتَبَةِ فِي شَقَّةٍ شَرِيفٍ، فَكُتِبَتْ بَعْضُ الْكَلِمَاتِ بِصَعُوبَةٍ:

«وَفِي خَمَاسٍ عَشْرِينَ قَبَضُوا عَلَى امْرَأَةٍ سَرَقَتْ أَمْتَةً مِنَ الْحَمَامِ
وَسَنَقَرُهَا عِنْدَ بَابِ زَوِيلَةٍ، وَانْقَضَتْ هَذِهِ السَّنَةُ وَمَا تَجَدَّدَ بِهَا مِنْ
الْحَوَادِثِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا أَنَّ شَرِيفَ أَقْنَدِي الدَّقْتَرْدَارِ...».

قَفَزْتُ السُّطُورَ وَمَشَّهَدَ الْمَرْأَةِ الْمَشْنُوقَةِ فِي الْبَوَابَةِ بِلِسَانِهَا الْمَتَدَلِّي
وَعَيْنَيْهَا السَّائِلَتَيْنِ لَا يَفَارِقُنِي..

- يَحْيَى فَهْمَنِي حَاجَةً..

- لِحِظَةٍ وَاحِدَةٍ يَا لُبْنَى..

رَجَعْتُ بِعَيْنِي صَفْحَاتٍ حَتَّى صَفْعَنِي سَطْرٌ تَحْتَهُ خَطٌّ:

«فِي الْأَرْبَعَاءِ سَابِعِهِ نَقِلُ الْخُتَى فِي امْرَأَةٍ بِحُضُورِ زَوْجِهَا وَيُدْعَى
الْعَامُونَ مَعَ مَنْ حَضَرَ، وَهُوَ الَّذِي أَرْشَدَ عَنْهَا، وَكَانَتْ قَدْ ذُبِحَتْ
خِلَامَتُهَا وَخِيَاطُهَا وَجَنِينًا فِي أَحْشَائِهَا يُشَبِّهُ خِلْقَةَ الْكَلْبِ مِثْلَ وَجْهِهِ
وَأَفْتِيهِ وَلَهُ ثَلَاثَانِ خَارِجَانِ مِنْ فَمِهِ، أَخْرَجَتْهُ بِإِيرَةِ طَوِيلَةٍ وَمَرْقَتِهِ، وَكَانَ
خَاضِعًا لِلْحُكْمِ «كَتَخَلَا مُسْتَحْفَظَانِ» وَمَشَايِخُ الْأَزْهَرِ، فَخُتِمَتْ فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَالْقَيْتِ فِي النَّهْرِ عَلَى مَرَايَ مِنْ لِعَالِي الْمَقْتُولِينَ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَطَعَ
زَوْجُهَا ذِرَاعَهُ تَلْعَاً عَلَى وَشَايَتِهِ بِهَا، فَلَوْدَعَ مَارِسْتَانِ قَلَاوُونَ...».

- يحيى ! أنت حلمت بإيه ؟

- ده مش حلم .. ما عنديش تفسير للي شفته .. الموضوع أكبر مما
كنت أتصور ..

- بعني إيه ؟

- شريف ممسوس يا لبنى .. ممسوس بحاجة كبيرة أوي ..
اتسعت عينها ذهولاً ودار الرعب في محجريها، أنفاسها تهدجت
فوضعت أناملها على شفيتها في توثر لم يخلُ من نظرة شك في
قدراتي العقلية ..

- إيه الكلام ده يا يحيى ؟

- الساعة دي ما كانتش ساعة .. أنا شفت كثير .. شفت حياة كاملة ..
- وإيش عرفك إن اللي شفته أيّا كان مش هلوسة ؟ القُرص اللي
أنت أخذته ده ...

- القُرص ده فتح لي منطقة محظورة مش ممكن كنت لوصل
لها .. برزخ حقيقي بين عالَمين .. القَميص واللي قرّيته في الورق
بتاع الجبرتي اللي لقيناه ورا المكبة .. كل حاجة بالتفصيل .. أنا مش
عيان .. مش عيان .. أنا بدأت أفهم اللي حصل ..

- أنت مُقتنع بمواضيع المس دي ؟

- عمري ما كنت مقتنع .. مش ضلّتها .. بس مش مقتنع .. لغاية
ما شفت بنفسي .. أنا عاوز أشرب قهوة عشان أفوق .. تعالى نخرج
من هنا .. هافهمك كُل حاجة في السكّة ..

ظَلْتُ مَغْرُوسَةً فِي مَكَانِهَا فَمَلَدْتُ يَدَيَّ إِلَيْهَا، رَمَقْتَنِي بِحَيْرَةٍ
مَشْوِيَةٍ بِتَوَتُّرٍ قَبْلَ أَنْ تَضَعَ أَصَابِعَهَا الْمَرْنَعِشَةَ فِي يَدَيَّ، خَرَجْنَا إِلَى
سَيَّارَتِهَا فَتَوَقَّفَتْ:

- أَنَا مَشْقُودَةٌ.. أَصَابِي مَشْ مَسْتَحِيلَةٌ.. مُمَكِّنْ نَسَوقِ أَنْتِ؟

تَوَقَّفَتْ الرِّيحُ وَسَكَنَ حَفِيفُ الشَّجَرِ لِيَتَصَنَّتْ عَلَيْنَا:

- أَنَا مَا بِسَوْقَشٍ مِنْ صَاعَةِ الْـ...

- عَشَانُ خَاطِرِي..

نَظَرْتُ لَهَا مَلِيًّا وَتَذَكَّرْتُ كَلِمَةَ زَوْجَتِي:

- أَهْدَا يَا يَحْيَى.. أَهْدَا..

نَظَرْتُ لِلْمِفْتَاحِ الْمُتَدَلِّيِّ مِنْ يَدِهَا لِلْحَفَظَاتِ قَبْلَ أَنْ أَسْحَبَهُ مِنْ
بَيْنِ أَصَابِعِهَا، جَلَسْتُ خَلْفَ الْمَقْرُودِ وَجَلَسْتُ بِجَانِبِي، يَتَرَقَّدُ دَسِيسَتِ
الْمِفْتَاحِ وَأَدْرَتُهُ، بَدَتْ طِفْلًا يَتَعَلَّمُ الْمَشْيَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَهْدَا يَا يَحْيَى
رَقْدَتِهَا فِي نَفْسِي، قَبْلَ أَنْ أُنْحَرِّكَ..

...«Double Hammerhead Espresso»...

لم يكن لمشروب على مستوى المقاهي أن يحتوي كل تلك النسبة من الكافيين، مشروب كافٍ ليوقط بلدة مزدحمة ليومين كاملين، وقادر على إيقاف ساعة! احتسيتُه وأنا أتأمل أوراق الجبرني التي دسستها في جيبِي قبل أن أغادر الشقة، بُني كانت شاحبة اللون تدخن بشراهة بعدما حكيت لها ما لم تُرد أن تسمعه..

- أنا مِش قادرة أستوعِب اللي بتقوله..

- ولا أنا!!

- أنت تصدّق إن تاتو مُمكن يعمل كل المصايب دي؟

- ده مش تاتو، اللي كان على جِلد مِرات أخوكي كان طَلسم، نده لشيطان احتل جسم شريف عشان يوصله للّي عليها الطلسم.

- تقصد ينام معاها؟

- من خلال جوزها.. ده يفتر اللخبطة اللي حصلت لشريف وبِسمه.. حَظّها الوسخ إن حد رَسَم لها طَلسم والطلسم جاب...

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!

- الكائن ده نام معاها، عشقها، بسمه بقت حَامِل منه وشريف
ما بقاش مَظبوط..

- يعني شريف قتل بسمه من غير وعي؟

- أو بالاتفاق..

- يعني إيه؟!

- شريف جَوّاه شيء.. شيء حابسه ويبتحكّم فيه.. يقاومه زي
ما كُنت بقاوم الشخص اللي اتحبست جَوّاه ساعة.. يقاومه وما حدش
سامعه.. أكنك محبوسة في زنزاة فيها شباك وما لهاش باب.. يشوفنا
لكن مانعه يكلمنا.. ويعذّبه لو حكى حاجة.. مش شريف اللي
يبتحرك يا لُبنى.. حدّ ثاني.. شيطان بيغييه أيام ويفوق فيلاقي كل
شيء بيتغير..

- اكته بيروح في غيوبة!

- بالظبط.. وفي يوم وليلة يلاقى مراته حَامِل.. وهو عارف
إنه مش بيخلف! حَامِل من كيان وِسخ.. وهاتولد شيء أوسخ..
مشو.. لغاية ما تيجي لحظة يعرف إن مراته رايحة رايحة منه.. مُتخيلة
يعمل إيه؟!

دفنت السيجارة في المطفأة..

- مش قادرة أستوعب الكلام ده!!

- عارف إن الموضوع غريب.. بس دي حقيقة.. أقسم لك إني

شفت حادثة الفرق في الساعة.. زي ما هي مكتوبة..

- مش يمكن تكون قرينها قبل كده و...؟

- أنا ما قرينش حاجة..

- أنت كنت شارب!

- لبنى أنا طول عمري باشرب.. المفاجأة لآني ما باسكرش.. اللي شفته حق.. والضربة اللي في وشي من البغل دي حق.. خلتنا نفكر في أخوكي..

وقع كلماتي عليها كان أقوى من أن تتحمّله، تأملت بصمة البغل على وجهي ثم أغضت عينيها المُحتقنة وتركت كتفيها ترتخيان في استسلام، مدّدت إبهامي يلامس إبهامها، احتضنه وتعلّق به كحلقة في سلسلة زكيكة.. سلسلة تكسرُها نعمة محمول!

زفرت في ملل لمارأت الشاشة وسحبت أناملها لتضع المحمول على أذنها..

- أبوة يا خالد وصلت؟ أنا مع إنجي.. لا في كافيه.. ليه بس! قول لها هاجيب لها هدية وأنا جاية بس خلّي رحمة تحميها.. أكلها في التلاجة تسخّنه.. خلاص بلاش قاصوليا.. خلّيها تحمّر لها ناجتس ويطاطس.. وبلاش كاتشاب.. أوكي.. باي..

أنهت المكالمة فشغلت نفسها بنيش مُحتويات حقيبتها دون أن تنظر في عيني..

- مضطرة أقوم..

- أنا زعلتك؟

- خالص ..

- مش حاوز أسيك وانت في الحالة دي .. أبني !!

أغمضت عينيها لناديتها، نظرت في عيني وهَمَسَتْ:

- هابقي كويسة .. ما تخافش ..

- ما كتش أحب ترتبط مقابلتي معاك في بعد السنين دي بحاجة

توجعك ..

- اسكت .. أنت أحسن حاجة حَصَلت في السنين اللي فاتت

كلها .. بس إيه الفايدة ؟!

قَدَمَها لم تكفًا عن الاهتزاز كإبريق يغلي قبل أن يتفجر ..

- أنت الوحيد اللي من دُون الناس كُلها يفهمني .. ليه ؟ ليه مش

أي حد خيروك ؟!

- فأكرة لما كنت باقول لك إني الوحيد اللي معايا كتالوجك ؟

- فأكرة .. أنا نعبت .. ساعات باجس إني مش حاوزة أصحى ..

ومش حاوزة أنام .. كفاية حليًا كده.

سكتت للحظات محاولة تهدئة نفسها قبل أن تردف:

- أنا عارفة إني بانعرف !! ما تزعلش مني.

- أنا مش زعلان.

- أمال أنت ليه ؟ اتكلم .. قول أي حاجة .. بلاش الـ (Flat)

ده اللي حاولة إن وراء كثير.

ظللت أرمقها مانعاً نفسي من الكلام قبل أن أستسلم لضعفها؟

- رَوْحِي نَامِي وَهَاجَلَمَك بِكَرَةِ أَطْمَنَك.

- أَنَا مَش بِنَام.. كَلَمَنِي إِنْ شَالَهُ الْفَجْر.

ترنحت بجاني حتى سيارتها، أغلقت الباب وريت على يديها
وطلبت منها تظميني حين تصل ثم قفزت في تاكسي أخذني إلى مصر
الجديدة، التقطت علبة «Heineken» مثلجة ستساعدني في التركيز
ثم دلفت محل «Buddha» للوشم، كان في انتظاري الفتى الطري
الغض، قام إلي بوذ مصطنع وصافحني:

- إوعى تكون لسة زعلان متتا من المرة اللي فاتت!

- المسامح كريم أنت لسة فاكر؟ قدام دييجا موجوده؟

- موجوده.. بس عندها جلسة.

- مش سامع صوت الماكينة يعني!!

مسح «اللين» أنفه..

اللمين سيخيز لي كذبة نيثة بلا دقيق ولا سمسم!!

- آآ.. هي أصلها معاها صديقة.

- أنا محتاجها خمس دقائق..

- لو ينفع تعدي علينا وقت ثاني يبقى...

- مش هينفع.

- صعب تقابلك النهاردة فعلاً.

.. أكيد؟

.. شور.. No way النهاردة..

فقرة من كتاب «طبخ لُحوم البشر».. قسم العجائز:

«لتهينة «حيوان الإنسان» للطبخ يُراعى أن يكون لين الخِلقة خاليًا من العِظام والشعر، أملس، مشكوكًا في أمره بنسبة لا تقل عن ٩٠٪، كما يجب التأكد من عَدَم وُجود أحد بالجوار، وأن صوت الموسيقى صاخب! ضعي يا سيدتي ابتسامة صفراء على وجهك ثم هُني مُصطنعة الرحيل ليطمنن لتواياك؛ قبل أن تُسددي لكمة قاسية إلى أسفل فك «حيوان الإنسان»، سيُصدر صوتًا بسيطًا قبل أن يسقط خلف مكبه المَلِيء بالهراء، قد تحتاجين إلى تسديد لكمة إضافية إذا بدت عليه إفاقة، في تلك الحالة يُستحب أن تستعيني بفازة أو تمثال رُخامي لبوذا أو مقدمة جذائك المدببة...».

أغلقت باب المحل بهدوء مُتجنبًا الأجراس السخيفة التي تتخبط لتنبه صاحب المحل أن هناك زائرًا، أطفأت نور الواجهة من زر في الحائط، ثم سَحَبْتُ «حيوان الإنسان» من قدميه دامي الأنف واللثة إلى حَمَام صَغير أغلقت بابه بمفتاح ثم توجهت إلى عُرْفَةِ الوَشم، مَسَحْتُ الدماء من قبضتي وعدلت هَيْتِي ثم فَتَحْتُ الباب بهدوء كان مُبنيًا لم يكن، بالداخل كانت السَيِّدة وَحيدة، جالسة أمام مُنضدتها مُدلية نظارتها على أنفها مُنهمكة في مُطالعة كتاب..

.. مَسَاء الخير..

انتفضت بهدوء لما سمعت صوتي والتفتت، تغيرت ملامحها حين رأتني وإن أخكمت اصطِناع اللامبالاة والاسترخاء..

نصيحة: لا تنس إبعاد يدك عن أذنك حين توارى شيئاً..
.. أهلاً وسهلاً!

.. مَعْلش جيت في وقت متأخر..

.. في العادة أنا باشتغل بمواعيد.. بس «It's ok».. اتفضل..

ماخوذة بالمفاجأة أشارت لكُرسي بجانيها فجلست إرباكًا لها
على كرسي آخر بعيدًا عن دائرة النور..
.. تشرب إيه؟

همت بالقيام لنداء حارسها الطري فعاجلتها:
.. خليك مستريحة.. طلبت منه حاجة ساقعة..
.. OK! أو مُر..

.. جاي أرسم تاتوا

.. معاك صورة؟

اقتربت منها وأخرجت صورة بَسمة وشريف أمام البحر، وَضَعَتْهَا
في رَاحَتِهَا وأنا أتفحص رد فعل وجهها..
.. حاجة زي ده كِده؟ اللي على الفخد..
.. صَغِير.. مش شايفاه..

.. غريب؟ مع إتك أنت اللي رسماه!!

.. مِتْهيا لي أنت نسيت! أنا اتعاملت مع شريف مش مع مراته..

.. أنا ما قلتش إنها مراته!!

ابتلعت ريقها وتحسست مَنِيَّت رَقَبَتِها..

.. Whatever التاتو صغير أوي ومش واضح..

.. أنا عمري ما شفت حد بيكذب بالرُّخص ده..

.. أنت بتقول إيه؟! ..

.. باقول إنك كذابة.. لما شفني وش بِسمة اتلخبطتي.. أنتِ

ما بصتيش حتى على الوشم!!

.. ممكن تتكلم بأسلوب كويس..

قالتها وهي تُحصي الشياطين التي دارت في عيني قبل أن تُسرِعَ
بالقيام، أمسكت رُسغها بقسوة وأجلستها على كُرسِيها عَنوة،
استغاثت بعَبدِها المَحْصِي تَناديه وهي تَلتَمِط حَقِييَتِها فَجَذِبَتِها من
يَدِها والتقطت عُبوة الـ (Self Defense)، منها قبل أن أقبض على
قِرطِها المُستدير الواسع بين أصابعي، تأوّهت في ألم:

.. ششش.. رَكْزِي معايا دقيقتين.. واحد.. إحنا لوحدنا ما حدش
هايسمعك.. اتنين.. البتاع اللي أنت مشغلاه وَسَطَّح على أرض
الحمام ومش هايسمعنا.. ثلاثة.. نور المَحَل مَطْفِي برّه.. يعني
ما فيش زيون هيجي.. أربعة.. حركة واحدة هاقضي الزُفت ده في
وشك لغاية ما تفتصي.. وأدغدغ المَحَل.. أوكيه؟

خدجتي بغُصْب ونهيج صَدْرها يعلو ويَهبط في فَرْع.. لحظات
وهزت رأسها اقتناعًا فتركت القُرط من يدي..

- عاوز إيه؟

- شوية أسئلة.. والرد من غير كذب.. بَسمة جت لك ليه؟

نظرت إلى يسارها وأغمضت عينيها تفاوض الاستسلام، لمحظات وفككت الإيشارب الفَجْري التي كانت ترتديه فتبعثرت خُصلاتها البيضاء اليابسة ثم أشعلت سيجارة بأصابع مُرتعشة وسحبت نفسًا أطلقتته في السقف تهدئة لروحها..

- تاتو.. كانت عاوزة ترسم تاتو..

- وبعدين؟

- جت ثلاث مرّات ومافيش شكل عَجَبها.. دردشنا سوا وحكت لي عن حياتها.. كان نفسها تعمل حاجة جديدة في جسمها لأنها مكتسبة إن مافيش حَمَل.. كمان علاقتهم «Sexually» ماكانتش مغبولة.. شريف كان سريع.. في المرّة الرابعة لَمّا جت اقترحت عليها تاتو.. «New Look» ووافقت.. بس..

- وبعدين؟

- ولا قبلين!

- خبّيتي ليه موضوع زيارة بَسمة لَمّا جيت لك أوّل مرّة؟

- ما حتّش إن ليه أهمّية..

- عُدّر أقبح من ذنب.. رسمتي لها إيه من مَكْتَبتك؟

هَرَبْت حدقتها عَنوة إلى رفّ عالٍ قبل أن تُجيبني:

- تاتو عادي.. مش فاكرة.. الكلام ده كان من حوالي...

التقطت قرط أذنها الكبير وجذبت به بعنف لم أعهده، تمزقت شحمة
أذنها فصرخت وانهارت على الأرض المأ تحتوي شحمتها المقطوعة
بيديها وتلو من أجلي السباب، لا أنكر أن ذلك كان مُمتعاً بشكل
كبير قدر ما أثار قشعريرتي! فمُخترع الأقراط نفسه لا بد كان سادياً
ليفكر في ذلك الاختراع!! تركتها تتلوى كحبة مقطوعة الرأس حتى
همدت ساجدة في ضعف..

- أنت حيوان.. أنا مش هاسكت.. هابهدلك.. أنا...

- أنا قلت لك بلاش كذب ما صدقتيش.. تاني.. رسمني لبسة إيه؟

جرت تصنع الهبوط هرباً فالتقطت قرطها الآخر بين أصابعي
انتبهت كقطة متحفزة وتخلت عن تمثيلها غير المتقن، تحدجني بنظرة
رأيت فيها امرأة قوية لم يكن لجرح مثل ذلك أن يؤثر فيها، فجسداً
مُغطى بوشوم مجموع آلامها قد يصرع فيلاً!!

توسلت بكلمات أسالت كحلها الرديء من عينيها فاجلسنها على
الكُرسي وناولتها منديلاً لتضعه على الجرح..

لحظات وبدأت تتزف الكلمات..

- رسمت لها رسمة قديمة.. رسمة جابت نتيجة قبل كده..

- احكي..

- تاتو مُعين يعمل «Positive energy during Sex»، طاقة إيجابية،

تخلي العلاقة تتحسن، وينشط الشاكرات؛ اللي هي بؤر الطاقة في
الجسم! خصوصاً «المولادارا شاكرا» اللي بتأثر على المبايض
والبروستاتا، أنا مش قادرة، التزيف مش يقف، لازم أروح لدكتور.

- أنا دكتور وبقول لك هتعيشي، ده نُحرم في شحمة وذن مش
 رصاصة، كَمَلِي..
 أردفت بِغَلٍّ:
 - رست لها التاتو وبدأ ينجح.. العلاقة اتحسنت كثير مع شريف.
 - طاقة إيجابية!
 - الطاقة عِلم.. والأحجار الكريمة كمان فيها...
 - فيها فيل.. فيل.. كَمَلِي..
 - عرفت من بسمه بعد كده إن حصل حَمَل..
 - وهنا شريف زارك؟
 - جه زي المجنون.. عاوز يشوف التاتو اللي رسمتهولها.. متخيل
 إنه السبب! أ
 - وفين الكتاب ده؟
 هربت عنها لكسر من الثانية إلى الرف ذاته..
 - للأسف ضاع مني..
 ابتلت الكذبة متظاهراً بالتصديق..
 - وبعدين؟
 - البيه بهدلني زي ما بهدلتي سيادتك وكسر لي دراعي ومشي..
 أنو كلكو مَجَانين..
 - الكتاب اتسرق منك إزاي؟

سألتها بَغْتَةً وأنا أَسْحَ تعبيرات وجهها..

- اتسرق! اتسرق في النادي..

- في النادي!! يعني مش هنا؟

- دور لو مش مصدقني!

التقطت القرط المُبْقِي بين أصابعي وجذبتها منه كالبقرة، قامت
مُجْبِرَةً تُولُول وترفس فنهيتها بـ«ششش» قاسية فاستجابت، اقتربت
من الرف الذي هربت إليه عيناها مرتين وتوقفت..

- بله!!

تطلب إقناعها شدة على أذنيها لتستجيب فصرخت قبل أن تمدَّ
يَدها للرف الرابع وتجذب كتابًا أجنبيًا، الغلاف الفخم وعدم وجود
ثنية واحدة في طرف الصفحات أكدّا كذبتها..

- أنت مسغية عن ودك الثانية..

ملدت يدي وأسقطت كل الكتب من الرف وفرزتها بقدمي، كانت
كُتب يوجا، تنمية ذاتية، مجلّتين للرشم وكتابًا صغيرًا غلافه لَبَنِي بَاهَت
يَحْمِلُ عنوان «أبواب الأراض» لم يَدَّ متيقًا مع نوعية الكتب في
مكتبتها من حيث النظافة والفخامة، باديا عليه القدم وكثرة الصفح
من عَدَد الثنيات في أطراف صفحاته، نظرت في عينيها فلمَحَت القلق
والتخط يسبّاتي بالأم، أفلتُ شَحْمَة أذنها وتركها تهوي بجانب قدمي
واتكأت على كرسي مُصَفَّحًا قهر من الكتاب المُهترى، العناوين كانت
صَادمة، «باب مَحَبَّة وجَلْب وتهيج»، «باب تَهْيِيج وتَزْيِف»، «لزيارة
الأرقام»، «باب لتَرْقَة الأحياء» فتحتهُ فُضِرَ لَا فقرات:

«يأتى بثلاث نوايات بلح، يوم الأربعاء ساعة زُحل، يُكتب على الأولى «آدم وإبليس» والثانية «إبراهيم والنمرود» والثالثة «موسى وفرعون»، وتقول على كل واحدة «وجيل بينهم وبين ما يشتهون» وتدفعهم في أي مكان بشرط أن يمر عليه المعمول له العمل!!».

غريبت الفهرس حتى التقطت عيناى باب «استحضار وتسليط العاشق النكاح»، فتحت صفحته فرأيت الوشم، الوشم الذي رأته على فخذ بسمه وزوجة المأمون ولبنى!! مكتوباً تحته:

«هذا ورب الأرباب أخطر أنواع التسليط على الإنس فافهم، هو استحضار لعارض سُفلي عن طريق رشم طَلْسَمه ومُناداته بعزيمته التي تُسيطر عليه منذ عهد سليمان، فيأتي خادم الطلسم لينكح الأنثى المُسلَّط عليها مُدة شهر وعشرة أيام، وحده، أو عن طريق الحُلُول في جسد بعلها المُعاشِر لها إن كان لها بعل، يحل في جسده، يحبسه وتطمس حواسه ويغييه، لا يكاد يفقه شيئاً مما يحدث حوله وإذا تكلم تلجّم لسانه كالجمار ينهق، ولا يستطيع التحدث إلا عن طريق عزائم الأرقام وإلا هلك وأحس بالحرق يسري على جلده، تشر عليه الشافات والأيام ولا يدري بها، كأنه ميت حتى! أما الطلسم فيُفَقَس على الفخذ اليسرى للمعمول لها للعمل، ثم تُكَب العزيمة بعني من زنى مخلوط بدماء سلحفاة بريّة لتبطل حركة الملبوس، ويُقرأ في مِرْحَاض مظلم ألف مرة وستين مع بخور مِيعَة وسندروس، ثم تُطَبَّق الورقة سبع تطبيقات وتُطَعَم لُكَلْب أسود بعد الغروب، وتُبطل العزيمة بقتل الكلب أكل الورقة فيفنى المعمول لها العمل.. أما إذا لم يُقتل الكلب يظل الناكح السُفلي في نِكَاحه حتى تَسْتَفِث الأنثى من العذاب وتُحْمِل منه ابناً لا يُجْهَض، يقتلها ليخرج منها ولا يفادر

جسد الذكر الذي احتله حتى يقتل نفسه فيموت كافرًا ! فاحفظ ذلك
فإنه من الأسرار ..

العزيمة:

توكل يا خادم هذا المظلوم ..

توكل بحق من خلقك من نار السموم ..

توكل بحق من أمرك أن تسجد لأدم فلم تستجب ..

توكل بحق الأسماء التي أنت لها طائع ..

أجب بحق « كيفيال، دنياء، شهقيال وشحيقون » ..

اتكح « فلاتة بنت فلاتة » في فرجها أو ذبرها ..

من العشاء للصباح ..

تصور وتمثل في صورة بعلها ..

تخلل دمه ولحمه ..

فيه، اطمس عينه، اردم أذنيه بطينك المبلول واحقد لسانه بعقلك
المعقود ..

ثم الفف إحليلك حول إحليله، وجامعها عنه ..

أبطل قاءه وحبلها بمائك ليخرج نسلك ..

الوَحاحا الوَحاحا .. العجل العجل .. الساعة الساعة ..

لم أتمالك نفسي لأكبل، اقتربت منها واغتصبت شعرها الأشعث:

- يا بنت الوسخة.. سحر!! سحر يا بنت المرة!!

راكعة على الأرض تملؤى أجابت:

- ما كانش المفروض ده يحصل.. كل مرة كانت بتعدي.. المرة دي قلبت جد..

- جد!!

جَرَّهَا حَتَّى الْكَرْسِي وَالْقَيْتَهَا فَوْقَهُ حِينَ ارْتَفَعَ خَبَطُ فَتَاهَا اللَّيْنِ،
أَتَ صَوْتُهُ مِنَ الْحَمَامِ يَدُقُّ الْبَابَ بِهَسِيرٍ يَسْتَعِثُّ مِيلَتَهُ..

- فهميني؟ من غير كذب..

- أنا ثلاثين سنة في المجال ده زبي زي الحلاق.. باسمع.. نُص
اليوت اللي بتهدأ بتهد بسبب السرير.. ونص الرجالة مش عارفة
يعني إيه السُّت ليها مُتعة زي ما أنتو ليكو مُتعة.. بس بطريقة مختلفة..
عاززة صبر.. الأفلام السُّكس بوطت دماغكو..

- أنت بتبصني لي كده ليه؟

- الموضوع ده شغلني لغاية ما اتعلمت لعبة.. لعبة بتلعب مرة
في العمر تخلي العلاقة تنظبط بين أي اثنين.. لعبة فتحت بيوت كثير
كانت هاتهد.. كل القصة وشم بيترسم..

- قصدك طلسم نجس؟

- طلسم وعزيمة بتكتب وتقرئ..

- وياكلها كلب!! يا نهار أسودع النجاسة!! كملني..

- الجن يعملوا اللي ما تعملوش ألف فياجرا.. يحضر ساعة النوم
ويلبس الزوج وينام مع مراته.. ما حدش بيعرف حاجة..

- والكل يقوم الصبح مبسوطا

- ده اللي فعلا يحصل.. مجرد ما بتحقق المتعة الحياة بتمشي..
ما فيش متعة؛ بتقعد نرمي اتهامات برود وضعف ونقطع في بعض
بسكاكين قلمة ومش قاهمين ليه

- والكلب؟

- الكلب اللي أكله العزيمة باحتفظ بيه في الحمام.. أسبوع لغاية
ما أطمن على صاحبة الوشم ويعدين أسقيه سم.. يموت.. وكل
حاجة تنتهي..

- ولإيه اللي حصل مع بسة؟

- مع بسة اللي خسر شيء ثاني.. شيء ما بينصرفش.. شيء أول
مرة أشوفه.. مش موجود في أي كتاب..

«الطري» قطع بنداله وخبطه استر سالها في الحكي، مُغْنَتْ أخف
لا يعمل الاستغاثة، يقرع الباب بهلع فتاة في الإعدادية

- أنت ما قتلش الكلب؟ سألتها..

- الكلب مات لوحده في الحمام!!

-...!!

- مات وانتفخ في ساعتين زمن.. وفجأة خرب وغرق الحيطان
دم ريحه بشعة.. أنا قلت خلاص العزيمة اتحلّت.. بعدها بيومين

لقيته وأنا باقفل المحل .. واقف وزايا بيزوم .. اتربعبت وما عرفتش
أنصرف لغاية ما جه تاكسي شاورت له .. من ساعتها بيظهر لي .. كل
يوم بالليل ..

- وده معناه إيه؟

- أنا آخر واحدة مُمكن أعرف ده معناه إيه .. اللي جه ماكانش اللي
بيجي كُل مرة .. اللي جه كان أشرس بمراحل .. يمكن يكون عشقها
ومش عاوز يمشي فقتل الكلب عشان تبوظ العزيمة وما تتفكش ..

- أنت ولعتي الدنيا ما عرفتيش تطفئها .. قتلتني؟

- ما كانتش دي نيتي ..

- أنت لازم تيجي معايا .. لازم تتكلمي ..

- رَمَقْتِ المرأة باستغراب تحوّل إلى رُعب ..

- ما تبصليش كده! هاتيبي ..

اتخذ الأمر مني ثواني قبل أن أستوعب أنها تُحملك في نقطة
خلفي ..

تجمدت للحظة أحفر وجهها بحثًا عن مَكيدة «بُصر العصفورة»
ثم لاحظت أن الرقع على باب الحمام قد توقّف ..

فتاها اللين خرج!!

أفلت أذنها من بين أصابعي والفتت بخدر، وراني مباشرة كان
واقفًا، ليس كما رأيته من قبل، أضخم، ضلوعه خارجة عن جسده
مفروسة في الشعر الأسود الفاجم، وعيناه لا مكان فيهما لبياض،

سَوَادُ بِلَاقَمَرٍ وَلَا نَجُومٍ وَلَا بَشَرٍ، لَا أَتَحَدَّثُ عَنِ الْفَتَى اللَّيْنِ، أَتَحَدَّثُ
عَنِ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ كَلْبِ أَحْلَامِي، صَوْتُ لَهَائِهِ اخْتَلَطَ بِصِرْخَةِ
الْمَرْأَةِ وَمُحَاوَلَتِي الْحِفَافِ عَلَى هَدُوثِي، مَرَّتْ ثَوَانٍ نَسِيتَ فِيهَا التَّقَاطُفَ
أَنْفَاسِي، انْتَبِضَ قَلْبِي وَرَفُضَ أَنْ يَنْبَسِطَ، حَتَّى الْعَرَقُ انْحَبَسَ فِي
الْمَسَامِ وَلَمْ يَنْهَمِرْ، كَانَ ذَلِكَ حِينَ ارْتَعَشَتِ اللَّمْبَةُ الْخَافَتَةُ وَانْطَفَأَتْ!!
مَا سَمِعْتَهُ لَمْ يَكُنْ نَبَاحًا أَوْ حَتَّى زَيْبَرًا، كَانَ صَوْتُ حَسِيسٍ نَارٍ، نَارٍ
بِلَا وَهَجٍ!! لَمْ أَدْرِ بِنَفْسِي إِلَّا وَأَنَا أَرْكُضُ خَارِجَ الْغُرْفَةِ مُبَعَثَرًا كُلَّ
مَا فِي طَرِيقِي مَتَبَعًا ضَوْءًا خَافَتًا آتِيًا مِنَ الشَّارِعِ، وَدِيجًا مِنْ وَرَائِي
تَصْرُخُ فِي جَزَعٍ مَا لَيْثٌ أَنْ تَوَقَّفَ بَعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تُبْتَرَ خَطَوَاتُهَا، لَمْ أَنْظُرْ
وَرَائِي كَمَا فَعَلْتَ امْرَأَةُ لُوطٍ، فَقَطَّ قَفْزَتْ فِي زَجَاجِ الْبَابِ فَحَطَّمَتْهُ
بِكُفِّي وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَسْفَلِ بَعْتَفٍ، انْفُشَخَ كُفِّي قَعَمَتْ وَاقِفًا أَنْظُرُ
لِلْمَحَلِّ وَلَا أَرَى إِلَّا ظِلْمَةً! مُحْتَمِيًا بِنُورِ الشَّارِعِ الْأَصْفَرِ انتَظَرْتُ دِيجًا
وَلَمْ تَخْرُجْ، وَلَا فَتَاهَا الْمُخَنَّثُ!! رَكَضْتُ، رَكَضْتُ كَمَا لَمْ أَرْكُضْ
مِنْ قَبْلُ، رَكَضْتُ وَالْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيَّ قَبْلَ أَنْ أَقْفُزَ فِي أَقْرَبِ تَاكْسِي..

فِي الشَّقَّةِ اتَّخَذَ الْأَمْرُ مِنْ يَدَيَّ سَاعَةً لِتَهْدَأَ رَعِشَةُ يَدَيَّ، وَرُبِعَ سَاعَةً
لَأَلْفِ سِجَارَةٍ لَا تَنْفُكُ بَقَرَتُهَا! لَعَنَ اللَّهُ مَرَضَ السُّكَّرِ وَالْمُخَشَّينَ
وَالْكِلَابَ السُّودَ الْكِتَابَ كَانَ بِجَانِبِ رُجَاةِ الْبِيرَةِ عَلَى الْمُنْفُذَةِ،
لَا أَرِيدُ فَتَحَهُ، لَا أَرِيدُ نَبْشَهُ، مَا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ لَمْ يَكُنْ زِيَارَةً مِنْ زِيَارَاتِ
أَحْلَامِي، مَا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ كَانَ حَقًّا!!

خَرَجْتُ لِلْحَدِيقَةِ اسْتَجْدِي الْأَمَانَ بِخَزْيٍ لَمْ أَعْرِفْهُ مِنْذُ زَمَنٍ،
جَلَسْتُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ الْهَزِيلَةِ أَحْتَمِي بِالْمَارَةِ الشَّحِيمِينَ وَالسَّيَّارَاتِ
وَضَرْهُ الشَّارِعِ الْأَصْفَرِ الْبَاهِتِ، فَتَحْتُ الْكِتَابَ وَمَشَيْتُ عَلَى الْكَلِمَاتِ
مُحَاوِلًا غُبُورَ الْمَطْبَعَاتِ بَيْنَ عِلْمِ النَّفْسِ الَّذِي دَرَسْتَهُ وَبَيْنَ السُّحْرِ الَّذِي

سحبني إلى عالمه، بين يقيني في ما رأيت، واعتقادي القديم في
خيالية هذا العالم الأزرق! ذلك العالم الذي درسنا في كلية الطب
أنه الجهل بعينه وأنه حُجَّةُ الجُهَال لتفسير المرض العقلي..

ولم أغفل لحظة شَعَرْتُ فيها أن الواشمة وفتاها قد يكونان أعدًا
لي بيت رُعب بلاستيكيًا مُزَوَّدًا بِنُظْمٍ صَوْتِيَّةٍ وإِضَاءَاتٍ وَمُجَسِّمًا
أسود لكلب مُتَقِنٍ التُّحْتَ!! اللعنة على الأفلام الأجنبية وما تفتحها
من احتمالات!! لكن ماذا عن زيارته لي في البيت من قبل؟
أفكاري غير مرتبة! مبعثرة على مساحة ألف ميل..

قَلَبْتُ صفحات الكتاب بحثًا عن تفاسير حين أوقفني فصل اسمه
تفسير الحروف، رأيت فيه جَدولًا بعدد الحُرُوف الأبجدية والمُقابِل
لها من الأرقام:

ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠

ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠

ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

تفسير الحروف:

تحويل الحروف لأرقام هو نقل نافع لكشف بواطن حُرُوف
الكلام، ثم وضعها في مُربَّعات مُساوية الخانات تُدعى الأُوقاف،

مربعات تملك قوة الفعل والتحريك والتأثير، من طريق طائفة خفية
ناجئة من تسخير الجن، تُستخدم في خلعة جميع الأهرامس، عليها
وساقلها، فكل شيء يتحرك في إطار نظام مدرّوس، ولا مجال
للصدفة في الدنيا فأنهم، كل رقم هو جزء من مُعادلة حسابية لها قوة
خاصة تحمي من تُعمل له أو تُسحق من تُعمل فيه، فكتابتها على
شيء قد تعني الحفظ.. أو الهلاك..

نظرت في الكلام والأرقام ثواني قبل أن تنجلي العلاقة!
قُمت جريئاً لغرض أسماكي الميتة أبحث عن الملف، نُقبت فيه
حتى عثرت على قُصاصات الأرقام التي كتبها شريف ونطقها، قُضيت
فكالاتي في الترجمة قبل أن تنجلي الحقيقة..

شريف كان يستغيث ولم أسمع!!

كان يطلب تسعة أرقام..

لم أنتظر الشمس لتصهر أفكاري وعيني والأسفلت تحت قدمي..
قبل الفجر اصطحبت القميص إلى المستشفى، الريح ساكنة
كالعوت والشجر جذوعه لها مَهَابَةٌ مَجْلِسُ شيوخ رُوماني،
لما اقتربت من ٨ غرب اتصلت بمحسن الممرض، أيقظته فخرج
لي نصف نائم..

- فعلش صَحتِكَ يا مُحسن..

- صباح الفل يا دكتور.. أو مُر..

- إيه الدنيا عندك جوة؟

- والله يا دكتور الجو كله كَهْرَبَا.. المُساعد ووكيل الأمانة وسكرتير
الوزير جُم النهاردة والقسم مشدود كله..

- أخبار عيلة سامح إيه؟

- د. كيلاتي هو اللي بلغهم الله يكون في عونہ.. أبوه أغم عليه..
ليه ريتا بقي..

كلمات محسن كانت مُحَمَلَةٌ بغبار لُوم ومعالم ضيق لم أغفلها..
فللقسم كله قد عرف علاقتي بشريف..

في مثل تلك الحالة وعكس كل الاحتمالات أضغط دواسة
البتزين حتى آخرها..

- شريف في العزل؟

- وعليه عسكري خدمة..

- عملوا إليه معاه؟

- خمس ساعات رَغي وما طلعوش منه بأي مصلحة.. مشيوا
وقالوا جاين بكرة يكملوا تحقيق..

- أنا علوز أخش له..

- لا.. دي أنا مش قدها يا دكتور..

- يا محسن..!

- وكتاب الله ما ينفع.. د. كيلاني شادد القسم كله.. أنا كده أروح
في داهية..

- اسمعني يا محسن.. أنا لو ما دخلتش لشريف النهاردة ذنب
سامع هايتقي في رقبته..

- هو أنا اللي قتله لامواخذة يا دكتور؟!

- للكلمتين اللي هاعرفهم من شريف ما حدش هيعرف يطلعهم منه
غيري.. لو همتك سامع الله يرحمه دخلني.. نص ساعة يا محسن..
نص ساعة ما تبقاش رِخم يا جدع هو أنا جاي من الشارع؟!

- طب والعسكري اللي ع الباب؟!

- يعني هتقلب يا محسن .. وبعدين هاظبطك واظبطه .. ليك عندي
تظيطة هتحلف بيها !!

دعك عينيه وداعب شففيه الباهتين ثم نفث دخان السجارة التي
أخذها مني بضيق قبل أن يهز رأسه في «مَنْ وأذى» واضحين ويشير
لي أن أترقب رثة محمولي لأدخل ..

انتظرت عشر دقائق حتى أتنني إشارته، عبرت البوابة واقتربت
من باب العنبر الساكن أبعد بعيني حتى جاءني من آخر الرواق
مُهرولاً يهمس:

- بالعافية وافق إني استنى مكانه على ما يديها نص ساعة يفصل
ويخُش الحمام ويحضر الفجر جماعة في مبنى الإدارة .. بس لازم
أراضيه عشان ما يرغبش ..

- تراضيه عشان يريح ويصلي؟ ماشي!! هو شريف مربوط؟
- الخلا خيل في رجليه ..

دسست في يد «النحاس» خمسين جنيهاً فأخذها وأغلق باب غرفة
العزل ورأني، خلعت قميصي وعلقت خلف الزجاج ستراً ثم أضأت
النور، شريف كان جالساً على سريريه وقدماه مكبلتان بالأصفاد، لم
يُحَدِّث دُخولي رد فعل قدر ما أحدثه القميص المعلق في يدي،
مَشَدُوهاً مَشَدُوداً لم تنزل عيناه عنه لحظة، ينهج متفعلاً كَمَنْ يصعد
جبل، اقتربت فلمحت في عينيه رهبة ممزوجة بشوق ..

- أنا شفت كل حاجة يا شريف .. عرفت اللي خصل لك وخصل
لبسة .. وخصل للمامون قبلك ..

محبوس داخل نفسه يبكي براءته انتصخت أوداجه وترقرقت عيناه
بدعوة لا إرادية..

- أنا جيت لك القميص!

برفق اقتربت من السرير، رَمَقُ القميص ملئاً ثم مَدَّ أصابعه ببطء
ولامس نسيجه الجاف قَبْلَ أن يسعجه بشدة كادت تمزقه، رَبَّتْ
على يديه فأرخى قبضته بعد لحظات، نَظَرَتْ في عَيْنِهِ اقْرَأْ ما فيهما
ويدون أن أسأله قَرِبت القميص من رقبته، النبض فيها ازداد عَرَقًا
على الأوردة والعرق انسال مِنْ جَبْهَتِهِ على صدره، عَرِيس يرتدي
بدلة زفافه، مُحْكوم عليه بالموت يُلقَى حول رقبته حبل مشنقة، نَجَاة
تغير وجهه فتزع القميص من يدي وألقاه بعيداً..

- ليه يا شريف؟

- ما تسألش سؤال أنت عارف إجابته.. أنت أذكى من كده!
لا إرادياً انتصب شعر جسدي فالتقطت القميص الأثري وارتدته
وأنا أستعِذ بالله في سري حين لَمَحْتُ الابتسامة..

- مؤمن!! سألني بسخرية..

- وموحد بالله..

- أنا كمان موحد بالله.. أكثر منك.. وعلى فكرة لُونِي مش أسود
زي ما بيرسموني..

- أنا مش خايف منك..

- كُتَاب! تفرق إيه عني؟ تعمل كل اللي بتعمله وتسميني أنا
شيطان.. ده حتى اسم سخيف!

- أنت ضعيف..

- بتقول الكلام ده وأنت بتحامى في قبحر قماش..

قالها وفتح الفم، فم شريف، فتحه حتى كاد ينفيخ ثم أمسك
ضرسًا في الصف الأيمن، قبض عليه بسبابة وإبهامه وجذب،
بمجهود لا يذكر اقتلعه من اللثة بقوائمه الأربع، خرج بنافورة دماء
أغرقت صدر شريف، رفعه أمام عينيه وتأمله قبل أن يتسم..

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

- أنت بتضحكني على فكرة.. المفروض أتحرق دلوقت؟

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

مدّ يديه في فمه والتقط ضرسًا آخر.. جذب به بقوة حتى خرج بصوت
كسر ودماء أغرقت الملاعة..

- كُل ما هتذكر الله هائب لك ضعفك..

حين قالها انتابتني رعشة، كهرباء مرّت فوق جلدي، صرع خفيف،
نظرت إليه بعد أن خفتت موجته فوجدته يتسم..

- مش هاسيك تدخل دماغي..

- أنا أصلاً جوّة دماغك.. هتنام إمتى مع لبنى؟

....

- ريحة لحمها شهية.. بتجيني من مسافة ألف ميل.. وضعفك
وجبتى المفصلة.. بالمُناسبة الجَوْ حَزَّ والقَميص ده مش هيحميك.

- بتستغزني عشان أقلعه!

- مش هتفرق.. صاحبه القبي نَجسه..

قالها وابتسم حين التقطت طُرف خيط مُهترئ..

- نَجسه!؟

صَفعتني كلمات عم سيد خيَاط القميص حين قال:

«القميص ده تلبسه ما يفارقك.. إلا على باب الكنيف تسييه في
حَتَّة طاهرة.. ولا تعاشر الحُرمة ليلة واحدة.. ولا يمسه دم.. لغاية
ما يغادر..».

نظرت للقميص على جسدي وتأملت البقعة الداكنة، بقعة دماء
زوجة المأمون! نظرت في وجه شريف المبتسم رغم نافورة الدماء
النازفة منه قبل أن أخلع القميص بهدوء..

- مش قلت لك القميص مش هينفعك!

لم أحبه، فَرَدت القميص على الأرض أتأمل رسومه وأرقامه وفي
رأسي ترقدت بقايا كلمات صانع القميص:

«القميص هيرفع عنك.. مكتوب عليه باليسك والزعفران برحك
وحمايتك في تسع أرقام.. ما بين الكاف والنون.. قوله الحق وله
المُلْك..».

التقطت هيناي فوق الصدر حرف «كاف» كبير متبوع بسلسل

أرقام مفصول بنقاط يبدأ من ستين وينتهي بثمانية وستين عند حرف
«نون» موازاً

٩-١-٢٠٠-١٠٠-١-٤٠ تعني بعد تحويلها لحروف عبارة
«تسعة أرقام»..

شريف كان يطلب شفرة الأرقام التسعة.. يستغيث بها بعدما
علم أن القميص لا فائدة منه بدونها.. كان يقصد «تسعة أرقام»
لكنه لا يعرف مكانهم في القميص وسط زخم الأرقام والحروف
المتشابكة.. والقميص ينسى مكانه وسط الغيات المتلاجة..
الغيات التي يتولى فيها نائل السيطرة.. ومكان الأرقام أفصح عنه
عم سيد في رحلة القيل الأخيرة.. ما بين الكاف والنون!

برعشة حاولت تملكها أخرجت الورقة من جيبى، الورقة التي
جاءتني في البريد، ألمعت حيناً شريف حين رآها، ركعت على الأرض
وأخرجت قلماً، تأملتني بابتسامة والدّماء لم تكف عن التدفق من
فمه، بخطّ حاولت السيطرة عليه كتبت الأرقام التسعة في المربعات
المتجاورة داخل رسم الوجه ذي العينين السوداوين والأذرع الطويلة،
كُتبت كما رأيتها على القميص من الكاف إلى النون، من اليمين
لليسار، من ستين لثمانية وستين، انتهيت فرفعتها في وجه شريف،
زملتها بابتسامة خفت حين قُمت واقتربت، ثم صارت قهقياً ارتعشت
من أجله لمبة الغرفة، قبل أن تنطفئ! ساد السكون بضعة ثوانٍ فاحت
فيها حينئذٍ محاولاً خصد أية تفاصيل قبل أن تصمتني زجرجة السرير
الجليدي على الأرض، قوائم المعدنية الأربع تضرب البلاط برقع
مُلوّ، التصقت بالحائط لا إرادياً حين ارتعشت الللمبة في ومضة

سريعة رأيت فيها الجسد الضعيف يتزلزل كُشْخِيشِيخة في يد طفل
سادي، يتغضض كأن خط إمداد مدينة بالكهرباء قد احتضنه، من الهول
غفلت أن أقرب حين التقطت صوت محسن من الخارج يضرب
الباب منادياً: «يا دكتور.. افتح يا دكتور»! نفضت عن نفسي الدهول
واقتربت من شريف مُحاولاً تثبيت قدميه التي كادت تبتريها القيود
جذباً، التعلقت ذراعه قبل أن أقفز فوقه وأجثم على صدره قابضاً على
ذراعيه مُحاولاً رفع ركبتي فوق عضديّه لتشيته! كان ذلك حين انفتح
الباب تحت وطأة ضربات كيف محسن فصرخت فيه: حُقنة هاليدول
يا محسن بسرعة.. هرع الأخير لينفذ الأمر وكاد يتزحلق على البلاط
من الهرولة حين التفت لشريف الذي رَمَقَنِي بغضب مُحتمق قبل أن
يصرُخ في وجهي صرخة أيقظت المُستشفى، صرخة طويلة فجرت
شرياناً صغيراً في عَينيه وطيلة أذني، صرخة خرجت بنَفَس عَفِن ورَبَد
سأل من شدقيه قبل أن يتقيأ، تقيأ نَهراً أصفر ممزوجاً بالدماء فوق
صدره وصدري والسريرا كان ذلك حين أتى مُحسن، تبعه عسكريان
وضابط سمعوا الصرخة فدخلوا ليتسكروا في ذهول! تناولني مُحسن
الحُقنة ثم قبض على ذراع شريف فتحررت يدي، صوّبت الإبرة لوريد
في عُنقه المتنفخ وهممت بغرز السن حين سَكَن بغتة!! همد وارتخى
جسده كأن الروح تنسلّ منه بلا إذن، لَمَسْتُ في وجهه زوال المعاني
فألصقت أذني بفمه مُحاولاً اللحاق بإرث يندثر، هَمَسَ بنَفَس واهن
مُتهَدِّج ملئه الحُشْرَجَة:

.. خلاص يا يحيى..

ابتسمت له.. تلك كانت المرة الأولى التي أقابل فيها شريف منذ
عشر سنوات!

- أنت اللي بعث لي الورقة يا شريف!

هَزَّ رَأْسَهُ إِيْجَابًا وَتَرَقَّرَتْ عَيْنَاهُ..

- كنت باغيب في الأسبوع بست أيام.. أصحا ألاقى كل حاجة

متغيرة.. في مرة فكّرت فيك.. رَغِمَ كل شيء كنت عارف إنك الوحيد
اللي مُمكن يوصل..

قاطع حديثي ضابط الشرطة الذي أفاق من سكرة المفاجأة..

- أنت دخلت هنا إزاي؟

- دقيقة!

- انزل..

- أنا دكتور هنا...

- دكتور مش دكتور.. ممنوع الدخول للمريض ده بالذات.. دي
أوامر...

- المريض ده هينهار في أي دقيقة ولازم يتلحق.. عندك استعداد
تشيل المسئولية؟

نطقها بحزم من يعني تهديله فتقهقر بغضب مكبوت خوفًا من
المُساءلة..

التفت لشريف وسأله:

- بَسْمَة مِرَاتك...؟

قاطعني:

- راحت مني يا يحيى.. ما كُتِش هاستنى يقطعها قدامى..
- أنا هاروصل ده للجنة.. ما تعلقش و...
ارتعش قمه وهز رأسه فقريت أذني مُحاولًا الإصغاء..
- أنا مش عاوزك توصل حاجة.. وهما مش هيصدقوك.. سيينى
أرتاح يا يحيى..
- قصتك لازم تعرف..
- مش مُهم.. أنا كان كل همي ما يتصرش عليا.. ما أموتش
مُتجحر..

- كنت واعي لما قتلت سامح؟
- سامح كان هياذك! ما كانش جواه غير الغل ناحيتك..
أبهتني إجابته فأردف:
- قتلة واحدة زي اتنين..
نظرت في عينيه فقرأت وعيه بما يقول قبل أن تنبثق الدماء من فمه
في كتل داكنة، الكبد ينهارا لحظات وزاغت عيناه..
- محسن.. هات لي دكتور بسرعة..
أمرته فخرج مُسرعا فالتفت للضابط..
- يمكن نحتاج تصريح خروج..

على كرسي بلاستيكي أصفر غير مُريح جلست في طُرفة أمام
غرفة العمليات التي نُقل إليها شريف، رجال الشرطة من حولي

يقفون بأكواب شايعهم البلاستيكية وأجهزتهم اللاسلكية ودُخان
سجائر لم يعبا بقدسية المرضى! بل شجّعني لأشعل واجلدة!! عيتوا
لي عسكرًا ليرافقني ولولا صياحي في وجوههم لكبلوني في يده،
كان عليّ الانتظار ساعة أخرى قبل أن تشرق الشمس ويخرج الطبيب،
أخبرنا أنه سيطر بالكاد على النزيف وأن الحالة استقرت رغم فشل
وظائف الكبد بسبب الورم! لما سألته أي ورم؟ أجابني بأن شريف
يُعاني ورمًا خبيثًا في الكبد!! ولم يصدّق أنه قد تم فحصه منذ أيام
قليلة ولم يكن فيه شيء!!

ظللت على الكرسي الأصفر غير المُريح بجانب المكري
العرقان حتى أتت المديرية تجر وراءها خازوقًا ومقصلة مريوطين
في خبل مُشتتة، وضعتهما بجانبني وجلست..

- إذيني سبب واحد لوجودك النهاردة في أوضة شريف!!

- لوحكيت لحضرتك مش هتصدّقني..

أغمضت عينيها في نفاد صبر فحسنت أمري وقلبت المائدة
بطعامها المُتَعَفّن في وجيها..

- شريف ممسوس!

رفعت رأسها للسَّقْف نضرعًا أن ينزل بي عذاب قوم لوط وعاد
وثمود دفعة واحدة..

- الأول كان ازدواج ودلوقت جن وعفاريت! أنت الخمس سنين
اللي سبت فيهم الطّب دماغك باظت..

- مش باقول لحضرتك مش هتصدّقيني..

- ليه! مصدقك طبعا! ودكتور كيلاني يرفع تقرير لجنة
للمحكمة يقول فيه إن مُستشفى العباسية شايفة إن المتهم ملبوس
ومستعدين لعمل له زار كمان ومحتاجين في الميزانية الجديدة ديك
أسود يتيم!

- آيا كان.. شريف لما يفوق هايتكلم طبيعي ويعترف بكل
حاجة..

- هيعترف إنه قتل مراته؟

- هيقول كل حاجة..

سكتت تدرس كلماتي وقرارها.. لحظات وانحنت تهيس:

- ما كنتش أتمنى أقول ده بس ما اذتنيش فرصة.. هاحولك إجازة
بدون مُرتب لغاية ما تلاقي شغل وتيجي تقدم استقالتك عشان ملفك
يفضل سليم.. لغاية ده ما يحصل مش عاوزة أشوفك في المستشفى..
خذ بالك من نفسك يا يحيى..

- ماشي.. فيه بس حاجة.. مُحسن المُمرض مالوش ذنب..
ما شافتيش وأنا بادخل..

حدجتي بريب زمت من أجله شفتيها ثم هزت رأسها إيجاباً
وقامت إلى غرفة شريف بعدما همست في أذن الضابط فأمر العسكري
بمُصاحبتني حتى باب المُستشفى، مشيت بجانبه حتى صادفت شجرة
الكافور المقطوعة، بحثت عن عم سيد بعيني قبل أن أسأل عنه إحدى
المرضات الهائحات..

- هَمَّ سَيِّدًا!! هَمَّ سَيِّدَ تَعِيشْ أَنْتِ مِنْ يَجِي أَرْبَعِ سَنِين!! حَزَن
يَا حَبَّةَ عَيْنِي وَمَاتَ بَعْدَ الشَّجَرَةِ دِي مَا اتَّقَطَعْتَ دَاهِيَةَ تَكْجِمِ اللَّي
قَطَعَهَا.. كَانَ دَائِمًا يَقُولُ عَلَيْهَا شَجَرْنِي.. اللَّهُ يَرْحَمُهُ..

...!!!

.

من سينحدث عن عم سيد سيدفع غرامة خمسة آلاف جنيه!
خرجت يومها من المستشفى إلى محطة مصر، حُجزت تذكرة
في قطار الثانية عشرة المتجه للإسكندرية قبل أن التخط كُوب قهوة
وأجلس على دكة مُغمض العينين مُحاولاً إقناع ألف صر صار في
رأسي أن يَكْفُوا عن حَك أجنتهم الجافة في بعضها، أضغط مراراً زر
الـ «Escape» في كيوردي فلا تستجيب، دُخنت سَبع لفافات دُخان
لتسيل دموعهم ولم يطيروا فصرقت عيني إلى الناس أتأمل تحركاتهم
النملية، طبائعهم المترجمة ترجمة موثوقة في لغة أجسادهم، غباءهم،
اصطناعهم، نفاقهم، ضعفهم، عهرهم، وفي أحيان قليلة طيتهم غير
المُبررة! اللعنة على البشر، بعضنا تكفيه كلمة لينة، والبعض لا يكفيه
كُرباج سُوداني مَعقود منقوع في زيت مغلي! أعتقد أنني من النوع
الثاني.. وغير مؤمن بالتغيير..

حين أصل الإسكندرية سأنزل البحر الذي انقطعُ عنه خمس
سنين.. سيظهرني الملح أو يلسعني قنديل سام.. لا يهْم..
سأنهي علاقتي بالخمر تدريجياً، لكني سأحتفظ بالبيرة، فالشعير
فَئِيل لي إسكاري!

لن أقاوم كأس «Johnnie Walker Blue Label»، إذا حضر أفعى
نكهتها مذاق شفتي لبني!

لن أرى لبني ثانية، فحلقة «World's Deadly Spider - National Geographic» عن أكثر العناكب خطورة تقول:

«... سينسج حولها خيوطه شديدة الرقة والشفافية، والتي تُعدّ
أصلب الألياف الطبيعية على الإطلاق، حتى تبطؤ حركتها وتُثبّك
من محاولات التملص من الأسر، أو الانغماس فيه! قبل أن يقترب
العنكبوت السكير منها ويبدأ في لفها سريعاً لتظلّ حية طازجة ساخنة
بجانبه، ليلتهمها وقما يشاء، بعد أن تفقد ابنتها وزوجها! كما تميّز
تلك الفصيلة بعدم وجود مستقبل أو حاضر، هي فقط تعيش ماضياً
لا تخرج منه...».

انتهت الحلقة حين ظهر رقم لبني على شاشتي، حكيت ما حدث
في الليلة الماضية مُخففاً التفاصيل قدر المُستطاع والتوايح التي
ستحدث حين يتكلم أخوها الكلام الذي تحرّر في صدره! ثم طمأنيتها
بكلمات من التي تقولها حين لا نجد شيئاً نقوله، رفقا بها وبوالدتها
العجوز التي كادت أن تكون يوماً حماتي! غابت في صمت ثقيل
قرأت فيه تخبّطاً وخوفاً ودموعاً تنحدر ببطء قبل أن تصبح في
ابنتها توقراً:

- «قلت ميت مرة تلمّي لعبك يا حيوانة!!».

تختلف الأم كثيراً عن حبيبة سابقة!!

- يعني شريف حاله...

- شريف هيبقى كويس.. الكبد تعبان شوية.. بس هيبقى كويس.

- أنا مكسوفة منك جدًا.. أنت سبت المستشفى بسببنا!

- كده كده كنت هاسيها..

- أنت كويس؟

- أنا كويس..

- هاشوفك؟

....

- رُحت فين؟

- ولا حاجة.. أنا.. هاقضي شوية وقت عند أمي في إسكندرية..

محتاج أغير جو وأشوف ميشو ابن أختي و...

- باقول لك هاشوفك؟

....! خليني بعيد يا بُنى..

- كنت عارفة إنك هتقول كده!!

....

- يحيى أنا بحبك..

سرت قشعريرة على جلدي لما قالتها، خَرَجْتُ مِنْهَا هَمًّا لَأَنْ
زوجها بالقرب منها، زوجها الذي يراها كُلُّ يوم، زوجها الذي ينام
مَعَهَا كُلَّ خميس! يَراها ليمونة ذابلة، وأراها تفاحة فائرة، اللعنة
على أفكارِ المُنسَخَةِ ودراما الحياة الرخيصة التي تشبه مسلسل
(The Bold and The Beautiful) ..

- أنا محتاجة لك.. بلاش تبعد..

- أنا لو ما بعدتش هتكرهيني.. خلّي فيه حاجة جلوة تفضل..

- أنت خلّيت جبّل جليد يتحرك.. وبعدين عاوز تروح!

- تُخدي بالك من نفسك يا بُنى..

أنهيت المُكالمة فأغلقت المَحْمُول على قلبي ورَكبت القِطار،
رجرتني إلى الإسكندرية قبل أن أرتمي في حُضن أمي، أعدت احتلال
حُجرتي التي شهدت سنوات مراهقتي وفتحت شبائيكها التي أكل بودُ
البحر دهانها وأخشابها، قابلت قُمصاني المشجّرة، شرائط «Doors»
القديمة، والهارديسك الـ «80 Giga» الذي يحوي كنوزًا وروائع أفلام
«Porn» السبعينيات ومكتبة «Marilyn Chambers» الكاملة!

استقررت يومين قبل أن أقرأ خبرًا صغيرًا في جريدة عن حريق
شِبٍّ في محل وشم بمصر الجديدة أسفر عن مصرع صاحبة المحل
ومساعدتها، ولا أثر لشبهة جنائية!!

ذكرى الكلب الأسود لا تُغادر ذاكرتي، أتخيله يتابعني أينما كنت!
وسواسه أجبرني على النوم بعد الفجر أكثر من مرّة..

فشلت في الوصول لموزّع «DMT» يعرف ما هو القيل الأزرق!
ولمّا سألت تاكي تليفونيًّا أخبرني أنّ المنتج مخبئ من السوق!!

مُلتزم بالبيرة فقط في سابقة هي الأولى من نوعها.. ثلاثة أيام
كاملة!!

اكتشفت أنني لا أستطيع مُجاراة ابن أختي، فرد صغير يلعب فوق
أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، ولا ينام! كما أنه يمشق شوربة الخضار
التي أهجرها مسافة شهر، تفوح منه رائحتها أينما ذهب!!
وجدت نفسي أوتوماتيكياً أعود للقاهرة بزحامها وعواذِمها
ووجدتني المحببة لنفسي..

علقت صور ابتي وزوجتي على الجدران ثانية، واسترَضيت
جارتني مدام كوثر بشال أخضر كان لزوجتي نرmin؛ فقد حلمت بها؛
لأول مرة، وطلبت مني أن أهبها الشال لأنها أبدت إعجابها به مرة،
صدقتني جارتني لأن الواقعة كانت سرّاً بينهما، أخذت الشال فبكت
واحتضتني قبل أن تناولني طبق رز بلبن بائت!

بِتْ أقضي ليلي كله تقريباً عند عوني، واكتشفت مع الوقت أن
«شاكر» إنسان، وله مشاعر، كما تأكدت أنه يعاني ضعفاً جنسياً
أساعده نفسياً في تجاوزه بعدما اعترف لي وبكى!

رحلت «نيجوزي» لبلدها بلا رجعة بعدما تعاركت مع عوني،
سألتها قبل أن تُغادر عن السلسلة التي أعطتها لي فقالت إن فيها
نحويجة معطرة، خليطاً من البخور يدفع الأرواح الشريرة، وقالت إنها
رأت يومها ظلاً داكناً يتحرك بجانبها! سألتها إن كان لها أصول مصرية
أو عربية؟ فأخبرتني أن لها جدة حبشية عاشت في مصر يوماً ما!

عُرفت من محسن أن التقرير قد خُرج من ٨ غرب على يد دكتور
كيلاني، بأن شريف «بنسبة كبيرة» يعاني خللاً نفسياً، وإن لم يُشر
لوجود خلل عقلي بعينه من مسئولية الجرائم، خاصة بعد اعترافه..

حكمت المحكمة عليه بعقوبة خمسة عشر عامًا لأن الشك يُفسر لصالح المتهم، فحكم خاطئ يفضي لبراءة أو سجن خير من حكم خاطئ يؤدي بيريء للإعدام..

مَرَّ شهران لم أتلَقَ فيهما اتصالاً من بُنى، وأمسك نفسي بالكاد أن أطلب رقمها..

أجلس يومياً أمام الإنترنت أبحث في طلسم النكاح، شغف غريب استولى عليّ بشأن ذلك الكيان الأسود، العزائم وعِلْم الأرقام ومتالية المربعات، تعلّمت حساب اسم الشخص ورغبته، ثم خلطتها وتحويلها لأرقام قبل أن أضعهما في المُرَبَّعات التسعة، مُربعات قد تحمي وقد تُضر، على حَسَب وساخة أو طهارة مستخدميها! كما عَلِمْتُ أن الأرقام التسعة التي نقلتها من القميص إلى الورقة، هي ترجمة لاسم الله «المانع» وحسابه بالأرقام حسب الجدول:

المانع = ١ - ٣٠ - ٤٠ - ١ - ٥٠ - ٧٠ ويساوي مجموعهما ١٩٢..
و١٩٢ نظرح منه «الأس» وهو ١٢ فتساوي ١٨٠، ثم نقسمها على ثلاثة فتساوي ٦٠، ليوضعوا بعد ذلك في مُربعات الحماية وفق ترتيب أشبه بنجمة خماسية تبدأ من الأسفل بذلك الترتيب:

٦١	٦٨	٦٣
٦٦	٦٤	٦٢
٦٥	٦٠	٦٧

ولم يكن ذلك هو الترتيب الذي وضعتهما فيه حين لوحت بالورقة في وجه شريف!!!

قبل أن أنقلب حَاجِيَّ نوَّارًا خففت الأصوات في أذني واختلجت
أنوار الغرفة، انقبض صدري وطَهر إحساسي بأطرافني حين شعرت
بالخُضور، التفت بعدفتي ناحية الباب فرأيتها رُوجة الشامون، تُجر
شعرها على الأرض وراءها وتقترب، مَشلول تاهتها ولا أقدر على
الخرقة، في لحظة حين بات وجهها أمام وجهي، شعرت بأنفاسها
على صدري وحفيف شعرها فوق صدغي تَتمتم بنغمة خافتة:

مهما الزمان طَوَّل..

لا تتجاوز لارملة..

ولا اللي أتجاوزت لأول..

تأكل في عمرك..

وتذكر جوزها الأول..

نظرت في عيني ثم قنعت فمها ببطء ففتحت فمي مُقلداً بلا إرادة،
أخرجت مادةً رمادية أشبه بالمُخاط، سبعت في المسافة الفُشيلة بيني
وبينها، بلا جاذبية، قبل أن تدخل فمي الذي انغلق بضغط كادت معه
أسناني وضروسي أن تتكسر، ثم انسَدَّ أنفي، ابتلعت السائل عَنوة بعد
مقاومة لا تُذكر، لا طعم له ولا رائحة، في لحظة حين أخرى رأيتها
عند باب الغرفة تنظر لي باهتمام قبل أن تغادر وينسحب وراءها
شعرها على الأرض..

كان ذلك حين انطفأ الكون بنجومه ومجراته... بغتة!!

أهسطس..

درجة الحرارة: ٩٠ °C..

منبه المحمول انتزعني من غياهب النوم، راقداً على جانبي الأيسر
الفظ أنفاسي، قلبي مُنسحق في ضلوعي، صفراء معدتي تسليخ حلقِي،
والعرق يَكسوني كمُلاكَم في جولته الثانية عشرة..

مَدَدت ذراعي قَسْرًا إلى المنضدة فلم تتحرك تنميلًا، نفضتها
ليتدفق الدم فيها قبل أن التقط المحمول لأخرس إلحاح جرسه
المُسْتَعَز، بمُعجزة جلست مُحاوِلاً استيعاب الزمن، عيناَي مُغلقتان
بأسمنت سريع التصلب ورالحة حَلَقِي مؤخرة يَحْتَزِر مَيِّتًا!

قُمْتُ مُتْرَنِّحًا أَجْتَر كَابُوس لَيْلَةٍ أَمْسَ، سَيِّدَةُ الدَّارِ الَّتِي زَارْتَنِي
قَبْلَ الْفَجْرِ وَأَغْنَيْتَهَا الَّتِي لَا زَالَت تَرْنٌ فِي رَأْسِي! تَخَبَّطْتُ حَتَّى بَابِ
الْغُرْفَةِ وَخَرَجْتُ إِلَى الصَّالَةِ حِينَ رَأَيْتَهَا مَارَةً بِضَفِيرَةٍ وَصَلَتْ لِنِصْفِ
ظَهْرِهَا، وَشَوْرَتْ قَصِيرَ خَرَجَتْ مِنْهُ سَاقَاهَا النِّيُونَ!

دَهَكَتْ عَيْنِي قَبْلَ أَنْ أَتْبِعَهَا لِلْمَطْبَخِ، لَمْ تُشْعُرْ بِوُجُودِي حِينَ
دَخَلْتُ، كَانَتْ وَاقِفَةً أَمَامَ مِِنْضَدَةِ الْمَطْبَخِ تَقْطَعُ الْخُبْزَ لِتَصْنَعَ
سَانْدْوِيْشًا..

- بُنَى ١١

شهقت والتفتت لي ببطن في شهرها السابع..

- اعمل صوت وانت ماشي خفتني حرام عليك..

قالتها ثم اقتربت ولثمت خدي بقبلة مُتَعَجِّلَةٌ قبل أن ترجع
للمنهدة لتصب لبنًا في طبق كورن فليكس..

- أنت بتعملي إيه هنا؟

- يا عمل ساندوتشات لهانيا.. والنبي إملا لها الزمزية؛ الباص
زمانه خاي!

قالتها ودست زمزية بلاستيكية تحمل رسمة «Winnie the Pooh» في يدي وخرجت مُسرعة تَذُقُ الأرض بهشيش وردي،
خرجت وراءها أبحث عن الفيل الأزرق ولم أجده، الشمس تمارس
الجنس مع هيني بلا حياة، بالكاد لمحتها تدخل حُرقة ابنتي، لما تبعتها
رايتها جالسة على السرير، وهانيا ابتها بين ساقها توليها ظهرها
لُتْسَلِّك شعرها بالفرشاة، تَسْمَرُت فاقدا القدرة على الاستيعاب
حتى التفتت لي الطفلة وابتسمت، قبل أن تقوم بُنَى وتلتقط من
يدي الزمزية:

- يا كسلان!! خُش الحمام أنت اللي متأخرع الشغل.. يله.

قالتها ودفعني ناحية الحمام حين أطلق الأوتوبس بوقه..

- يا لهوي!! الباص جه.. يله يا هانيا.. بوسي يحيى..

أقبلت علي الطفلة وقبلتني بابتسامة نائمة، ملأت كُهنَى الزمزية

قبل أن تفتح لها الباب وتُطلقها في الحديقة وترسل وراءها قبلة في الهواء ثم أغلقت الباب وتأمّلت وجهي بدهشة:

- مالك حائل كده ليه ١٩

- أنت إزاي ١٩... حصل حاجة مع خالد... ١٩

قطبت جبينها حين سمعت اسم خالد ثم جلست:

- آخر مرة في التليفون كان هُلس جدًا.. بس هيجي ياخذ هانيا النهاردة بخزجها.. اشترطت عليه يرجعها بدري هشان المدرسة مش زي آخر مرة.. وهيجيب بقية القسط بتاع الترم الثاني..

- لبنى.. أنا مش فاهم حاجة.. أنت اطلّقني ١٩

فلّكت منها ضحكة عالية قبل أن تُشير لبطنها المتفخ..

- لو ما كتش بطلت شرب كنت صدقتك ١١ بله أنت اتأخّرت.. الساعة سبعة ونص..

قالتها ودفعني دفعًا ناحية الحَمّام، في الطريق مرّرت بصورة على الجدار، صورة تجمعني بلبنى، أرتدي بدلة عريس وترتدي فستان عروس، وبيتنا هانيا ١١

- لبنى.. إحنا بقى لنا قد إيه متجوزين ١٩

- يا يحيى بطل رخامة ١١

- بجد..

- نسيت ١١

- رقي بس..

- مستين وتلات أيام.. بله..

- اتجوزنا إزاي؟

- أنا مش مصدقة رخامتك النهاردة!!

- رقي بس عليا..

نفخت في ملل ثم أحاطت رقبتي بذراعيها:

- نسيت لما طلبتني وقلت لي محتاج لك؟! نسيت لما سألتني

إيه معني تقضي عُمرنا متعدين؟! نسيت الفيلم اللي عملناه عشان

نبقى مع بعض؟!

- وبعدين؟!

- وبعدين طلبت الطلاق من خالد.. إيه يا يحيى مالك النهاردة؟!

- أنا خليتك تطلقي من خالد؟!

- أنت خلّتني أسعد إنسانة في الدنيا.. يله هتاخر..

لثمتني بقبلة مُعجّلة ثم دفعتني للحمام وأغلقت الباب ورائي

وابتعد صوتها، وقفت منيّا أتطلع لنفسي في المرأة، أغمضت

عيني مُحاولًا تذكّر ما شريت بالأمس، لم أتذكر سوى زيارة زوجة

المأمون وإفرازها الهلامي في فمي، امتعضت قبل أن أصفع وجهي

لأفبق من الجِلْم الغريب، تألمت قبل أن أشعر بالحرارة تستعير على

جلدي، جلد فراخي اليسرى! خلعت القميص الذي ارتديه فرايت

وَشَعَادَاتِنَا بَعْدَ مِنَ الْكَتِفِ نَبْتَهِ فِي الْكَتِفِ، نَقْطَعُهُ بِالْعَرَضِ خَطُوطِ
تَلَفٍ حَوْلِ ذِرَاعِي كَلْدَرَجَاتِ السَّلَمِ، نَهَايَةُ كُلِّ مِنْهَا مَشْبُوكَةٌ بِمَا يَشْبَهُ
حَرْفِي «ص» مُتَعَاكِسِينَ..

وَشَمَّ بِتَحَرُّكِ كَفْرُوعِ اللَّبْلَابِ.. بَيْطَاء..

الفيل الأزرق

بعد خمس سنوات من العزلة الاختيارية يستأنف د. يحيى عمله في مستشفى العباسية للصحة النفسية، حيث يجد في انتظاره مفاجأة..

في ٨٠ غروب، القسم الذي يقرر مصير مرتكبي الجرائم، يُقابل صديقاً قديماً يحمل إليه ماضياً جاهد طويلاً لينساه. ويصبح مصيره فجأة بين يدي يحيى.. تعصف المفاجآت بيحيى وتقلب حياته رأساً على عقب، ليصبح ما بدأ كمحاولة لاكتشاف حقيقة صديقه، رحلة مثيرة لاكتشاف نفسه..

أو ما تبقى منها.

ياخذنا أحمد مراد في روايته الثالثة إلى كواليس عالم غريب قضى عامين في دراسة تفاصيله، رحلة مثيرة تستكشف فيها أعماق وأغرب خبايا النفس البشرية..

أحمد مراد؛ كاتب مصري من مواليد القاهرة ١٩٧٨، تخرج في مدرسة «ليسيه» الحزبية قبل أن يلتحق بالعهد العالي للسينما قسم التصوير السينمائي، تخرج عام ٢٠٠١ ونالت أفلام تخرجه «الهائمون - الثلاث ورقسات - وفي اليوم السابع» جوائز للأفلام القصيرة في مهرجانات بيجليرا وفرنسا وأوكرانيا.. بدأ كتابة روايته الأولى «فيريجو» في شتاء عام ٢٠٠٧، ونشرت في العام نفسه قبل أن تُترجم للإنجليزية والفرنسية والإيطالية، وتم تحويلها لمسلسل تلفزيوني عام ٢٠١٢.. ثم أصدر روايته الثانية «شراب الناس» في فبراير ٢٠١٠ لتحتل قائمة أكثر الكتب مبيعاً قبل أن تُترجم للإيطالية.

